

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 85 - February 2006

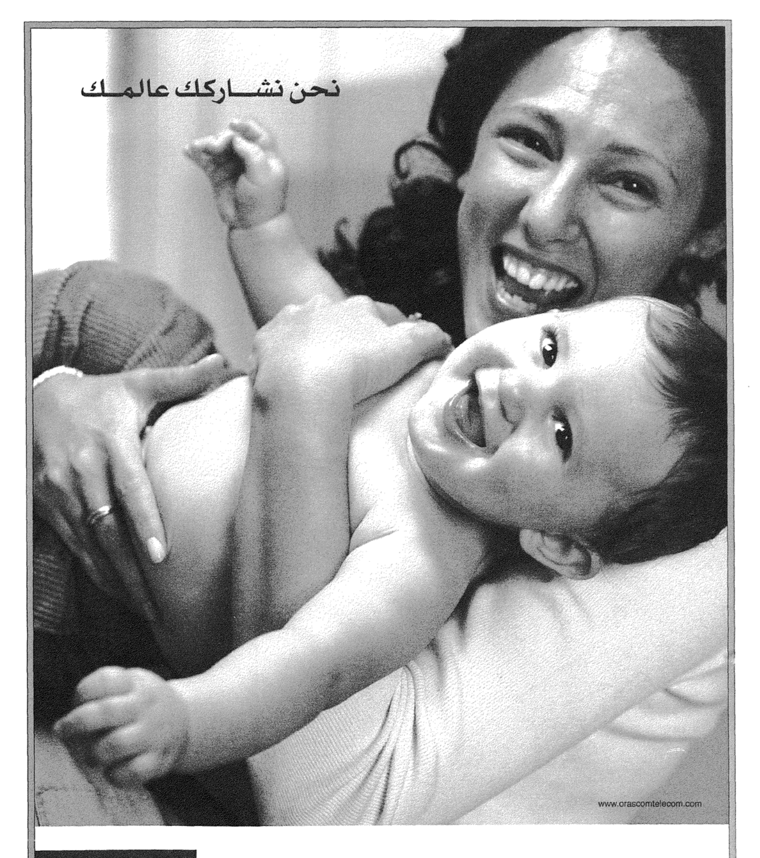
مجلة شهرية . العدد الخامس والثمانون . السنة الثامنة . فبراير ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

إفسَاد الفقَراء

أمينة شفيق

شهادات حول "أولاد حارتنا" /كمال أبوالمجد ■ **جنود الإمام الغائب!** /تيموثي جارتون آش ■ **حوار الطرشان بين سوريا ولبنان** /سلامة أحمد سلامة ■ **بحثاً عن الهارموني** /يحيى الرخاوي

وجهات نظر.. هيكل .. مصر /خيري منصور، أيمن الصياد


نحن نشـــاركك عالـمـك
www.orascomtelecom.com

السنة الثامنة
العدد الخامس والثمانون
فبراير ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

• سلامة أحمد سلامة ٤
نون: «حوار الطرشان بين سوريا ولبنان»
• تيموثى جارتون أش ٦
«جنود الإمام الغائب»
• أمينة شفيق ١٤
«إفساد الفقراء»
• روبرت سكيدلسكى ٢٠
«الظل الصينى»
• جوناثان سبنس ٢٣
«ماو: صورة قاسية»
Mao: The Unknown Story، تأليف: جون هاليداى، تونج شانج
• أحمد صقر عاشور ٢٨
«أزمة المؤسسات فى مصر»
• يحيى الرخاوى ٣٦
«بحثاً عن الهارمونى.. نيازك الخرافة والإيقاع الحيوى..»
• مصطفى الرزاز ٤٤
«فنانة من عصر «الإتقان».. منحة الله حلمى، والريادة الجرافيكية»
• أحمد مستجير ٥٢
«أحلام.. وكوابيس.. وعلم.. وخرافات: النَّوْمُ... ذلك «الموت» الصغير»
• أندرو هاكر ٦٠
«حقيقة الجامعات»
١. *Privilege: Harvard and the Education of the Ruling Class*،
تأليف: روث جريجورى دوثات
٢. *What the Best College Teachers Do*، تأليف: كين باين
٣. *University, Inc.: The Corporate Corruption of American Higher Education*، تأليف: جينيفر واشبورن
• محمد صالح الجابرى ٦٤
«بل هكذا تورد الموسوعات»
• أحمد كمال أبو المجد ٦٨
«حول «أولاد حارتنا»»
• إصدارات جديدة ٧٠
• رسائل ٧٨
• خيرى منصور ٨٠
«وجهات نظر.. هيكل.. مصرا»
• أيمن الصياد ٨٢
قراءة: «هذه المجلة..»

كتّاب العدد:

- أحمد صقر عاشور.. أستاذ الإدارة - جامعة الإسكندرية
- أحمد كمال أبوالمجد... أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة.
- أحمد مستجير .. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- أمينة شفيق.. صحفية.
- أندرو هاكر.. مدرس العلوم السياسية بكلية كوينز بالولايات المتحدة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تيموثى جارتون أش.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة أكسفورد
- روبرت سكيدلسكى.. -أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة وورويك بإنجلترا
- جوناثان سبنس.. أستاذ التاريخ الصينى الحديث بجامعة ييل الأمريكية.
- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- محمد صالح الجابرى.. مدير موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين.
- مصطفى الرزاز.. فنان تشكيلى وكاتب.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

حوار الطرشان بين سوريا ولبنان

احتلت سوريا نقطة مفصلية فريدة فى العالم العربى على مر التاريخ الحديث. فلم تنفتح أبواب الأطماع والمؤامرات الخارجية على الشرق الأوسط، إلا وكانت سوريا فى القلب منها. ولم تتشكل جذور المقاومة والصمود أمام الجيوش والغزوات الاستعمارية، إلا وكانت سوريا فى المقدمة منها. ولم تترعرع فكرة القومية العربية ورؤاها الواقعية والحالمة إلا فى ربوعها وعلى لسان روادها من المفكرين والسياسيين والأدباء. وعلى ضفافها قامت أول إمبراطورية إسلامية فى الشام على يد دولة الأمويين. وربما لهذه الأسباب كلها تحمل الشعب السورى على اختلاف طوائفه وولاءاته وعناصره البشرية طموحات الأحلام القومية وأوهام الوحدة العربية.. تلك التى أفضت فى النهاية إلى التضحية بكثير من الآمال التى تعلقها الشعوب على التطور الطبيعى فى نزوعها الدائب إلى الحرية والديمقراطية.

ويبدو الموقف الراهن فى سوريا عند مفترق طرق. إذ تتجمع غيوم داكنة لإعصار سياسى فى سماء المنطقة، يتجه بكل قوته واندفاعه إلى بلاد الشام التاريخية، التى جمعت سوريا ولبنان فى محيط واحد، ربطت بينهما علاقة خاصة وإن لم تنتقص من سيادة كل منهما. وربما بسبب هذه العلاقة الخاصة التى ظلت على الدوام مصدر قوة قادرة على الوقوف فى وجه الصراعات والضغوط الدولية التى نجمت عن التوسع الاستيطانى الإسرائيلى.. أن أصبحت هذه الخصوصية هدفًا تسعى قوى كثيرة لكسرها وإضعافها والقضاء عليها، تمهيدًا لعودة نفوذ القوى ذات المصلحة فى الشرق الأوسط.

ولا يمكن فى هذا الإطار أن نغفل حقيقة تاريخية، وهى أن هذه المنطقة عاشت تاريخًا حافلاً بالصراع والدسائس والمؤامرات سواء قبل أن تنقض جيوش الصليبيين عليها، أو فى عصر الإمبراطورية الإسلامية التى شهدت اقتتال ملوك وأمراء وعائلات وطوائف. ثم جاء قيام إسرائيل ليحدث فى المنطقة زلزالاً، كانت سوريا ولبنان هى الأقرب إلى مركزه والأكثر تأثرًا بتداعياته، بالطبع بعد فلسطين. وظلت منطقة الشام نتيجة لكل هذه التراكمات هدفًا لصراعات الشرق الأوسط وأكثرها عرضة لسباق النفوذ. وسوف نكتشف بعد ذلك مدى انعكاس هذه الظروف التاريخية على نظم الحكم التى قامت فى كل من سوريا ولبنان، واتسمت بعدم الاستقرار نتيجة مزيج من عوامل مختلفة، لعبت فيها الممارسات الطائفية دورًا رئيسيًا، وبالأخص فى الظروف التى قادت وتلت التدخل العسكرى السورى فى الحرب الأهلية اللبنانية.

ليس فى قصدنا هنا أن نعود إلى الظروف الإقليمية والدولية التى أعقبت حرب أكتوبر ٧٣، ودخول الصراع العربى - الإسرائيلى مرحلة البحث عن تسوية سلمية مع إسرائيل، قادتها مصر. وهو ما اعتبره البعض بداية الوهن والقلاقل التى توالت على العالم العربى بسبب تغير التوازنات الدولية، وظهور معادلات جديدة، ومصالح وعلاقات بين الأطراف المحلية والدولية استهدفت الضغط بكل الوسائل الممكنة للوصول إلى تسوية سلمية. ولكننا لا ينبغى أن نغفل فى هذا السياق أن نظم الحكم العربية كلها وبدون استثناء أخفقت. ربما متذرعة بهذا الصراع أو بسببه. فى إقامة بناء سياسى حديث للدولة العصرية. وقد طغت فى كثير من الأحيان هشاشة الأوضاع الداخلية على أساليب مقاومة الصراع مع إسرائيل، مما أدى إلى وقوع كوارث وهزائم عديدة على مستوى الداخل والخارج. سرعان ما ظهرت آثارها فى التطورات العاصفة التى شهدتها المنطقة فى السنوات العشر الأخيرة، وعلى وجه التحديد فى الأزمة الراهنة التى تطبق على أنفاس سوريا ولبنان، وتوشك أن تشعل حربًا أهلية جديدة، وتفتح الباب إن لم تكن قد فتحته أمام تدخلات دولية خطيرة.

على أن من أهم هذه الآثار، أن بقيت مشكلة الاحتلال الإسرائيلى لأراضى الجولان السورية معلقة دون حل، بل ودون نية فى حلها من جانب إسرائيل والولايات المتحدة، على أساس أن الأسبقية البديهية هى لتسوية فلسطينية إسرائيلية، ثم يكون بعدها ما يكون بحيث تصبح قضية الجولان أيسر فى التناول وأدعى للتنازل.. وهو ما خلق حالة من الضيق والغضب المعلن والمكتوم، سممت أجواء العلاقات بين سوريا وأمريكا، وأضفت أجواء من الشكوك لم تسلم منها علاقات سوريا بجيرانها من الدول العربية، بل ازدادت تفاقمًا. وحين اقتضت حاجة القوة الأمريكية العظمى أن تشارك سوريا فى الجهود الحربية التى واكبت غزو العراق للكويت، لم تحصل سوريا على ما كانت تتوقعه من وعود أمريكية لتسوية عادلة لمشكلة الجولان ولو على نمط التسويات التى تمت مع مصر والأردن. واكتفت أمريكا بأن غضت الطرف. فى المقابل. عن انفراد سوريا بالنفوذ فى لبنان. حيث تصدت القوات السورية لإطفاء نيران الحرب الأهلية التى أنهكت لبنان ودمرت اقتصادياته. ولعبت دورًا مهمًا فى إقامة التوازنات الطائفية التى استمرت سائدة تحت إشراف وجود عسكرى سورى نافذ على الحياة السياسية اللبنانية، خرجت فيه الطائفة الشيعية منتصرة بزعامة «حزب الله» لتستعيد حقوقها المهضومة فى التركيبة الطائفية اللبنانية.



ومع تغير التوازنات الدولية ووقوع هجمات سبتمبر ٢٠٠١ فى واشنطن ونيويورك، واعتلاء اليمين الأمريكى المحافظ السلطة، كانت الاستعدادات التى مهدت لغزو العراق نذير شؤم على كافة الأوضاع فى الشرق الأوسط، وعلى سوريا بالذات. فقد كان الوجود العسكرى الأمريكى فى العراق يشكل تهديدًا مباشرًا لسوريا التى وضعتها الإدارة الأمريكية الداعمة لإسرائيل على قائمة الدول المارقة المتهمة بالإرهاب، أو بدعم الإرهاب، والمرشحة لضربات استباقية هى وإيران. ومرة أخرى لم يشفع لسوريا حين تعاونت مع المخابرات الأمريكية فى الحرب على الإرهاب، وملاحقة المشتبه فيهم من تنظيم القاعدة وأتباع بن لادن، لكى تعيد أمريكا النظر فى علاقاتها معها. بل حاولت واشنطن ممارسة المزيد من الضغوط لإجبارها على التخلى عن دعم حزب الله اللبنانى والمنظمات الفلسطينية التى تتخذ من دمشق مقرًا لها وتعارض شروط التسوية الإسرائيلية. ولم تتوقف أيضًا عن اتهام دمشق بتسهيل دخول المقاومة وتدفق الأسلحة عبر الحدود السورية للقيام بعمليات إرهابية وهجمات على قوات الاحتلال فى العراق. ومازالت أمريكا تكرر هذه الاتهامات حتى الآن، مدعية أن سوريا وقد انسحبت من لبنان، أخذت تدعم بالمال والسلاح ميليشيات حزب الله والكتائب الفلسطينية فى لبنان.

ولا جدال فى أن هذه الغيوم التى تجمعت فى سماء العلاقات السورية الأمريكية، هى التى ضغطت على أعصاب النظام السورى، فدفعته إلى ارتكاب خطأ جسيم فى لبنان، حين استخدمت دمشق نفوذها من الوعد والوعيد لتعديل الدستور اللبنانى والتمديد للرئيس لحود حليفها، على غير رغبة من القوى السياسية اللبنانية ومعارضة فرنسية شديدة. وكان هدف سوريا هو تأمين جبهتها اللبنانية وبالأخص فى الجنوب اللبنانى الذى نجحت قوات حزب الله فى تطهيره من الاحتلال الإسرائيلى. على أن لبنان. رغم شعوره بالجميل للدور السورى فى إنهاء الحرب الأهلية. كان يتوق إلى الوضع الذى يستعيد فيه شعبه كامل سيادته، ويحقق طموحاته فى أداء دور إنسانى وثقافى واقتصادى، يعيد صياغة العلاقات بين سوريا ولبنان على أسس متكافئة مقبولة من جميع الأطراف بإرادة حرة.

ثم إن النظام السورى نفسه بحكم بقائه فى السلطة أكثر من ثلاثين عامًا تحت قيادة الرئيس حافظ الأسد، ثم انتقالها إلى نجله بشار بصورة وراثية لم تخل من لمسة طائفية مهما بدا عكس

ذلك، وبينما كانت رياح الإصلاح تهب على دول عربية أخرى، بضغوط داخلية أحيانًا وخارجية أحيانًا أخرى. فقد بقى النظام فى سوريا تحت قيادة رئيسه الشاب، محبوسًا فى إطار حلقة ضيقة من الرءوس القديمة فى حزب البعث، والأجهزة الأمنية، وشبكة من المصالح العائلية والانتماءات الحزبية الطائفية، غافلاً عن إيقاع الزمن الجديد الذى أسقط معظم الأنظمة الشمولية والشعبوية فى أوروبا وآسيا وزحف إلى أرجاء العالم.



فى هذه الظروف الملتبسة وقع حادث اغتيال الحريرى، ليطلق سلسلة من ردود الفعل العنيفة والدامية التى لم تتوقف حتى الآن. والتى امتدت آثارها من لبنان إلى سوريا وبالعكس. ثم التقطتها القوى المتربعة الساعية إلى إعادة رسم وصياغة المنطقة، لتستثمرها على أفضل وجه يخدم مصلحتها. وكان طبيعيًا، سواء بالافتراض أم بتسلسل الوقائع، أن يوضع اغتيال الحريرى الذى تم بحرفية عالية لا تنجزها سوى أجهزة مخابراتية مدربة. فى سياق عدد من حوادث الاغتيال الغامضة التى سبقته وجرى التخلص فيها من ثلاثين شخصية مرموقة ممن اعتبروا خصومًا سياسيين لسوريا. من بينهم الرئيسان بشير الجميل ورينيه معوض والزعيم الدرزى كمال جنبلاط. وتلت جريمة اغتيال الحريرى سلسلة اغتيالات لشخصيات صنفت أيضًا ضد الوجود السورى فى لبنان، من أمثال جبران توينى والصحفى سمير قصير وجورج حاوى.

جرت هذه التطورات على المستوى الداخلى، فى ظل الضغوط الأمريكية التى كانت قد نجحت فى استصدار قرار مجلس الأمن (١٥٥٩) يطالب سوريا بسحب قواتها من لبنان ويدعو إلى تصفية الميليشيات والمنظمات الإرهابية، بما يعنى حزب الله والفصائل الفلسطينية. فلما وقع حادث الحريرى ذهبت الاتهامات إلى أنه كان وراء التحريض الدولى الذى خططت له ونفذته فرنسا وأمريكا، وأن مقتله كان عقابًا ورسالة للقوى اللبنانية التى تسانده، والتى أخذت تتجمع لتشكل معسكرًا مناهضًا وناقمًا على سوريا.

والحاصل هو أن المشهد اللبنانى دخل مرحلة فرز عنيفة، أيقظت المخاوف من العودة إلى حرب أهلية، بين معسكر معارض لسوريا تستغله قوى خارجية، ومعسكر موال لسوريا يدعو لعلاقات تقوم على وحدة الهدف والمصير المشترك. وجاء القرار الثانى لمجلس الأمن بإرسال لجنة تحقيق دولية فى اغتيال الحريرى بناء على طلب الحكومة اللبنانية، لتتعمق الخلافات وتثور الأحقاد وتبعث الضغائن التى ظن الجميع أنها ماتت ودفنت مع الحرب الأهلية.

وساعد على ذلك أن الانتخابات اللبنانية التى جرت فى أجواء التوتر والشكوك المتبادلة، أسفرت عن مجلس نيابى تميعت فيه القوى والولاءات. فتشكلت حكومة ضمت أطيافًا متنافرة تعكس حالة الانقسام العميق التى لم يبرأ لبنان منها تمامًا. مما أتاح الفرصة للقوى الخارجية. أمريكية وفرنسية. للتأثير على قرارات الحكومة. فالرئيس لحود معزول أو منعزل داخل قصره، يطالب معسكر المعارضة باستقالته لأنه حليف سوريا. ويحجم كبار المسئولين الدوليين عن طلب مقابلته كما جرت العادة. ووزارة السنيورة التى تشكلت بعد صعوبات وعقبات هائلة، لا تكاد تأتلف حتى تختلف.. فالوزراء الخمسة من حزب الله وأمل المحسوبون على سوريا يقاطعون اجتماعات مجلس الوزراء. والحوارات الدائرة بين الأحزاب والأطياف حوارات طرشان. والشارع اللبنانى يتصارع فى مظاهرات حاشدة بين المعسكرين.

والذى لا شك فيه أن التحقيقات التى أجراها المحقق الدولى ديتليف ميليس، واستمع فيها إلى أقوال عدد من كبار المسئولين اللبنانيين والسوريين من بينهم رؤساء الأجهزة الأمنية الأربعة الذين وقع الحادث تحت مسئوليتهم، وكذلك القيادات الأمنية السورية الوثيقة الصلة بقمة النظام السورى، خلقت أجواء ضبابية من الشكوك والهواجس والأدلة غير القاطعة، التى لم ترق فى أى وقت من الأوقات إلى توجيه اتهام واضح صريح إلى أشخاص بعينهم، ولم تحدد على وجه القطع أدوار الضالعين فى العملية والمنفذين والمحرضين عليها. فجاء تقريره ثم تصريحاته محملة بإشارات وتنبيهات وتلميحات يمكن تفسيرها على وجوه متعددة، تمس أسرة الرئيس بشار الأسد و«الحلقة الضيقة» المحيطة به.



الشارع العربى فقد قدرته على التعاطف مع أنظمة تحكمها نخب منحطة وفاسدة سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. لا يهمها لو تعلقت بآخر قشة أملاً فى النجاة حتى ولو أدى الأمر إلى السقوط بالأمة كلها فى هاوية لا قرار لها



وقد ظهر نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام والقيادى البارز فى حزب البعث، فى هذه الظروف الحرجة التى تتعرض فيها سوريا لحصار سياسى دولى، ليرفع الستار عن أسوأ فصول الدراما السورية اللبنانية، ويحولها من مأساة ملطخة بدماء الضحايا الذين فقدوا أرواحهم أو حريتهم أو إنسانيتهم على مذبح الصعود إلى السلطة والاحتفاظ بها، إلى ملهاة يلعب فيها الفساد والرشوة وتجارة المخدرات وغسيل الأموال أدوارًا عديدة، يكاد لا يبرأ منها سياسى سورى أو لبنانى، الأحياء منهم والأموات، كبار اللاعبين وصغارهم، الأبطال والكومبارس، الجواسيس والعملاء.. وهو ما عكسته بوضوح صورة عبد الحليم خدام فى قصره بباريس. يدلى بتصريحاته ويكيل التهم للنظام الذى كان أحد سدنته أربعين عامًا من عمره السبعينى!



وبينما لم يختلف الغرب. أمريكا وفرنسا. على ضرورة استغلال الأزمة السورية اللبنانية لتنفيذ أجندة متفق عليها، مع توزيع بارع للأدوار بين واشنطن وباريس، اختلفت وتناقضت المواقف العربية. ففرنسا يهمها استعادة نفوذها التاريخى فى لبنان، والعودة إلى الشام عن طريق بيروت. بينما كان هم أمريكا هو اعتصار النظام السورى وإرغامه على التعاون لضرب المقاومة العراقية من ناحية، وتجفيف مساعداته لحزب الله والأنشطة الفلسطينية المعارضة للتسوية.. أى تقليم أظافر النظام السورى استجابة لمقتضيات الأمن الإسرائيلية. من ناحية أخرى. فضلاً عن إضعاف أو كسر القوس الشيعى الممتد بين دمشق وحزب الله وطهران.

أما العالم العربى فقد وقع بين شقى الرحى: الالتزام بالتجاوب مع المجتمع الدولى الذى يصر على محاسبة المسئولين عن اغتيال الحريرى، ولو أدى ذلك إلى النيل من النظام السورى من قمة رأسه إلى قاعدته من ناحية. ومن ناحية أخرى الخوف من استغلال التحقيق لأغراض سياسية تعصف بالنظام السورى. ولا تقف عند حدود دمشق بل تمتد إلى ما وراء ذلك فى اتجاه مصر والسعودية.

ولا يمكن فى هذا الإطار إغفال بعد ثالث من أبعاد الأزمة. فقد دخلت إيران على الخط. وفى يدها اليمنى ملف برامجها النووية الذى يوشك أن يكتمل بالحصول على دورة الوقود النووى لتكون قوة مناوئة للغرب. وفى يدها اليسرى قدرتها على تصعيد المواجهة مع الغرب، عن طريق ملء الفراغ السياسى الذى أخلاه العرب بالتخلى عن سوريا، وترك الفلسطينيين لقمة سائغة لإسرائيل، وخروج العرب السنة من المعادلة العراقية. وهكذا تتحقق لإيران زعامة العالم الإسلامى، وهو ما ألهمته الزيارة التى قام بها محمود أحمدى نجاد لدمشق.



فى ضوء هذه التطورات، تبدو صورة الوضع العربى قاتمة تبعث على القلق. فالوساطات العربية (مصر والسعودية والجامعة العربية) لتحسين العلاقات بين سوريا ولبنان، عن طريق وقف الحملات الإعلامية والاستعداد لترسيم الحدود بين البلدين الشقيقين، بهدف إخراج التحقيق الدولى من متاهة التسييس.. لقيت معارضة شديدة واتهامات بالتواطؤ من جانب قوى لبنانية تسعى إلى إسقاط النظام السورى بأى ثمن. فى نفس الوقت الذى توشك أن تنقطع فيه خيوط الحوار الداخلى بين المعسكرات المتناحرة فى لبنان. وفى سوريا يقف النظام عاجزًا عن التقدم بمبادرات داخلية إصلاحية، أو مبادرات خارجية تسحب الريح من قلوع سفينة تبحر فى مهب الإعصار.

أما الشارع العربى فقد فقد قدرته على التعاطف مع أنظمة عربية تحكمها نخب منحطة وفاسدة سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. لا يهمها لو تعلقت بآخر قشة أملاً فى النجاة حتى ولو أدى الأمر إلى السقوط بالأمة كلها فى هاوية لا قرار لها. وفى كثير من الأحيان يقفز المنقذ إلى اليم لإنقاذ غريق على شفا الهلاك فيغرق معه. وهى نتيجة طبيعية لتراكم الأخطاء وغياب المحاسبة والرقابة التى تفرضها الديمقراطية على نظم حكم لم تعرف غير السلطة المطلقة. وليس من المتوقع أن تشهد الأزمة انفراجًا حين تنعقد القمة العربية فى مارس القادم.. هذا إن لم تؤد التداعيات والتعقيدات إلى نسفها. ■

جنـــــود الإمـــــام





تيموثى جارتون أش

■■ فى الصخرة الشاهقة فى نقش إروستوم تماثيل منحوتة بشكل رائع، تحدق بعيدا عبر الصحراء، قبور الأباطرة الفرس العظماء من ٢٥٠٠ عام مضت: داريوس، زيركسيس، أرتازيركسيس. تنخفض لأسفل وجه المنحدر الصخرى الشاهق لهذا الجبل الإمبراطورى رشمور لترى صخرة منحوتة بشكل بارز، تومض فى الصيف. إنها تشير إلى الشاه الأخير لكل الشاهات، شابور الاول، الذى قبل استسلام فاليريان الإمبراطور الرومانى، فى عام ٢٦٠ بعد الميلاد طبقا للتقويم المسيحى. الفاتح المنتصر، على ظهر الفرس ومجهز بشكل مجيد، يتفوق على فارس بدون سيف، ويقهر قيصر.

سألت رفيقى الإيرانى «ماذا حدث لفاليريان؟».

«لقد قتل بالطبع».



فى وقت مبكر من هذا الخريف، كما تحدى حكام إيران اليوم روما الجديدة بالاستمرار فى برنامجهم النووى، سافرت لأسبوعين إلى ما تسمى اليوم بالجمهورية الإسلامية الإيرانية. فى سنة ١٣٨٤ حسب التقويم الإيرانى، تكلمت مع الملالى المسلحين بالحاسوبات النقالة، ومع مؤيدى النظام فى مدينة قم، ومع فلاسفة إسلاميين معارضين للنظام إلى حد كبير. وقابلت مثقفين من كل الأنواع والمشارب، فنانون، مزارعون، سياسيون، ورجال أعمال. الجدير بالذكر، أنى قضيت مدة طويلة، فى محادثات حادة مع بعض

عن مجلة:

New York review of Books

أكتوبر ٢٠٠٥.

ترجمة: جمال عمر

الشباب الإيرانيين الذين يكونون الأغلبية من سكان البلاد. أرى وجوههم الجادة تجاهي بينما أكتب، خاصة من النساء، اللاتي يلبسن وشاح الرأس الإسلامي الإلزامي، الحجاب، والذي يستطعن تحويله بطريقة ما إلى ملمح للحسن والجمال الهادئ.

في الطابق الأعلى لمطعم في مدينة أصفهان المدهشة، شاهدت استمرارية الثقافة الفارسية، مع مغنٍ ينشد قصائد لأحد شعراء القرن الرابع عشر بينما الرواد المحليون يحدقون عاليا في القبة ذات الألوان الزرقاء، والبيضاء، والتركوازية لمسجد الشيخ لطف الله، المضاءة بعكس السماء المظلمة. (أنت في أغلب الأحيان لا تسمع الأشعار المغناة في الحانات الإنجليزية).

وبشكل أكثر نموذجية، كنت أندفع بسبب الحرارة، والغبار، والتلوث اللاسع للعين، والمرور الانتحاري في طهران، تلك المدينة الفوضوية التي تؤوي ١٢ مليون شخص، التي يتعامل سائقوها مع كل دائرة مرور كدعوة للعب لعبة الدجاج الأمريكية، الانحراف فقط لتفادي حواجز الاصطدام بالسائقين الآخرين. أو أحياناً لا ينحرف.

تذوقت أيضا طعم الحياة خلف أسوار الحدائق العالية لبيوت الطبقات العالية والمتوسطة، حيث يخلع الحجاب فوراً وتقال آراء تحتقر بشكل قاس الحماس الإسلامي الثوري لرئيس البلاد الجديد، محمود أحمدي نجاد. خلال دقائق من وصولي لواحد من هذه البيوت، عدد من النساء يرتدين البيكيني كن يدعونني بشكل مثير للذهاب عاريا معهن إلى حمام السباحة، بينما قدم الرجال لي شراباً من زجاجة مكتوب عليها «٩٨٪ كحول ايثيلي».

هذه اللقاءات وضحت سمة، على ما يبدو لها تاريخ طويل، وهي التي لفت محدثي الإيراني انتباهي باستمرار إليها: التباين بين ما يقوله الإيرانيون في الخارج وما يقولونه داخل تلك الجدران العالية. الحديث الخادع كطريقة للحياة. لم يسبق لي أن كنت في بلد أخبرني فيه العديد من الناس أنه لا يجب أن أصدق ما يقوله الناس. أشاروا مراراً وتكراراً إلى العادة الشيعية للتقية، التي وفقاً لها يكون للمؤمنين الحق في الكذب دفاعا عن إيمانهم. اليوم غير المؤمنين لديهم التقية الخاصة بهم.

الإيرانيون حذروني أيضاً بأن بلدهم غني بالخرافة - المنقولة أحياناً بالوسائل الحديثة جداً. في وسط مرور طهران المزدحم، سائقي استلم رسالة نصية على هاتفه الخلوي. تطلب منه العودة بسرعة للصلاة من أجل عودة الإمام الغائب، إمام الشيعة الثاني عشر أو المهدي، الذي من المفترض أنه اختفى قبل حوالي ١١٢٧ سنة. مثقف علماني تعجب بصوت عال قائلاً: إن أي مجتمع موبوء بالكذب والخرافة هو على أية حال قابل للفهم والإدراك عن طريق البحث عن السبب والتفسير.

وسط هذا المزيج البرى من القديم والحديث، بحثت عن أجوبة لسؤال واحد حاسم: كيف يمكن أن يتحول النظام الإسلامي الثوري إلى نظام مختلف، سواء بشكل تدريجي أو فجائي، بقوى اجتماعية وسياسية من داخل تلك البلاد؟ وأضفت ثانية: كيف يمكن لسياسات أوروبا والولايات المتحدة، التي لحسن الحظ لا تتضمن في الوقت الحاضر نموذج العراق لمحاولة فرض «تغيير النظام» بالاحتلال العسكري، أن يؤثر على تلك القوى الداخلية؟



إن النظام السياسي للجمهورية الإسلامية الإيرانية معقد جدا وبسيط لأبعد الحدود في نفس الوقت. أغلب الإيرانيين الذين التقيت بهم فضلوا تشديد التعقيد. البلاد لها على الأقل حكومتان الأمر الذي يشكل سابقة: هيكل دولة نصف ديمقراطية رسمي، الآن برئاسة الرئيس محمود أحمدي نجاد، وقيادة دينية أيديولوجية برئاسة المرشد الأعلى، آية الله علي خامنئي.

هناك عدة مراكز قوى رسمية وغير رسمية متحركة، تشمل الأحزاب السياسية في البرلمان، الوزارات، المؤسسات الدينية الغنية، الحرس الثوري، وميليشيات الباسيج التي يصل عددها بالملايين، التي ساعدت على انتخاب أحمدي نجاد. هناك أيضاً جماعات المافيا العرقية أو الإقليمية العرقية أو الإقليمية، وأجهزة الاستخبارات العديدة المتنافسة، ووكالات الأمن، والشرطة - ثماني عشرة منها طبقا لإحصاء أخير. فلا عجب أن يصل علماء السياسة الإيرانيون إلى مصطلحات مثل «الحكم التعددي» و«حكم القلة الانتخابي»، و«شبه الديمقراطي»، أو «الوراثي الجديد».

مع ذلك، فقد شعرت بقوة أن جوهر هذا النظام يبقى بسيطاً جداً. في جوهره، الجمهورية الإسلامية ما زالت دكتاتورية أيديولوجية. المبدأ التنظيمي المركزي لهذا النظام يمكن أن يلخص في أربع جمل: (١) هناك إله واحد ومحمد رسوله. (٢) الله أعلم بالأفضل والأصلح للرجال والنساء. (٣) رجال الدين الإسلاميون، وخصوصاً الأكثر تعلماً منهم، هم الخبراء المؤهلون لتفسير القانون الإسلامي (الشريعة)، وهم يعرفون أفضل ما يريده الله. (٤) في حالة النزاع بين الخبراء المتعلمين، فإن المرشد الأعلى هو الذي يقرر.

هذا النظام الذي ابتكره، آية الله العظمى روح الله الخميني، تم تبريره بأنه إعادة تفسير متشدد للمفهوم الإسلامي ولاية الفقيه، الذي يفسر بشكل معتاد بأنه وصاية رجال الدين. هذا النظام ليس هو الإسلام؛ هو الخومينية. هذا النظام لم يكن ليوجد بدون ذلك الرجل العجوز، الذي ما زالت صورته المتجهمة تحدق فيك في كل مكان في إيران، مع ذلك الآن توضع إلى جانبه عادة صورة وريثه، المرشد الأعلى الحالي، آية الله علي خامنئي. إذا شككت في أهمية دور الفرد في التاريخ، فتذكر قصة الخميني.

زرت البيت الذي قضى فيه طفولته في مدينة السوق الريفية خمين - آيات الله يأخذون عموما لقبهم من اسم مدينتهم، لذلك فإن الخميني تعني أنه من خمين. وهو منزل كبير وجميل ومبني من الطوب الأصفر، بالساحات الداخلية والخارجية التقليدية، ونقش مكتوب يحتفل بـ «مسقط رأس شمس خمين». أبوه قتل وكان عمره أربعة أشهر، وماتت أمه وهو في الخامسة عشرة من عمره، وأعطي إلى المدارس الدينية التي دربته ليكون رجل دين. إذا كان حتى أحد أبويه قد عاش، هل كان يمكن أن يكون الخميني قصة مختلفة؟ في الخارج لوحة إعلانات تصفه، بأنه «باعث الحكومة الدينية في العالم المعاصر».

الخميني كان كلا من لينين وستالين بالنسبة للثورة الإيرانية الإسلامية. النظام الذي ابتكره يتشابه في بعض الأشياء مع حالة الحزب الشيوعي. في الخومينية، ولاية الفقيه هي المبدأ السياسي الذي يساوي وظيفيا الدور القائد للحزب الشيوعي. هنا، أيضاً، توجد تراتبية متوازية من القوة الأيديولوجية والرسمية، والأخير يفوز بلعب الورقة الرابحة في النهاية. إن نصف أيديولوجيا الجمهورية الإسلامية تقريبا غير ديمقراطية كلياً: إن المرشد الأعلى معين من قبل مجلس الوصاية، والسلطة القضائية الإسلامية، وجمعية الخبراء.

كل هذه الهيئات يسيطر عليها رجال الدين المحافظون. إن المؤسسات الرسمية أكثر ديموقراطية، مع منافسة حقيقية على الرغم من محدودية السلطة. على أية حال، مجلس الوصاية بشكل اعتباطي يحرم الآلاف ممن يريدون أن يترشحوا للبرلمان، يسيطر النظام على كل القنوات التليفزيونية الحكومية المهمة جداً، وقوات الأمن مثل ميليشيا الباسيج تستطيع أن تعبئ وتخيف الناخبين، لذا لا يوجد أحد يستطيع الكلام عن الانتخابات الحرة والعادلة بجدية.



كما فى حالات الأحزاب الشيوعية، هناك صراع حزبى حاد وهو ما يعتبره بعض الخبراء الغربيين خطأ بالتعددية لكنه على خلاف حالات الأحزاب الشيوعية، فإن الفصائل الحزبية المتنافسة تناشد الناخبين فى الحقيقة لتعزيز موقعها. هكذا قدم أحمدى نجاد نفسه بنجاح إلى الناخبين كرجل بسيط متطهر غريب إلى النظام، رغم أنه أصبح الآن جزءا منه، يعمل مباشرة مع خامنئى ومجلس الوصاية. منافسه فى الجولة الرئاسية الثانية، هو الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى، الذى كان قد كُذب بشأن استياء جزء كبير من مجموعة الملالى المسيطرة منه: «أى شخص كان سيربح ضد رفسنجانى»، كما أخبرنى سياسى إيرانى. رفسنجانى ينتقد الآن أسلوب خطاب أحمدى نجاد الإسلامى الثورى إلى الأمم المتحدة كونه غير دبلوماسى.



على الرغم من انه رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام القوى، الذى يتوسط التدرج الأيديولوجى غير الديموقراطى والبرلمان نصف الديمقراطى. كان هو رافسنجانى الذى أعلن هذا الصيف «بأن النظام قرر استئناف إعادة معالجة اليورانيوم». وعندما يستعمل الزعماء ذلك التعبير «النظام» فإن كل شخص يعرف بأنهم يعنون تدرج القيادة الأيديولوجى حتى المرشد الأعلى.

فى حالة الحزب الشيوعى، خط الحزب كان يوجد فى صفحات صحيفة البرافدا. أما فى حالة الملالى الإسلاميين، فإن «خط الإمام» يسلم خلال صلاة الجمعة، جلستان حضرتهما، الأولى فى المسجد العالمى ذى النمط الرائع فى أصفهان، والأسبوع التالى، فى جلسة سياسية ضيقة فى جامعة طهران. فى جلسة طهران، ألقى رجل دين إسلامى كبير - رئيس مجلس الوصاية، محاضرة دينية سياسية عنيفة، يشجب فيها بشكل خاص أمريكا وبريطانيا. الرسالة السياسية يتم إقحامها بين الصلوات الإسلامية التقليدية. فى طهران، الصلاة تنتهى بأنشودة للمصلين: «تسقط أمريكا! تسقط إسرائيل! يسقط أعداء ولاية الفقيه».

كيف يمكن تحويل مثل هذا النظام، أو كما يفضل الكثيرون أن يقولوا، إصلاحه؟ لقد سمعت كثيرا جدا كلمة «إصلاح» فى كل مكان ذهبت إليه فى إيران. وبشكل سريع أدركت بأنها تعنى عدة أشياء مختلفة. أولاً، هناك حوار أيديولوجى بين المثقفين الإسلاميين، يدور حول ما كان يطلق عليه فى العالم الشيوعى «التصحيحية» الذى يحاول مراجعة الأيديولوجية التى بنيت على أساسها الدولة. كما يقول التصحيحيون أنه فى الخمسينيات بولندا كانت أيضاً جزءاً من حوار أوسع حول الشيوعية الدولية، لذا فإن وجهات نظر التصحيحيين الإيرانيين ستكون لها نتائج هامة على الإسلام الدولى.

لقد كنت معجبًا بحيوية هذا الحوار. بينما العديد من الإيرانيين مستاءون بشكل واضح من إقحام الإسلام كدين للدولة، أنا لم أجد أى إحساس بأن الأيديولوجية الإسلامية قضية ميتة، بينما، على سبيل المثال، الأيديولوجية الشيوعية كانت قد أصبحت قضية ميتة فى وسط أوربا فى الثمانينيات. بعيداً عن هذا. فى مدينة قم عاصمة الخمينى اللاهوتية، الآن هى مقر لحوالى مائتين من مجالس الخبراء الإسلامية ومؤسسات التعليم العالى، لقد التقيت مع مجموعة بحثية فى الفلسفة السياسية الإسلامية. وسألت لماذا لا يتوافق الإسلام مع حالة الديمقراطية الليبرالية العلمانية، كما هو الحال على نحو متزايد فى تركيا؟ «تركيا ليست قم»، قال محسن ريزفانى الفيلسوف الشاب الذى يلبس العباءة وعمامة الملالى، وهو يضحك حول المنضدة. الإسلام كما يقول ريزفانى «أنثروبولوجياً، ودينياً ومعرفياً غير متوافق مع الديمقراطية الليبرالية. أنثروبولوجياً، لأن الديمقراطية الليبرالية مرتكزة على الحرية الفردية. ودينياً لأنها تستبعد الله من الفضاء العام. ومعرفياً، لأنها مرتكزة على السبب وليس الإيمان. ثم أعطانى نسخة من فصلية علم السياسة، ليست المجلة الأمريكية وإنما الطبعة الخاصة بهم فى قم. قرأت فيها ملخصاً باللغة الإنجليزية لمقالة رائعة كتبها ريزفانى حول ليو شتراوس.

حاولت إثارته وقلت «لذا أنت من المحافظين الجدد».

رد قائلاً: لا، وأضاف: إن المحافظين الجدد الأمريكيين لا يفهمون شتراوس بشكل صحيح.



أنا يمكن أن أتصور الآن، حتى قبل ترجمة المقالة كاملة لى، ما سيجده الملا الإيرانى المحافظ جديرا بالاحترام فى شتراوس: الإصرار على أن هناك حقيقة وحيدة فى النص الكلاسيكى، وأن ما يعنيه المؤلف (مثال على ذلك، الله، فى حالة القرآن) أفضل التفسيرات من قبل طليعة العقلانية الأفلاطونية الجديدة (بالنسبة للقرآن، وللخبراء الإسلاميين الذين يتطلع ريزفانى للانضمام إليهم). رغم ذلك، فإن الآخرين الجالسين على الطاولة قد اعترضوا على ما يقوله هذا «الوولفويتز» من قم، مستشهدين بالحداثيين الإسلاميين أمثال عبد الكريم سوروش الذى يؤكد على أن الإسلام يتوافق مع الدولة العلمانية.

فى طهران، التقيت مع أكثر الإسلاميين التصحيحيين إثارة للجدل، البروفيسور محسن كاديفار، وهو فقيه مبتسم، ومتعلم، وشجاع. أحد أسباب الحوار الإسلامى الإيرانى النشيط جداً هو أن التقليد الشيعى ليس فقط يجيز ولكنه يشجع الاختلافات القوية بين أتباع آيات الله الكبار المتنافسين للمرتبة الأعلى، أولئك الذين فازوا بلقب مرجعية التقليد. «البروفيسور كاديفار هو مؤيد لآية الله العظمى حسين على منتظرى، الذى كان من المفترض أن يكون وريث الخمينى كزعيم أعلى حتى حرمه أبو الثورة ووضعه تحت الإقامة الإجبارية فى قم.

قبل سنوات قليلة، أخذ كاديفار الخطوة الجريئة بالقول بأن ولاية الفقيه ليس لها قاعدة صحيحة فى القرآن أو فى الفكر الإسلامى السائد، وغير متوافقة مع جوهر الجمهورية الحقيقية. تساءل أيضا عن صحة الحكم الإسلامى فى الحكم على الناس (ومثال ذلك: سلمان رشدى) بالموت فى غيابهم، وصرح فى مقابلة صحفية بأن إيران اليوم تعيد إنتاج خصائص حكم الشاه الملكى: «الناس صنعوا الثورة ليتمكنوا من اتخاذ القرارات، وليس لكى تتخذ القرارات لهم»، وقد دفع ثمن أمانته الفكرية ثمانية عشر شهراً فى السجن.

اقتبست إلى كاديفار تعليق الفيلسوف البولندى ليسزك كول/اكوفيسكى، الذى كان تصحيحياً شيوعياً سابقًا، الذى يقول فيه إن فكرة الشيوعية الديمقراطية مثل قلى كرات الثلج. «بالضبط» صاح كاديفار: الديمقراطية الخومينية مثل قلى كرات الثلج.

إن هذا ما ترفضه تماما المجموعة الأخرى، المعروفة أيضا باسم «الإصلاحيين الإسلاميين»، الذين كانوا رفاق كاديفار فى الثورة. وهم ما يمكن أن نقول عنهم بأنهم إصلاحيون «من داخل النظام» كانوا فى الحكومة فى السنوات الثمانى الماضية، فى ظل رئاسة محمد خاتمى. وكان أملهم أن يتمكنوا جزئيا من إصلاح ودمقرطة الجمهورية الإسلامية، بينما تترك الأعمدة المركزية للخومينية بدون اعتراض.

لكنهم فشلوا. العديد من



الناس الذين أيدوا الرئيس خاتمى وزملاءه الإصلاحيين فى أواخر التسعينيات أخبرونى بأنهم محبطون.

تحدثت مع واحد من أشهر مصلحى النظام وأكثرهم تأثيرا، سعيد هاجريان الرئيس السابق لجهاز مكافحة التجسس الذى أصيب فى عام ٢٠٠٠ بطلق نارى فى الرقبة، من المحتمل أن يكون قد أطلقه قاتل ينتمى لجهاز أمن منافس مرتبط بالحرس الثورى. اجتمعنا فى مكتبه البسيط المتقشف، فى بناية غير مرقمة. على حائط مكتبه كانت هناك صورة لآية الله خمينى. على المنضدة كانت هناك كومة كبيرة من المقالات المنسوخة من المجلات الأكاديمية الغربية، تحلل طرق الانتقال إلى الديمقراطية.

ربما فقط فى إيران يمكن أن تجلس داخل بناية جهاز أمن مع صورة لآية الله خمينى تحدق على كومة المقالات الغربية حول طرق الانتقال إلى الديمقراطية. لكن كيف تجمع هذه العناصر؟ كنتيجة لمحاولة الاغتيال، فإن هاجريان شخص ضعيف البنية أصفر الوجه يرتدى زياً رياضياً، يحرك جسمه بصعوبة وكلامه غير واضح. رغم ذلك فإن إجاباته القوية تنم عن عقل سياسى حاد. تكلم، حتى تعب، عن الكيفية التى بها يتمكن الإصلاحيون من استعادة عافيتهم، وإعادة بناء الدعم الشعبى من خلال أكبر عدد من المنظمات المحترفة والاستخدام الأفضل للصحافة والتليفزيون. واقترح، أنهم يجب أن يجمعوا أموالاً أكثر من العمل وأن يناشدوا الهموم المادية اليومية للناس العاديين، مثلما فعل أحمدى نجاد بنجاح فى حملته الانتخابية. لكننى عدت من هذا اللقاء بشعور بأن فرص الشفاء الكامل النظام الإسلامى لإصلاحيى أقل من تلك التى يأملها هاجريان من داخله.



إن هذا الشك مشترك مع الصحفى الجرىء عماد الدين باغى، الإصلاحى الإسلامى السابق الذى سجن لأكثر من سنتين بسبب كتاباته الناقدة. الجلسة كانت فى المكتب الحديث واللطيف للمنظمة غير الحكومية التى أسسها للدفاع عن حقوق السجناء، باغى رجل مهذب وملتح ومتوسط العمر، أخبرنى بأن ما هو مطلوب الآن ليس إصلاحاً من فوق، من دولة الفقهاء - كما يدافع هاجريان - لكن إصلاحا عن طريق المنظمات من أسفل، فى المجتمع المدنى. المنشقون من أوروبا الوسطى بعد ربيع براج كانوا قد ذكرونى بفشل «الاشتراكية بوجه إنسانى» مثلهم، يعتقد باجى بأن الطريق الصحيح ليس فى التصحيحية الأيديولوجية أو الإصلاح من داخل النظام - الرئيس السابق خاتمى فشل فى أن يجعل الخومينية بوجه إنسانى - لكن الطريق الصحيح يكون من خلال تنظيم الناس لأنفسهم فى مجتمع مستقل عن الدولة.

بالرغم من أننى وجدت حجته العامة مقنعة، فإن ما استوقفنى هو أن باغى، الذى ما زال عليه حكم معلق بالسجن لسنة واحدة يخيم على رأسه، كان يتحدث عن محاولات بسيطة جداً فى التنظيم الاجتماعى. قال بوضوح بأن مثل هذه الجهود يجب أن تنحصر فى الذين لا يجد فيهم الفقهاء تهديدا سياسيا. فهو يعرف جيداً أن النشطاء البارزين مثله وزملاءه الحميمين أمثال شيرين عبادى الفائزة بجائزة نوبل للسلام يمكن أن تغلق منظماتهم فى أية لحظة. وهو يعرف بأن المجلات والصحف الناقدة تغلق فى أغلب الأحيان ببساطة، مثلما حدث لصحيفته الخاصة.

تقريباً كل شخص أشرت إليه بداية من المسئولين الكبار فى النظام الحالى مثل الرئيس أحمدى نجاد، ومن الناقدين للنظام مثل هاجريان وكاديفار وباغى، إلى السجناء السياسيين مثل أكبر جانجى كانوا مشاركين نشطاء فى الثورة الإسلامية. هم أبناء الثورة. ومع ذلك، فهناك أيضاً العديد من اليساريين والليبراليين العلمانيين الذين عارضوا الشاه لكنهم لم يشاركوا فى الثورة الإسلامية، ويعملون الآن فى المنظمات غير الحكومية، وفى النشر، وفى الجامعات، أو فى الحياة الثقافية، مثل صناع أغلب الأفلام الصادمة فى البلاد. لليبرالى علمانى واحد مشهور جدا خصوصاً فى الغرب هو الدكتور رامين جاهانبيجلو، مؤلف كتاب المحادثات مع أشعيا برلين، الذى جلب مفكرين أمثال يورجين هابرماس وريتشارد رورتى وانطونيو نيجرى، لإلقاء محاضرات على جمهور متعاطف ومهتم بلغ حوالى ألفى شخص فى طهران.



رغم ذلك سواء أكان علمانيًا أو إسلامياً، فإن مجال المناورة لهؤلاء الذين يعملون فى «المجتمع المدنى» محدود تماماً. كل المنظمات غير الحكومية، على سبيل المثال، يجب أن يتم تسجيلها رسمياً، وتجدد رخصتها كل سنة. بروفات الكتب يجب أن تقدم لجهاز الرقابة التابع لوزارة للثقافة والتوجيه الإسلامى، والصفحات التى تمت مراقبتها يجب إعادة طباعتها ثانية حتى لا يسأل القراء عن أى شىء أنفقت الضرائب. الجامعات تحت السيطرة تماما. المناقشات النظرية لاستحقاقات الديمقراطية محتملة؛ لكن النقد العملى لوصاية الخبراء غير ممكن بالتأكيد.

حقيقة أن النظام له عدة مراكز للقوة تضيف عنصراً إضافيًا لعدم اليقين. على سبيل المثال، تكلمت مع طالب معارض كان قد أطلق سراحه من جهاز أمن الدولة الرسمى لكى يعتقل ثانية بعد شهور قليلة من قبل الحرس الثورى. لا أحد يعرف بالضبط أين الحدود. نتيجة لذلك، فهناك كلتا الحالتين الحرية اللافتة للنظر من الحوار الثقافى وتيار الخوف الدائم.

بالنسبة للشخص الذى درس حالات ما بعد الشمولية أو الديكتاتوريات الاستبدادية، سواء فى أوروبا، وأمريكا اللاتينية، أو جنوب أفريقيا، فإنها تدريجيا أصبحت دولا أقل استبدادا، وفى النهاية أصبحت ديمقراطيات، بناء على ذلك، فإن السؤال الرئيسى بالنسبة لإيران هو: ما هى القوى المجتمعية الداخلية التى يمكن أن تساعد فى زيادة الضغط الاجتماعى السلمى لتغيير النظام تدريجيا؟

عمال الصناعة فى إيران لم يظهروا حتى الآن أى إشارات لقدرتهم على تنظيم أنفسهم، مثلما فعلت حركة تضامن البولندية قبل خمسة وعشرين عاما. بين المزارعين هناك بطالة ريفية كبيرة وبعض السخط. فى إحدى القرى الجبلية، تكلمت مع الرعاة الذين أخبرونى بأن نصف زملائهم القرويين كانوا عاطلين. الكثيرون يخرجون إلى الحقول فى الليل لتعاطى المخدرات. رغم ذلك، فإن رد الفعل الرئيسى على البؤس الريفى هو الهجرة إلى المدن. وهناك تتضخم أعداد فقراء الحضر الذين، بدلاً من أن يساهموا فى المعارضة السياسية، فإنهم على الأرجح يتم تجنيدهم كقطاع طرق أو تعبئتهم فى الشوارع من قبل ميليشيا الباسيج التابعة للنظام.

ماذا عن كبار رجال الأعمال الأغنياء المتغربين؟ أحد رجال الأعمال الذين تحدثت معهم تحدث عن النظام بازدراء ناقد فى السر، لكنه يعتمد عليه فى أعماله التجارية. البعض منهم كون شراكات تجارية مع قيادات الملالى. ومن المحتمل أن يكونوا راغبين فى دعم حركة المعارضة عند لحظة التغيير الحاسم، مثل الاوليجاركية فى صربيا وأوكرانيا، لكن ليس قبل ذلك. على أية حال، هم أنفسهم يشيرون إلى أن أغلب الاقتصاد الإيرانى ما زال فى أيدى التجار التقليديين من البازار. فى إيران، تجار البازار كانوا تقليدياً حلفاء لرجال الدين الإسلاميين، العلماء، والآن هناك بعض إشارات التغيير.



فى هذه الأثناء، النظام يمتلك مصادر قوة رئيسية لتعزيز قوته. مع النفط الذى وصل سعره فى الوقت الذى اكتب فيه إلى أكثر من ٦٠ دولاراً للبرميل، فإن إيراداته النفطية خلال ستة شهور غطت كامل ميزانية الدولة للسنة الحالية. الحكومة يمكن أن تدعم بسخاء المواد الغذائية الاساسية مثل الخبز، والشاى، والسكر، والأرز وتبقى على سعر الوقود المنخفض جداً. ربع القوة العاملة موظفون لدى الدولة، يعتمدون على سلطات الدولة بالنسبة لوظائفهم. إن أجهزة الأمن العديدة احتاطت لذلك جيدا. بعد أقل من ثلاثين سنة من الثورة السلمية التى تحولت إلى عنف واستبداد، معظم الناس المتقدمين فى السن يمتلكون شهية قليلة لثورة أخرى. وإذا حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا، زيادة الضغط من الخارج، فإن إيران يمكن أن تجعل الحياة أكثر صعوبة للاحتلال الأجنبى فى الأجزاء الشيعية للعراق، حيث ينمو نفوذ الجمهورية الإسلامية.

وبعد ذلك، مم يخاف هذا النظام؟ شىء واحد فقط، استنتجته، لكنه شىء كبير جدا: إنهم شباب النظام، أحفاد الثورة.



إيران دولة قديمة جداً، حوالى ٢٥٠٠ سنة من التاريخ المستمر. هى أيضاً دولة شابة جداً. ثلثا عدد سكانها البالغ ٧٠ مليوناً يقع تحت سن الثلاثين. هذه جزئيا على الأقل نتيجة السياسات المتعمدة: فى الثمانينيات، العقد الأول بعد الثورة، الملالى شجعوا زيادة النسل، بشكل يشجب التطبيق الغربى لتحديد النسل والدعوة إلى كثرة الإنجاب لاستبدال شهداء البلاد فى الحرب العراقية الإيرانية. الأزواج الوطنيون الذين أنجبوا خمسة أو اكثر من الأطفال كانوا قد منحوا قطعة أرض مجانية للبناء.. دعاية النظام أطلقت على هؤلاء الأطفال لقب «جنود الإمام الغائب».

لتحويل هؤلاء الشباب إلى مواطنين إسلاميين صالحين، افتتح الملالى شبكة من الجامعات الجديدة فى أرجاء البلد كلها، أسمتها الجامعة الإسلامية المجانية. طبقاً للكتاب السنوى للإحصاء الإيرانى لعام ١٣٨٢ (٢٠٠٣- ٢٠٠٤)، هناك حوالى مليونى طالب مسجلين حالياً فى التعليم العالى فى إيران، نصفهم تقريباً من النساء.

لذلك الآن تراهم فى كل مكان، هؤلاء «جنود الإمام الغائب» يتكلمون على هواتفهم الخلوية أو يتغازلون فى المتنزهات، حجاب البنات شفاف وردى أو أخضر، يملن للخلف لكشف بعض ضفائر الشعر الفاتنة، بينما يعرى الجينز الملفوف بتعمد الكواحل فوق الأحذية الجلدية. فى المدن، الجواكت السوداء الطويلة التى من المفترض أن تخفى شخصية البنت التى كانت مطلوبة سابقا استبدلت بجواكت قصيرة، بيضاء أو وردية.

فى كافيتريا لتناول الشاى تحت أقواس الجسر الحجرى المبنى من القرن السابع عشر فى أصفهان، التقيت بشابة جميلة، تضع الماكياج وترتدى الملابس المعطرة، وكانت تتباهى بالملابس القصيرة لدرجة أن هناك أربع بوصات كاملة من الجلد عارية فوق الكاحلين ومزينة بأساور من اللؤلؤ. ضحكت، وقالت إن هناك إشاعة أن الحكومة الجديدة ستفرض غرامة ٢٥٠٠٠ تومان حوالى ٢٧ دولاراً لكل سنتيمتر من اللحم المكشوف لكنها لم تهتم. حتى فى مسقط راس الخمينى، الشابات كن يلبسن جينز وأحذية غربية الطراز تحت سترهم الضيقة.

الملابس التى يرتديها الرجال لها دلالة رمزية مألوفة بشكل أقل. فقد جاء طالب يدرس القانون لرؤيتى وكان يرتدى بدلة سوداء وربطة عنق. فى بادئ الأمر، اعتقدت بأنه يجب أن يكون شاباً مملاً؛ لكنى كنت مخطئ. لأن الرداء العادى لرجال النظام هو ربطة عنق أقل صرامة (كما كان الرئيس أحمدى نجاد عندما تكلم فى الأمم المتحدة)، أن تلبس بدلة وربطة عنق فهى علامة على الاستقلال الشجاع عن النظام. الطالب الآخر، الذى كان قد سجن عدة مرات لنشاطه المعارض، أخبرنى أن «ربطة العنق هى إشارة الاحتجاج».



فى أغلب الأحيان، يأخذ احتجاجهم أشكال غير سياسية. الكثير يريدون الهجرة والانضمام إلى ملايين الإيرانيين الذين يعيشون فى الخارج. أنا كنت قد قلت مراراً وتكراراً إن متعة هذا الجيل؛ المجموعات البرية وراء الأسوار العالية للعمارات السكنية فى شمال طهران الثرى، هى مع موسيقى البوب الغربية، الكحول، والمخدرات، والأفلام الجنسية. اكتشفت فى سوق طهران قميصاً كتب عليه «مطلوب: العلاقة الليلية بلا معنى» إذا كان هؤلاء يمكن أن يتحملوا، فإنهم ينسلون إلى دبى لبضعة أيام، حيث يمكن للشابات أن يمزقن الحجاب ويرقصن كما يردن.

ورغم ذلك فقد التقيت واجتمعت لساعات طويلة بالعديد من الشباب الرائع المهتم بشكل جدى؛ ومعظمهم حسن الاطلاع بشئون بلده ومتحمس بشكل جاد لتحسينها. هؤلاء يمكن أن يعرفوا الكثير من الصحافة المحلية، إذا قرأوا بعناية. ويستمعون إلى محطات الإذاعة الغربية (البى بى سى الفارسية أو الإذاعة الموجهة من الولايات المتحدة «فاردا»)، وهم يشاهدون الفضائيات، الممنوعة رسميا، ومع ذلك فالوصول إليها سهل. كما انهم يستعملون الإنترنت بشكل خلاق.



بعض مواقع الإنترنت المشتبه بها سياسياً أو أخلاقيا مغلقة فى إيران- كذلك موقع المعارض آية الله حسين على منتظرى (منتظرى دوت كوم)، على سبيل المثال، أو بغرابة اكثر، موقع جامعة فرجينيا. (متصفح الويب الإيرانى المطبق الذى نبهنى إلى هذا اقترح على بأن أدوات بحث الرقباء الإسلاميين الآلية لا بد أنها اكتشفت كلمة «عذراء» virgin فى فرجينيا). لكن هؤلاء الشباب لديهم طرق للتحايل على المعوقات.

إيران أيضا لديها على الأقل ٥٠٠٠٠ مشارك blogger فى صفحات المدونات على الإنترنت. وقد وضح لى أحد الطلاب بأنه نظراً لأن هذه المدونات مجهولة الاسم أو المصدر فى أغلب الأحيان، فان الناس يمكن أن يتكلموا بحرية، بشكل لا يتجاسرون على اتباعه حتى فى دوائر الطلبة الأصدقاء، فقد يكون بين هؤلاء الأصدقاء من هو جاسوس للنظام. التلميح إلى وصف النظام اللطيف لوكالات استخباراته بأنهم «الجنود المجهولون للإمام الغائب» فإن الطلبة يطلقون عليهم، بسخرية ثقيلة، «جنود الإمام المختفى» الذين يفترض بالطبع بأنهم (أى الطلبة) هم جنود الإمام الغائب.

صرف النظام خمساً وعشرين سنة يحاول أن يجعل هؤلاء الشباب موالين تماما للإسلام ومعادين للأمريكان وللغرب ولإسرائيل. كانت النتيجة، أن معظم هؤلاء الشباب مستاءون من الإسلام فى شكله الإيرانى المفروض حالياً، وبالأحرى مؤيد للأمريكان، ومطلع بشكل وثيق لأحوال إسرائيل. أحد العلماء، الذى يعتبر نفسه إصلاحى إسلامى، يقول بأن إيران الآن - تحت حكم الحجاب،كما يقول- معظم المجتمع المدنى فى العالم الإسلامى. يحلم الكثيرون أيضا بالحياة فى أمريكا. عدد كبير نسبياً من الشباب الإيرانيين رحبوا حتى باحتلال العراق، ويتمنون أن يجلب الحرية والديمقراطية إلى البلد الأقرب لهم. ويدركون كيف أن الغزو الأمريكى قد أفاد الشيعة فى جنوب العراق، ويسخرون من أن الرئيس



السودان وأهل السودان

يوسف الشريف

حب عميق للسودان وأهل السودان يشى به هذا الكتاب وهو كما يقول الدكتور حيدر إبراهيم على رئيس مركز الدراسات السودانية بالقاهرة يأتى ليكسر الصمت والإهمال الذى لازم تاريخ الكتابة المصرية عن السودان والمؤلف وهو الكاتب والصحفى البارز يوسف الشريف معروف بحبه للسودان وبمعرفته ودراميته فى شئونه ليس فقط من النواحى السياسية والاقتصادية بل فى أعماق السودانيين عواطفهم وأحاسيسهم وتفكيرهم ورغم أن علاقات مصر والسودان فى شتى المجالات متشعبة لدرجة قد يصعب حصرها إلا أن قليلاً من الكتاب المصريين هم الذين تخصصوا فى الشأن السودانى وأقل القليل هم الذين عرفوا السودانيين عن قرب وتمعنوا فى واقعهم وتاريخهم. ولذلك فإن كتاب «السودان وأهل السودان» يسد فراغًا كبيرًا فى المكتبة المصرية ليس لأنه تناول مجريات الأحداث خلال السنوات القليلة الماضية بل لأنه تجاوز السياسى المباشر ليغوص فى الأعماق وبشكل خاص الحس الفنى والذوق لدى السودانيين وجانب الفكاهة والهزل لديهم. إنه - أى الكتاب - وصف ثقافى للجوانب الفنية لدى السودانى - وهو أيضًا باقة حب يهديها يوسف الشريف إلى محبوبته السودان وإلى أحبائه السودانيين.

وقد صدر الكتاب عن «دار الشروق» ثم صدرت منه طبعة خاصة أصدرتها الدار ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.



جورج دبليو بوش هو «الإمام الثالث عشر».

الأمل الأفضل لـ ٤٥ مليون شاب هو التغيير السلمى لنظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. «قوتهم الناعمة» يمكن أن تكون أكثر فعالية من خمس وأربعين فرقة عسكرية من جنود المارينز. التراث الإيجابى الوحيد فى سنوات حكم الرئيس الإصلاحى محمد خاتمى هو أن هذا الجيل كبر مع خوف أقل من أسلافه. الطلاب فى جامعة طهران كانوا قد انطلقوا فى مظاهرات احتجاج واسعة النطاق فى صيف ١٩٩٩.

وهؤلاء لن يغفروا لخاتمى سماحه بقمع هذه الاحتجاجات. فى كل عام منذ ١٩٩٩،كان عدد صغير منهم يحاول إحياء الذكرى بالمظاهرات، فكانت قوات الشرطة تفرقهم. كان القمع عنيفًا: هكذا كتب، قائد طلابى شهير ما زال يقضى العقوبة بالسجن لمدة ست سنوات. رغم ذلك الانطباع فقد عرفت من أولئك الذين تكلمت معهم بأنهم ينوون الاستمرار فى الكفاح، ربما بأشكال احتجاجية أكثر براعة وإبداعاً.

إمكانيات هؤلاء الشباب كما أعتقد كبيرة للغاية فهم متعلمون وغاضبون ومحبطون وطموحون. وعندما يتركون الجامعة فإن معظمهم لن يجد وظائف ملائمة لتخصصاتهم. وإذا ما توافر لهم الوقت والظروف السليمة فإنهم سيأخذون مركز الصدارة فى ممارسة الضغط الاجتماعى المنظم الذى سيسمح للمدافعين عن الإصلاح، وحتى دعاة التغيير، بان تكون لهم اليد العليا داخل الدولة الثنائية.

الولايات المتحدة،مع ذلك، سترتكب خطأ ضخمًا إذا اعتقدت أن هؤلاء الشباب الإيرانيين حلفاء آليون للغرب. فمواقفهم السياسية تجاه الغرب معقدة، ومشوشة جداً فى أغلب الأحيان، وقلقة. على خلاف ما هو حادث فى تركيا المجاورة، حتى أن معظم المتحدثين يصرحون بأنها ستصبح أكثر ديمقراطية ولكنهم لا يتصورون أن بلادهم ستصبح جزءاً من الغرب. فهم يريدون نسخة إيرانية محددة من المجتمع الحديث. إذا رأى هؤلاء أن حضارتهم القديمة فى محيط إقليمى أوسع، يدعونه الشرق الأوسط أو آسيا. فسيقولون كما قال أحد النشطاء فى أوساط الطلبة «نحن ناس شرقيون». علاوة على ذلك، فانهم قليلون الإطلاع حول السياسات الغربية بينما هم حسنو الاطلاع حول إيران.

ماذا بشأن برنامج إيران النووى؟ لم تكن هذه القضية هامة بالنسبة للشباب الذين التقيت بهم. لم يثر أحد منهم القضية فى الحديث معى. عندما سألتهم حولها، انقسموا إلى مجموعتين. المجموعة الأولى شعرت بأن إيران أمة محترمة لكنها غير آمنة محاطة بجيران يمتلكون أسلحة نووية، ولذلك فهى لها الحق ليس فقط فى امتلاك الطاقة النووية المدنية لكن أيضاً الأسلحة النووية. أما المجموعة الثانية فقد شعرت بأن إيران الديمقراطية يجب أن يكون لديها مثل هذه الحق بلا شك، لكنهم يفضلون أن لا يحصل هذا النظام القمعى على الأسلحة النووية. رغم ذلك فإن كلتا المجموعتين أصرت بحماس متساوٍ بأن القصف الأمريكىَ أو الإسرائيلى للتجهيزات النووية، ناهيك عن احتلال من طراز العراق، سيكون له رد فعل غير مقبول إطلاقا بالنسبة لطموحات إيران النووية.

بينما كنا نجلس فى مطعم كنتاكى فى طهران، قالت شابة حسنة التعليم «أحب جورج بوش»، «لكن أنا سأكرهه إذا قصف بلادى». وقالت إنها ستقاوم حتى أى مستوى من العقوبات الاقتصادية على هذه الأرضية. المحلل المحلى المتبصر عزز هذه النقطة فقال: إن هذا الأمر يمكن أن يعطى لهذا النظام الفرصة لاستعادة الدعم الشعبى، خصوصاً بين الشباب الصغار.

مع ذلك، إذا استطاعت أوروبا والولايات المتحدة تفادى ذلك الفخ؛ وأيا كان ما سنفعله نحن لإبطاء بروز إيران النووية لن يبطئ دمقرطة إيران ؛ وإذا، فى نفس الوقت، تمكنا من أن نجد السياسات التى تساعد على الإعتاق الاجتماعى التدريجى والتحرر الذاتى لبلاد فارس، إذن فإن التوقعات على المدى الطويل ستكون جيدة. الثورة الإسلامية، مثل الثورات الفرنسية والروسية، انشغلت بالتهام أطفالها. فى يوم ما، الأحفاد سيلتهمون الثورة. ■

إفســــــــــاد



إن أحد المواطنين لم يجد اسمه فى الكشف التصويتى للصندوق الذى يشرف عليه القاضى فاتجه إليه قائلا: «ممكن أحط صباعى فى الحبر.. لأنى أخدت ٥٠٠ جنيه من... ولو خرجت من غير العلامة الحمرة على صباعى حأضطر أرد الفلوس!»

لاشك أن انتخابات مجلس الشعب المصرى لعام ٢٠٠٥ شهدت حالة غير مسبوقة من الإفساد والفساد العامين. لا يمكن مقارنة هذه الحالة من الإفساد والفساد بكل ما سبقتها من حالات سابقة، سواء قارناها بنظيراتها التى تمت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ أو بكل الحالات التى لحقت بقيام الثورة بدءا من أول انتخابات جرت بعد إقرار دستور عام ١٩٥٦ حتى آخرها التى تمت عام ٢٠٠٠. بالفعل كانت انتخابات مجلس الشعب للدورة البرلمانية ٢٠٠٥/ ٢٠١٠ حالة دراماتيكية غير مسبوقة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر.

ولكن الذى «يميز» هذه الانتخابات النيابية، وهى «ميزة» تدخل ضمن الوصف الدراماتيكى، وإذا كنا سنصفها تجاوزا بـ «الميزة»، أنها حالة من الإفساد والفساد التى تمت على المكشوف أو كما يقال على ألسنة البسطاء من أولاد البلد «على عينك يا تاجر». وفى قول آخر «خلعوا برقع الحياء». لم يلجأ أى جانب من صناعها أو صائغيها إلى التستر أو المواربة أو الخفاء. لم يعرف هؤلاء الصناع قيمة «الحياء السياسى» كما أنهم لم يضعوا هذا «الحياء السياسى» فى اعتبارهم وهم يتعاملون مع بعضهم البعض أو مع الناخبين. أو ربما لم ترد قيمة «الحياء» فى قاموسهم السياسى. لم يخف أحد من أحد. كما أنهم لم يخافوا، جميعا، من عواقب خرق القوانين والضوابط الإجرائية أو التنظيمية التى مهدت للانتخابات.

بالإضافة إلى أن هذه الحالة حدثت فى تصادم مع كل التطلعات والأمنيات والطموحات العامة التى أحاطت بمقدمات هذه الانتخابات والتى تمثلت فى حصول القضاة على حق الإشراف على العملية التصويتية بمراحلها المتتالية، (وليس على العملية الانتخابية). بدأ إشراف القضاء على صناديق التصويت ثم على إجراءات نقلها إلى مقار الفرز ثم على عملية فرز الأصوات وأخيرا إعلان النتائج. كذلك، امتدت هذه المقدمات إلى إقرار مبدأ التصويت فى صندوق زجاجى وبصدور قوانين تحدد السقف المالى للإنفاق على الدعاية الانتخابية بـ سبعين ألف جنيه وبصدور تشريع خاص يؤكد على تجريم البلطجة والعنف. وفى النهاية تأكدت الطموحات وعلت بإقرار دور المنظمات غير الحكومية المصرية فى متابعة ومراقبة العملية الانتخابية.

والمدهش أن الدوائر الانتخابية فى المراحل الثلاث شهدت كماً غير مسبوق من المتابعة الأجنبية التى لم يعلن بشكل

الفقــــــــراء!!

واضح عن وجودها. فرق تتلوها فرق من بلدان الاتحاد الأوروبى، وحتى من بعض العاملين فى السفارات الغربية فى مصر الذين ظهروا بكل بساطة على شاشات الفضائيات وهم يتجولون بكل حرية فى الدوائر. ومع كل هذه «الضوابط» و«القوانين» و«الرقابة» المصرية وغير المصرية، فقد حدث ما حدث من الإفساد والفساد.

فى هذا المقال، لن أتناول من حالة الإفساد والفساد العامة هذه إلا جانبها المالى. لن أدخل فى تفاصيل التزوير أو عمليات القيد الجماعى أو كشوف الانتخابات المستهلكة أو استخدام الأسلحة البيضاء لتخويف وترويع الناخبين أو الهجوم على المقار الانتخابية وطرد الناخبين أو كسر صناديق التصويت أو الاعتداء على القضاة أثناء قيامهم بواجبهم الوطنى أو استحداث فكرة البطاقة الدوارة أو منع الناخبين والناخبات من الوصول إلى صناديقهم أو استخدام أجهزة المحمول فى تصوير بطاقة التصويت ضمانا لتنفيذ الاتفاق أو التدخل الخفى المتستر، الإيجابى أو السلبى؛ والمهذب جدا فى أحيان أو العنيف جدا فى أحيان أخرى، لجهاز الشرطة المصرية. لن أدخل فى كل هذه الأمور التى قتلت «نشرا صريحا وتعليقا واضحا».

سوف أتباعد عن كل هذا الفساد الذى اتسم بمحاولة خديعة المواطنين والإيقاع بهم فى مصيدة تحولهم إلى «فرائس» ضعيفة، يسهل «قنص» أصواتهم لتحقيق كسب برلمانى.

سوف أقترب فقط من الجانب المالى للإفساد والفساد. لأنه الجانب الذى يمس ذمم وطبيعة وهوية أوسع الجماهير المصرية انتشارا، والذين خرجوا من المعركة الانتخابية بعد أن بدوا وكأنهم باتوا فصيلا وجزءا من «مؤسسة الفساد المصرية». وهى الجماهير التى قيل أنها حولت صوتها الانتخابى إلى سلعة تتداول فى السوق السياسية المصرية. كما أنها الجماهير التى تعيش حالة معاناة اقتصادية واجتماعية خانقة، كان من المفروض أن تأتى أصواتها فى انتخابات مجلس الشعب لعام ٢٠٠٥ بنواب شعب يحاولون التخطيط ويتابعون السياسات العامة التى تسعى وتهدف إلى انتشال هذه الجماهير من هذه الأزمة الخانقة. بدلاً من ذلك، خرجت هذه الجماهير من هذه المعركة الانتخابية وقد وضعت أمامها عدة علامات وأسئلة استفسار واستفهام. لأنها وصفت بأنها لا تملك القدرة أو الرغبة فى التغيير طالما باتت جزءا من دائرة الإفساد والفساد. كما أتهمت بأنها كانت الجانب «المتلقى» الذى رحب بالإفساد واستفاد منه ماليا مقابل بيع أصواته الانتخابية. وأتهمت بقبول وبتلقى الرشى السياسية. فى النهاية أتهمت بأنها غير قابلة أو مستعدة لإحداث تغيير سياسى مصرى شامل.

والغريب أن هذا الاتهام أحاط بالمرأة أكثر مما أحاط بالرجل. فى حين أحاط اتهام البلطجة بالرجل أكثر مما أحاط بالمرأة. وفى تقديرى أن الإفساد، المالى تحديدا، كسر حاجز النوع الاجتماعى بحيث لا نستطيع أن نميز الرجل عن المرأة فى تناولنا لدائرة تأثيره السلبى. أثر فى الاثنين بنفس القوة ولكن بأعداد مختلفة وربما بصور متنوعة. وعندما أشير إلى «القوة» فإننى أعنى درجة تغيير القناعات الأساسية والإنسانية للفرد أو للجماعة. كما أحاط اتهام البلطجة بالاثنين معا ولكن بأعداد كثيرة التباين.

وقبل الدخول فى التفاصيل، أرى واجبا أن أتناول، ولو بإبداء الرأى الشخصى، قاعدة الساحة الاقتصادية والاجتماعية التى جرت فيها الانتخابات لعام ٢٠٠٥ والتى رصدنا فيها هذه الحالة غير المسبوقة من الإفساد والفساد. كما أود توضيح أننى لم أتابع كل الدوائر الانتخابية المصرية الـ ٢٢٢ ولكنى حصلت على الكثير من المعلومات من «أصدقاء غير حزبيين» تابعوا البعض منها ونقلوها إلى.

فى البداية، فإنى أفصل بشكل قطعى بين الحضر والريف. هنا، فى هذا المقال ألقى الضوء على ما تناقلته وسائل الإعلام المصرية وغير المصرية مما حدث بكثافة فى الحضر المصرى وخاصة فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد، حيث إنها المواقع الأقرب فى الاتصال عن المواقع الريفية النائية. بعد ذلك، سأوضح بعض ما وصلت إليه من حقائق نتيجة لعدد من الزيارات التى قمت بها إلى عدد من القرى المصرية بعد انتهاء المعركة الانتخابية.

رأيى أن ما حدث فى الحضر اختلف عما حدث فى الريف بالرغم من تجانس بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى الاثنين. كذلك، بالرغم من أن الريف يعانى من مشاكل أخرى غير التى يشترك فيها مع الحضر وخاصة الحضر الفقير والمتوسط.

فكيف كانت قاعدة الساحة السياسية المصرية عشية انتخابات ٢٠٠٥؟ وما هو العنصر الحاسم الذى ساعد على إقامة شراكة فساد بين المرشحين الأثرياء والناخبين الفقراء؟

جرت هذه الانتخابات فى إطار اجتماعى تتعاظم فيه مشكلة البطالة فى صفوف الشباب من المصريين والمصريات. كما تمر سوق العمل المصرية بحالة من الخلل وعدم الانسجام أو عدم التوافق فى علاقاتها وظروفها وشروطها وكذلك فى أجورها ورواتبها. وتتباين معدلات البطالة بين ما تطرحه الحكومة وبين ما تطرحه المنظمات الدولية وبين ما يطرحه الاقتصاديون غير الحكوميين. ولكن فى حدود البيانات التى تتوافر فى المجلس القومى للمرأة، ترتفع بطالة الإناث إلى حوالى أربعة أضعاف بطالة الذكور. فى أوراق اللجنة الاقتصادية للمجلس، يذكر أن نسبة البطالة فى صفوف الذكور تصل إلى حوالى ٦٪ فى حين ترتفع فى صفوف الإناث إلى ٢٠٪. لن أتناول هذه النسب تناول الباحثين أو القائمين على عمليات التخطيط كما أنى لن أطرح أيًا من المعدلات الأخرى، بسبب انعدام وجود قياسات علمية حقيقية لأى منها، ولكنى سأشير إلى حقيقة واضحة لا يمكن الاختلاف عليها، وهى تزايد أعداد الشباب من خريجى الشهادات الجامعية والمتوسطة، الذين نراهم بالعين المجردة، على أرصفة شوارع العواصم، سواء القاهرة أو عواصم المحافظات الأخرى، وقد انخرطوا فى القطاع الاقتصادى غير الرسمى. مئات الألاف من الشباب الأشداء المؤهلين، دفعتهم البطالة إلى الوقوف على الأرصفة لتسويق منتجات صينية متنوعة استوردها تاجر أو مجموعة تجار، وذلك مقابل عمولة أو نسبة على المتحقق من البيع. هؤلاء الباعة من حاملى الشهادات الجامعية والمتوسطة، كانوا من سعداء الحظ، الذين تمكنوا من التعرف على هؤلاء التجار المستوردين. أما هؤلاء التعساء من المتعطلين فقد استمروا فى حالة بحث عن العمل أو أى عمل.

أما المتعطلات من خريجات الجامعات والمراحل المتوسطة، فقد التحقن بالأعمال ذات العلاقات غير القانونية أى فى القطاع الاقتصادى الرسمى الصغير أو المتوسط، الذى يمارس نشاطه الاقتصادى، مثلا، فى المحال التجارية الصغيرة والكثيرة العدد والمنتشرة فى شوارع عواصم المحافظات. التحقن، مرة أخرى فى حالة توافر الحظ السعيد، للعمل فى هذه المحال التجارية الخاصة أو الورش الصغيرة، بلا عقود عمل وبلا أجر ثابت. اضطررن للعمل فى إطار علاقات، يسميها خبراء العمل، بعلاقات السخرة أو ما يشابهها أو ما يقترب منها. وهى العلاقات التى تسمح لصاحب العمل فى تحديد ساعات العمل ونوعه ثم بحجز أو بـ «حبس» جانب من الأجر اليومى بحيث يتراكم لديه مبلغ كبير نسبيا لا تستطيع العاملة الحصول عليه فى حالة امتناعها عن العمل. وبالتالى يضمن صاحب العمل استمرارها، أو اضطرارها للاستمرار فى الانتظام والدوام، بالرغم من تدهور ظروف وعلاقات العمل الذى تؤديه.

وربما يأخذ البعض منا تعطل النساء بدرجة من البساطة. ولكن علينا أن نضع هذه الحقائق الاقتصادية فى إطار تزايد معدلات إعالة النساء لأسرهن سواء كان المعالون أبناءهن أو أشقاءهن أو آباءهن أو، فى أحيان كثيرة، أزواجهن. فى إطار الأزمة الاقتصادية الاجتماعية الخانقة لم يعد العمل اختيارا للمرأة، بل بات حتمية وضرورة.

فالمعروف أن ٢٢٪ من

تبلورت حالات الإفساد والفساد، بشكل حاد، حيث وجد المهمشون اقتصاديا والمحبطون اجتماعيا فى الحضر وليس فى كل الريف

الأسر المصرية تعولها نساء. ولكن الذى لم يغطه إحصاء عام ١٩٩٦ هو علاقة المعالين بالمعيلة.

الهام، فى هذا الشأن، أن هذا القطاع الاقتصادى غير الرسمى الذى ينخرط فيه الشباب المتعطل أو ذلك الآخر الرسمى الصغير والمتوسط والذى لا يلتزم بقوانين العمل والذى تلتحق به الشابات المتعطلات، نشرا وسيدا طبيعة ونسق ونمط علاقاتهما فى سوق العمل المصرية بدرجة جعلت هذه العلاقات هى العلاقات السائدة فى هذا السوق. فاليوم نجد قطاع الأعمال، العام والخاص، وحتى القطاع الحكومى يتبعان ذات الأسلوب من حيث تشغيل العاملين بدون عقود عمل وبالتالى بلا حقوق عمل ينص عليها قانونا العمل والتأمينات.

هذه الأوضاع، وإن بدت اقتصادية بحتة، إلا أنها ذات مردود اجتماعى وثقافى شديد الأهمية. قد أسميها بعلاقات العمل «العشوائية» التى لا تسهم فى بناء مجرى حياة عملى أو إنتاجى للمنخرطين فيها.

ولنا أن نقارن بين عامل ملتحق بوحدة صناعية رسمية. يحدد عقد العمل العلاقات التى تربطه بوحدة العمل وهى العلاقات المؤسسة والمبنية على قوانين العمل وضوابطها التى يلتزم بها طرفا العقد. يقف العامل على خط إنتاج يرتبط بخطوط إنتاج أخرى يعمل عليها زملاؤه. ينخرط فى عضوية ونشاط نقابة وينتخب قياداتها. يعلم أن له إجازات قانونية، مرضية وسنوية واعتيادية. كما أن له حقوقًا ترتبط بالعلاوات والحوافز. يعلم أنه شريك فى نظام للضمان الاجتماعى وأن مستقبله ومستقبل أسرته مؤمنان، وبين شخص آخر من هؤلاء النشطين اقتصاديا فى سوق العمل هذه التى لم يتوفر له فيها إلا مكان على رصيف فى أحد الشوارع المزدحمة بالمارة، قد تهدده شرطة المرافق فى أى لحظة وتقتلعه منها وتقوده إلى أقرب نقطة شرطة بعد أن تكون قد استولت على البضاعة التى تسلمها من التاجر فى الصباح. تشكل علاقات وظروف العمل المستقرة والواضحة، ثقافة العامل الأول وتصوغ توجهاته نحو الأحداث العامة كالانتخابات مثلا. أما الإنسان الثانى الذى يمارس نشاطه ويحقق دخله من على مساحة على رصيف أحد شوارع القاهرة، فإنه يتأثر ثقافيا وسلوكيا بهذه الظروف التى تحيط به وتضعه فى الحالة «العشوائية» التى يعيشها والتى تسلب منه حقه فى الاستقرار والأمن الاجتماعيين.

ينطبق ذات الشىء على الإناث. فهناك فرق بين المفاهيم الثقافية التى تحملها عاملة أو موظفة فى القطاع الرسمى الصناعى أو التجارى، الخاص أو العام، أو الحكومى الذى يضمن لها كل الحقوق بدءا من المرتب وصولا إلى المعاش، وبين تلك المفاهيم الثقافية التى تحملها عاملة تخضع لعلاقات عمل تقترب من علاقات السخرة بكل ما تحمله لها هذه العلاقات من أضرار اجتماعية واقتصادية ونفسية. بالرغم من أن الاثنتين، العاملة فى القطاع الرسمى والأخرى العاملة فى القطاع الصغير، قد تكونان خريجتين لجامعة واحدة ولكلية واحدة وربما لقسم دراسى واحد بالإضافة إلى أنهما قد تكونان من دفعة دراسية واحدة..

وهنا تبرز شريحة ثالثة من الإناث وهن اللاتى يعشن فى العشوائيات المحيطة بالحضر الكبير. تمثل هذه الشريحة أعدادا كبيرة جاءت من الريف سعيا للرزق فى الحضر. فتجمعن مع عائلاتهن فى أحزمة المدن بحيث يتحركن إلى قلب هذه المدن، للعمل اليومى الخدمى المنزلى، ويعدن فى المساء لأسرهن بالقليل الذى يسد رمق الأفواه الكثيرة العدد. ونحن نركز هنا على نساء العشوائيات ليس بهدف تجاهل الذكور وإنما لأن هذه المرأة القاطنة للعشوائية تحديدا، حصلت على عناية إعلامية وسياسية خاصة خلال الفترة الماضية.

وقد يتصور البعض منا أن هذا الكم من الإناث المصريات ذوات المشاكل الاقتصادية الحادة، بشرائحن المختلفة، لا يملكن بطاقات انتخاب. هو فى الحقيقة تصور خاطئ. لأن الفترة الماضية والتى تعود إلى حوالى خمس سنوات مضت نشطت حركة مجتمعية عامة لزيادة نسبة مشاركة المرأة فى جداول الناخبين. وحدث بالفعل أن ارتفع نصيب المرأة فى الجداول من حوالى٣٣٪ من مجمل إعداد الناخبين إلى حوالى ٤٤٪. فالمرأة الناخبة، خلال السنوات الخمس الماضية، لم تكن موضع الاهتمام السياسى للمجلس القومى للمرأة ولا للجمعيات العاملة فى مجال تنمية المرأة فحسب، وإنما وضح من حركة المعركة الانتخابية لعام ٢٠٠٥ أنها كانت مرمى وهدفًا لبعض رجال الأعمال الذين أرادوا منذ البداية التخطيط للوصول إلى أصواتها فى العشوائيات ومناطق وأحياء الحضر الفقير، لقنصها. وبادروا بحركتهم هذه فى سباق محموم منذ نهاية انتخابات عام ٢٠٠٠. أى فى توازٍ مع حركة المجلس القومى للمرأة وحركة كل الجمعيات والمنظمات النسوية المصرية.

ولتوضيح هذا الحجم من العمل السياسى العام الذى قام به المجلس القومى للمرأة والجمعيات النسوية فى مجالى استخراج الرقم القومى وبطاقات الانتخابات يمكن التأكيد أن المجلس قدم خدماته هذه لمليون ونصف مليون امرأة مصرية من ساكنات القرى والمناطق العشوائية. هذا غير الأعداد التى استوعبتها خدمات الجمعيات النسوية.

وحدث ذات الشىء مع المتعطلين من الشباب ولكن بطريقة مزدوجة، لقد التقطهم تجار ومستوردو السلع الصينية إلى القطاع غير الرسمى، ليروجوا البضائع التى يأتون بها من هذا البلد الآسيوى البعيد، وفى ذات الوقت التقطهم هذا البعض الآخر من رجال الأعمال الزاحفين على الحياة السياسية. أخذهم الفريق الأول للعمل اقتصاديا، فى حين أخذهم الفريق الثانى للزج بهم إلى جداول الناخبين ثم إلى ساحة البلطجة.

وبذلك بات لدينا فى جداول الناخبين الملايين من المهمشين اقتصاديا والمحبطين اجتماعيا، ذكورا وإناثا، الذين لم يجدوا لهم مكانا فى القطاع الاقتصادى الرسمى ذى العلاقات القانونية والذى يساهم على بناء مجرى للحياة للعاملين فيه ويساعدهم على الحراك الاجتماعى المستند على العمل المنظم سواء كان صناعيا أو تجاريا أو خدميا أو حتى فى القطاع الحكومى.

من وجهة نظرى، تلك كانت أهم ملامح قاعدة الساحة الاقتصادية الاجتماعية وفى ذات الوقت الثقافية التى وجدها البعض من رجال الأعمال فى متناول ملايينهم المتجمعة. وجدوا الساحة جاهزة للصعود على أكتاف عناصرها البشرية المهمشة والمحبطة إلى مقاعد مجلس الشعب. فكان الإفساد والفساد عملية تلقائية سهلة ويسيرة.

أين حدث هذا الإفساد والفساد؟.. فى كل الدوائر؟.. فى كل محافظات مصر المحروسة؟

فى تقديرى.. لا.

تبلورت حالات الإفساد والفساد، بشكل حاد، حيث وجد المهمشون اقتصاديا والمحبطون اجتماعيا فى الحضر وليس فى كل الريف.

شهد الريف المصرى، فى الدلتا والصعيد، حوادث عنف وفى حالات كثيرة وقائع بلطجة ولكنها حوادث ووقائع مرتبطة بالتراث القبلى والأسرى الذى لايزال يسيطر على ريف مصر. حدث إنفاق مالى كبير. كما وقعت حوادث قتل وإصابات. ولكن من الصعب أن نشير إلى أن كل الريف المصرى شهد هذه الحالة الدراماتيكية الحادة من شراء وبيع الأصوات الانتخابية. إتجه الإنفاق فى محافظات بحرية وصعيدية إلى تقديم العينيات من الاحتياجات ولكن بشكل أقل حدة وبصور مختلفة.

شاءت الظروف أن أزور قرية صعيدية أم تتبعها عدة قرى وعشرات النجوع فى محافظة سوهاج. قرية نيدة مركز أخميم. يتجاوز تعدادها الـ ١٣٠ ألف نسمة. خلال السنوات الخمس الماضية تم تسجيل ١٦ ألف صوت انتخابى للنساء. وقد سجل هذا الرقم الكبير المجلس القومى للمرأة بالتعاون مع محافظة سوهاج.

فى زيارتى سألت رئيس المجلس المحلى لمركز أخميم:

لمن صوتت النساء فى الانتخابات الفائتة؟

ضحك قائلا:

لغير الحزب الوطنى. كل الأصوات التى تعبنا فى تسجيلها مع المجلس القومى ومع الجمعيات، راحت للمستقلين.

وكان سؤالى الثانى:

هل تم شراء أصوات النساء؟

أجاب بحزم:

لا.. ولا حتى الرجالة.

ثم طلبت التحادث مع بعض نساء القرية. وحدث.

سألتهن:

هل أخذتم فلوس مقابل الإدلاء الأصوات؟

أجابت النسوة بشكل قاطع:

يا دى العار.. فلوس؟

ثم قالت إحداهن إنها انتخبت المرشح المستقل لأنها زهقت وتعبت من وجود أربعة أبناء متعطلين فى البيت. تصورت أن التغيير فى الانتخابات قد يأتى بنتيجة مغايرة للواقع الاقتصادى الخانق. ثم أضافت أنها تشاورت فى قرار

التصويت مع هؤلاء الأبناء المتعطلين. كما تشاورت مع نساء أخريات فى القرية.

كان هذا فى مركز أخميم وهو مركز حرفى هام من مراكز محافظة سوهاج. يبعد المركز عن عاصمة المحافظة بحوالى خمسة كيلومترات. وتأتى قرية نيدة كأكبر قراه.

ثم نأتى لمحافظة المنيا.

فى بعض قرى المنيا لجأ عدد من المرشحين إلى الأسلوب التقليدى للاقتراب من الناخبين ومن الناخبات تحديدا. وهو أسلوب تم ابتداعه من قبل عدد من مرشحى الحزب الوطنى فى القاهرة والإسكندرية فى الانتخابات السابقة. فى المنيا لم تشتر الأصوات وإنما تم توزيع المال بشكل عينى. وزع البعض من المرشحين البطاطين والأقمشة والأرز والمكرونة والزيت والسمن.. إلى آخر تلك السلع التموينية التى يتم توزيعها بمناسبة شهر رمضان الكريم.

والملاحظة هنا هى أنها سلع تتجه إلى احتياجات ربات البيوت الفقيرات وخاصة أن الانتخابات صاحبت شهر رمضان. بجانب أنها جرت فى نهاية فصل الصيف وفى مقدمات فصل الشتاء. وتنتمى هذه الشريحة الفقيرة من النساء إلى نفس الشريحة النسائية التى اتجه إليها المجلس القومى للمرأة لمساندتها لاستخراج الرقم القومى.. لقد اشترط المجلس أن تكون المرأة الفقيرة المعدمة فى الريف والحضر العشوائى، وحدها ودون غيرها، الهدف من المشروع. لأنها غير قادرة على مواجهة جهاز الإدارة المحلية لاستخراج شهادة أو مستخرج الميلاد أو إقرارات التسنين، بالإضافة إلى أنها لا تستطيع توفير تكلفة استخراج الرقم القومى.

فى محافظة الوادى الجديد، تنعدم ظاهرة شراء الأصوات. لأنها محافظة تتمايز بوضع خاص. فهى محافظة تتلاشى فيها الأمية وظاهرة ختان الإناث وترتفع فيها نسبة الحاملين والحاملات للشهادات المتوسطة وخاصة التجارية وكذلك العاملين فى المشروعات الصغيرة وتسود فيها العلاقات القبلية التى تتحكم فى عمليات التصويت.

سألت صديقة تسكن مدينة الخارجة عاصمة المحافظة:

هل تم شراء أصوات فى دائرتى المحافظة؟

أجابت ضاحكة:

طبعا لا.. الكلام ده عندكم فى القاهرة «الملوثة».

ضحكت، لأنها كانت تعنى التلوث البيئى والآخر التلوث السياسى.

فى قرى الدلتا تكررت ظاهرة توزيع السلع الغذائية والبطاطين. وكان لهذه الظاهرة مفعول «السحر السياسى التصويتى». فى دائرة شهيرة فى محافظة كفر الشيخ ارتفعت نسبة تصويت النساء عن نسبة تصويت الرجال. لم تحصل النساء على مبالغ مالية سائلة ولكنهن استطعن مواجهة شهر رمضان باحتياجاته الغذائية ثم

جرت هذه الانتخابات فى إطار اجتماعى تتعاظم فيه مشكلة البطالة فى صفوف الشباب من المصريين والمصريات. كما تمر سوق العمل المصرية بحالة من الخلل وعدم الانسجام أو عدم التوافق فى علاقاتها وظروفها وشروطها وكذلك فى أجورها ورواتبها

الاستعداد لمواجهة الشتاء الممطر فى المحافظة.

الذى يمكن أن نشير إليه، أن ظاهر الإفساد والفساد المالى المباشر، فى انتخابات عام ٢٠٠٥ ،كانت واضحة فى المراكز الحضرية الفقيرة لتتراجع فى دوائر ريف الدلتا ثم تزداد تراجعا فى ريف الصعيد. وأعتقد أنها لم تلعب دورا تصويتيا يذكر فى دوائر محافظات الحدود حيث تحدد القبيلة اتجاه صوت الفرد. أما الإفساد العينى السلعى فقد اتسعت دائرته لتستوعب الحضر الفقير وأعداداً من قرى الوجهين البحرى والقبلى. هذا جغرافيا.

أما بالنسبة للنوع الاجتماعى، فقد اتجه الإفساد المالى المباشر لكافة المهمشين من النساء والرجال وخاصة من كان منهم فى سن العمل. بينما اتجه الإفساد العينى السلعى للإناث أكثر من اتجاهه للذكور.

وللحق، يلجأ الكثيرون من أصحاب الأعمال إلى توزيع السلع الغذائية فى شهر رمضان وفى عيد الأضحى كنوع من الزكاة وكمظهر من التضامن الاجتماعى. ولكننا هنا نتحدث عن هؤلاء الأغنياء الذين ربطوا، بعمد ومع سبق الإصرار، بين هذه العملية التضامنية وبين «قنص» الأصوات فى العملية الانتخابية.

وقد نقل عن القضاة الذين راقبوا عملية التصويت عدد من المفارقات التى قد تساعد على فهم حقيقة الذى حدث من الإفساد والتضليل. قال أحد القضاة إن سيدة عجوزًا فقيرة جاءته بعد أن أدلت بصوتها فى الصندوق تطالبه بالبطانية الموعودة. قالت:

«قالوا لى خدى البطانية من القاضى بعد ما ترمى الورقة فى الصندوق!».

وقال آخر إن أحد المواطنين لم يجد اسمه فى الكشف التصويتى للصندوق الذى يشرف عليه القاضى فاتجه إليه قائلا:

«ممكن أحط صباعى فى الحبر.. لأنى أخدت ٥٠٠ جنيه من... ولو خرجت من غير العلامة الحمرة على صباعى حأضطر أرد الفلوس!».

مما سبق «يمكن القول» أن مؤسسة الإفساد والفساد السياسيين طالت الجميع، الأغنياء والفقراء معا. دفع الفريق الأول وتسلم الفريق الثانى. ووضعت السلعة فى الصندوق الزجاجى النزيه. وفى النهاية لم نخرج من المعركة الانتخابية بنتيجة سياسية مائة فى المائة. وإنما خرجنا فى جانب من هذه الانتخابات بنتيجة لمعادلة حسابية، فاز فيها بالمقعد البرلمانى، المرشح الذى استطاع أن يدفع أكثر.

والأخطر هى النتيجة الثانية التى «يمكن الوصول» أو «الاستناد» عليها وهى أن الفساد شمل المجتمع من قاعدته الاجتماعية الواسعة إلى قمته الأقل اتساعا. فباتت مناطحته فى غاية الصعوبة.

رأيى أن الخلاصتين فى غير محلهما .أرى أن الفساد فى هذه القاعدة الجماهيرية الواسعة يتواجد، حيث يوجد الإفساد.

أرى أن هذه الجماهير العريضة من النساء والرجال المهمشين والمحبطين ليست فاسدة بالطبيعة وإنما تخضع للفساد إذا جاءها المفسدون من أعلى لاستخدامها فى أوقات محددة مثل فترة «قنص» الأصوات الانتخابية.

ولإثبات رأيى هذا ألقى الضوء على ثلاثة مواقع اجتماعية، ومتباعدة جغرافيا وقطاعيا، تتعامل مع نفس هذه الشريحة من الفقراء والفقيرات، ولكن على أرضية الشفافية والنقاء المتبادلين. فجاءت النتيجة عكسية ومغايرة.

الموقع الأول هو قرية رأس الحكمة مركز مدينة مرسى مطروح فى محافظة مطروح. وهى قرية متواضعة من حيث مصادر دخلها واقتصادها. يعتمد أهلها فى معيشتهم فى الأساس على زراعة وإنتاج التين والزيتون ثم رعى الرؤوس الصغيرة من ماعز وخراف. والمحصولان الزراعيان موسميان وتتقارب فترات حصادهما. خلال السنوات الثلاث الماضية اتجهت وزارة الشئون الاجتماعية (الاسم السابق للوزارة) إلى الوحدة المحلية ونظمت معها عملية صرف عدد من القروض الصغيرة بأنواعها، الدوارة والفردية والتضامنية، للنساء الفقيرات والمعيلات لأسر. بلغ عدد الإقراض ٢٥٠ حالة ووصل المبلغ الجارى إقراضه ثم إعادة إقراضه ٣٨ . ٢٧٠ جنيه مصرى. اتجه الإقراض إلى تربية ورعى الماعز والخراف.

فى زيارة للقرية سألت رئيس الوحدة المحلية عن ظروف سداد أقساط القروض. أجاب:

«مائة فى المائة.. تسدد الأقساط فى مواعيدها. ولا توجد لدينا حالة تعثر واحدة».

الموقع الثانى هو مجموعة من قرى محافظات الصعيد، الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان ومركز الأقصر. وكان المقرض فى هذه الحالة هو المجلس القومى للمرأة. واتجه الإقراض إلى ذات الشريحة من النساء، الفقيرات والمعيلات لأسر. استفادت من الإقراض ستة آلاف ريفية عائلة لأسرتها. ولا تزال عملية إعادة الإقراض جارية. المهم أن حالة واحدة من الستة آلاف حالة هى التى تعثرت لفترة





يوسف الشريف

الصاغ الراقص

ظلمت الصحافة المصرية والسودانية والبريطانية الصاغ صلاح سالم ظلم الحسن والحسين. الصحافة المصرية اتهمته بأنه ضيع نضال شعبى وادى النيل وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان، وصحف التيار الاستقلالى فى السودان عمدت إلى الترويج لشتى ألوان الأخطاء التى ارتكبها بالحق وبالباطل بدعوى تزييف إرادة الناخبين حين صوتوا فى أول انتخابات نيابية إلى جانب الوحدة مع مصر، وصحافة الاستعمار البريطانى هالها فى البداية نجاحه الساحق عندما أجمعت فصائل الحركة الوطنية السودانية فى الشمال والجنوب على تفويض مصر للحديث مع الإنجليز فى مفاوضات الجلاء عن وادى النيل بشأن المسألة السودانية وأطلقوا عليه وصف «الدانسنج ميجر»، أى الصاغ الراقص فى محاولة للسخرية من انخراطه فى حلبة الرقص عارى الصدر وسط شباب وشابات قبيلة الدينكا أكبر قبائل الجنوب وكأنه بهذه البساطة يمكنه هزيمة الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس فى معركتها المحتومة مع مصر فى السودان.

وأحسب أنه لم يعشق أحد السودان من المسئولين والقيادات والزعامات المصرية مثل عشق صلاح سالم عضو مجلس ثورة ٢٣ يوليو، فهو قد عمل فترة من حياته ضابطاً فى القوة العسكرية المصرية بالسودان، وعندما أسندت إليه مهمة إدارة السياسة المصرية فى السودان كان عليه أن يواجه كثيراً من القوى السياسية الداخلية فى السودان التى تطمح إلى الانضواء فى منظومة الكومنولث بديلاً عن الوحدة مع مصر.



ثم سددت الأقساط. أما باقى الحالات فوصلت نسبة السداد فيها إلى المائة فى المائة.

جاءت التجربتان من قرى مصر. قام بهما جهاز الدولة، الأول هو وزارة الشئون الاجتماعية والثانى هو المجلس القومى للمرأة.

ثم نختبر تجربة ثالثة ولكن من الحضر. تقوم بها منظمة غير حكومية.

الموقع الثالث هو إدارة القروض فى الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية حيث يصل إجمالى المال الدائر إلى عشرين مليون جنيه مصرى. وتتجه القروض الصغيرة والمتناهية الصغر إلى فقيرات وفقراء الحضر القاهرى والجيزاوى مثل حى بولاق الدكرور وحى السيدة زينب. فى هذه الحالة، يدخل الذكور كمستفيدين من القروض. وفى هذا الموقع الثالث ترتفع نسبة التسديد المنتظم إلى ما يقترب من ٩٩,٩٪ من الحجم الكلى للأقساط.

تشير المواقع الثلاثة إلى أن فقراء مصر منضبطون فى التعامل مع القروض. لا يسرقونها ولا يهربون بها من محافظة إلى أخرى.

هؤلاء الفقراء من النساء ومن الرجال، هم ذات فقراء الانتخابات بشحمهم ولحمهم. فما الذى غير موقفهم وحول انضباطهم وشفافيتهم المعهودين فى حالة القروض إلى حالة فساد سياسى وارتشاء مالى وعينى فى حالة صناديق التصويت؟

من المرجح أن هؤلاء الفقراء الذين يتواجدون هنا وهناك أى فى الحالتين، حالة الانتخابات ثم فى حال القروض، وجدوا أنفسهم فى انتخابات عام ٢٠٠٥ أمام مرشح يملك المال الوفير ويسعى إلى الحصانة البرلمانية بأى ثمن وبأية وسيلة. ولذلك اخترق الصفوف وأغدق المال. فكان طبيعيا أن يلتقط هؤلاء الفقراء المهمشون والمحبطون هذا المال.

فعندما طال الفاسدون الفقراء، أفسدوهم.

ولنتذكر أن كلاما كثيرا صرح به مسئولون حكوميون فى خطبهم السياسية العامة، كما تناقله سياسيون حزبيون عبر مكبرات الصوت، ينصح هذا الكلام الفقراء بأخذ وتسلم هذه الرشى المالية والعينية السلعية ثم بالتصويت للمرشح الذى يرونه أكثر ملاءمة سياسية لإصلاح حياتهم اليومية وللمساهمة فى توفير مستقبل أفضل لأبنائهم. قيل هذا الكلام الذى التقطه رجال الأعمال الساعون للحصانة، وفهموه، ثم لجأوا إلى إبداعاتهم الجديدة فى السيطرة على أصوات الفقراء، فكانت فكرة البطاقة الدوارة أو استخدام أجهزة المحمول فى رصد عملية التصويت والتيقن منها.

وقد استعد أصحاب الثروات الراغبون فى التقدم إلى الترشيح لمجلس الشعب، لاختراق صفوف الفقراء منذ فترة تسبق كثيرا مرحلة الإعداد المباشر للانتخابات أى قبل عام ٢٠٠٥. صنعوا شبكاتهم القادرة على الاتصال المباشر، من النساء والرجال، وأغدقوا عليها. وكانت دائما من العناصر القوية القادرة على التصدى والمجازفة. ولأن المجتمع يعج بالمتعطلين والمهمشين والمحبطين، فقد استطاع أصحاب الثروات الساعون إلى الحصانة، التقاط أعداد وأعداد من هذه العناصر التى ظهرت جليا فى أشكال البلطجة التى رأيناها فى الجولات الانتخابية الثلاثة.

وبعد أن كانت أعمال البلطجة قد بدأت فى الجولة الأولى فى دوائر دون غيرها، تعاظم ظهورها واتسع فى الانتشار فى الجولتين الثانية والثالثة. بحيث باتت ظاهرة تتساوى فى تأثيرها مع ظاهرة الإفساد.

فى رؤيتنا المستقبلية، لا يجب علينا التهوين من أحداث الإفساد والفساد والبلطجة التى تتحول، بوتائر ملحوظة، إلى إحدى الظواهر المتكررة فى معاركنا السياسية، خاصة بعد أن ازداد ظهورها العلنى وانتشارها فى انتخابات ٢٠٠٥. قد نأخذها كشىء عارض، إذا كنا بالفعل نطبق سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية مخططة تحد من نمو واتساع قاعدة المتعطلين والمهمشين والمحبطين من المصريين. وترسم لنا جميعا، هذه السياسات، مستقبلا واضحا آمنا. ولكننا إلى الآن لم نتحرك تجاه هذا الهدف. أو على الأصح نتحرك بطيئا بطيئا وبخطى غير مستقيمة.

وأخشى أن يسبقنا الزمن الردىء. فنجد أنفسنا أمام ما هو أخطر وأكثر جسامة.

فخطورة هذه الظاهرة لا تنصب أو تنحصر فقط على نتائج الانتخابات البرلمانية أو غيرها، ولكنها قد تتعداها إلى ما هو الأسوأ، كما حدث فى تجارب بلدان أخرى.

تأتينى أقرب هذه التجارب من أبغض ما شهدته الإنسانية من أحداث سياسية فى القرن العشرين عندما قفزت كل من النازية فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا إلى الحكم بأصوات كل المتعطلين والمهمشين والمحبطين نتيجة للأزمة الاقتصادية الطاحنة التى مرت ببلدان أوربا فى العقد العشرينى من القرن الفائت.

فى النهاية، الفقراء المهمشون اجتماعيا وثقافيا، ليسوا فاسدين بإجماعهم ولكنهم قد يتحولون إلى جيش هائل للفاشية. ■





bp

أعـــــــراض صيـنيـــــــة

تبدو الصين ـ هذه الأيام ـ فى عجلة من أمرها، تسابق الزمن لتلحق بركب قيادة العالم وهي لا تألو جهدًا فى هذا السياق. والإحصاءات خير دليل على ذلك، فمعدل النمو يزيد على ١٠٪ منذ ١٠ سنوات والمشروعات العملاقة تظهر كل يوم والصادرات الصينية تغزو العالم، كما أن الفائض التجارى للصين مع كل الاقتصاديات الكبرى يمثل مشكلة تحاول الدول معالجتها مع بكين.

إلا أن هناك فاتورة أخرى لم تدفعها الصين بعد.. وتتعلق بنظامها السياسى القائم منذ انتصار الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩.. هل يصلح هذا النظام للأخذ بيد البلاد وفي مرحلتها الجديدة؟ بل هل يستطيع البقاء من الأساس.. وجزء من النقاش حول هذه القضية نظرة الصينيين إلى زعيمهم الأكبر ماوتسى تونج فبعد سنوات طويلة من التقديس بدأت تظهر مراجعات أخرى لتاريخ الزعيم وثراثه.. «وجهات نظر» تنشر هذين المقالين حول الصين وماوتسى تونج.

المحـــرر

الـــــظـــــل



■ أصبح «صعود» الصين فجأة الشغل الشاغل لمن تفرض عليهم مهنهم الاهتمام بمستقبل هذا الكوكب. هل سيصبح القرن الحادى والعشرون القرن الصينى، وإذا كان الأمر كذلك، فبأى منطق؟ هل سيكون صعود الصين سلميًا أم سيتسم بالعنف؟ وكيف سيكون تأثير ذلك على الولايات المتحدة، تلك «القوة الفائقة» الحالية؟ الواقع أن الصين «فى صعود» منذ فترة (بعد مئات السنين من «الهبوط»)، غير أنه لسنوات عديدة كان هناك من الأحداث الأكثر إثارة ما غطى على حقها فى أن تحظى بالاهتمام. فقد تركز الاهتمام فى تسعينيات القرن العشرين على سقوط الشيوعية السوفيتية و«العولمة»، ونشر الديمقراطية، وثورة التكنولوجيا الفائقة. وبدا أن تلك التطورات، التى جعلت الولايات المتحدة القوة العظمى الاقتصادية والسياسة الوحيدة فى العالم، تكذِّب تنبؤ پول كنيدى فى عام ١٩٨٧ بانهيار الولايات المتحدة و«المزيد من النظام متعدد الأقطاب»[1].

كشف الهجوم على مركز التجارة العالمى فى عام ٢٠٠١، إلى جانب انهيار فقاعة التكنولوجيا الفائقة الذى تزامن معه، عن هشاشة أمريكا، غير أن ذلك كان يحجبه نشاط إدارة بوش المفرط. فقد زرعت «الحرب على الإرهاب» الجيوش الأمريكية فى أفغانستان والعراق؛ ولكن ما إن فشلت المغامرة الطائشة فى العراق وتضخم العجز، حتى فرض الإحساس بالانهيار النسبى نفسه من جديد. وعلى عكس ما حدث فى عام ١٩٨٧، كان هناك مرشح واضح للخلافة، وهو الصين. وكان الحال كذلك على نحو خاص حين أصبح الاقتصاد الأمريكى معتمدًا على تمويل الصين للعجز التجارى الضخم. لقد تراجع حلم «القرن الأمريكى» ليحل محله كابوس «القرن الصينى».

جاء التركيز على الصين متأخرًا عن موعده. فطوال ربع القرن المنصرم كان اقتصادها ينمو بمعدل يزيد على ٩ بالمائة سنويًا، حيث زاد بمقدار ثمانية أضعاف. ومع ذلك، فليس هذا النمو المفرط الذى طال أمد استمراره والحفاظ عليه هو وحده ما يدعو للدهشة ويرعب المراقبين. بل إنه الاقتصاد الآخذ فى النمو. ويقدر تعداد الصين رسميًا بمليار وثلاثمائة ألف نسمة، إلا أنه قد يكون أكثر من ذلك؛ وهو يمثل خُمس سكان العالم. ويجعل هذا صعودها أكثر أهمية من صعود اليابان فى الستينيات، على سبيل المثال. فمن الناحية الاقتصادية تعد عمالتها الرخيصة أكثر وفرة، وبذلك لن تفقد أفضلية رخص التكلفة بسرعة. ومن الواضح أن حجم الاقتصاد له أهميته كذلك فى قياس القوة. فالاقتصاد الصينى يساوى حوالى ثلثى حجم الاقتصاد الأمريكى، من حيث القوة الشرائية للشعب الصينى[2]. وإذا ظل ينمو بمعدل ٩ بالمائة سنويًا، فسوف يتجاوز الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠١٤. ويعتقد لى كوان يو زعيم سنغافورة المخضرم أن صعود الصين سوف يغير ميزان القوى ويعيده إلى الشرق لأول مرة منذ وصول

عـن: The New York Of Books
ترجمة: أحمد محمود

السفن البرتغالية فى القرن السادس عشر.

من المؤكد أن النمو الصينى سوف يخلق، بسبب حجمه، مشاكل لنفسه وللآخرين. فالمشكلة الأساسية، من وجهة نظر القيادة الصينية، هى كيفية الحفاظ على التماسك الاجتماعى وسط تلك الاضطرابات الاجتماعية الاقتصادية الجارية. وبالإضافة إلى الانحطاط البيئى والفوضى المتفشية، يربك نمو الصين الاقتصادى المتسم بالسرعة والاضطراب، ولا يمكن السيطرة عليه، استقرارها الداخلى على نحو كبير جداً؛ فهناك هجرة ضخمة من الريف إلى المدن دون أن تكون هناك وظائف مستقرة أو مساكن. وهناك نمو وفجوة فى الدخل بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية كالفجوة التى بين الولايات المتحدة وشمال أفريقيا. وطبقاً لأحد التقديرات فإن ٣٠ بالمائة من القوى العاملة الحضرية فى الصين، أو ٢٠٠ مليون نسمة، عاطلة أو عاطلة جزئياً فى الوقت الراهن. كما أن سبل عيش ١٠٠ مليون آخرين من العمال الزراعيين مهددة، حيث تزيد قوانين منظمة التجارة العالمية من اعتماد الصين على الواردات الغذائية من الخارج. وبذلك فإن شبح الفوضى هو ما يخيف الحكام فى بكين.



الأمر المهم فى العلاقات الدولية هو ما إذا كان أثر الصين على العالم سيكون سلمياً أم سيتسم بالعنف. وفى هذه النقطة يتخذ النقاش مسارات علمية. يقول أحد المعلقين: «يميل الذين يركزون على الاقتصاد إلى رؤية الشراكة والتعاون على أنهما سببان للتفاؤل برغم التوترات، بينما يتوقع خبراء الأمن الأكثر تشاؤماً حدوث صراع إستراتيجى، باعتبار أن ذلك هو المستقبل المحتمل لنظامين سياسيين على هذا القدر الشديد من الاختلاف»(٣). يمكن لكل من الرأيين ادعاء امتلاكه للأدلة المؤيدة لما يقول. فمن ناحية، تدل الامتيازات التى قدمتها الصين للمستثمرين الأجانب والشركات الأجنبية من أجل دخول منظمة التجارة العالمية على استعدادها للَعب طبقاً لقواعد اللعبة المتعارف عليها. فقد بدأت حملة دعائية مستندة على «الصعود السلمى». ومن ناحية أخرى، تفتح شهية الصين النهمة للنفط والمواد الخام الباب أمام الصراع الجيوبوليتيكى المألوف من أجل السيطرة على مخزون تلك السلع. وكان لابد من سحب عرضها شراء Uncoal تاسع أكبر شركة نفط فى الولايات المتحدة فى مواجهة معارضة الكونجرس. وباعتبار الصين الدولة الوحيدة المحتمل أن تحدث توازناً مقابل ثقل الولايات المتحدة الاقتصادى والسياسى، فهى تحظى بود من يرغبون فى وجود ضمان ضد الهيمنة الأمريكية. كما أنها تستضيف فى المقابل شخصيات منفرة مثل روبرت موجابى رئيس زيمبابوى، وإسلام كريموف رئيس أوزبكستان الذى يتسم بالقسوة. ويعترض القوميون الصينيون فى وزارة الخارجية والمؤسسة العسكرية والباحثون الموالون لهم على شعار «الصعود السلمى»، إذ يقولون إنه يشجع تايوان على المطالبة بالاستقلال. ومع ذلك فالنظرية القائلة بأن العلاقات الاقتصادية هى الشكل السلمى للعلاقات الدولية، وأن الجيوبوليتيكا هى شكلها الحربى، نظرية على قدر كبير جداً من السذاجة. فنمو قدرة الصين التصديرية، حيث زادت صادراتها إلى الولايات المتحدة خلال عشر سنوات من ٣٥ مليار دولار إلى ٢٠٠ مليار دولار، أدت بالفعل إلى «حرب الملابس» bra war مع أوروبا وإلى توترات بشأن العملة مع الولايات المتحدة. (لم تسكت إعادة تقويم اليوان مؤخراً بنسبة ١ و٢ بالمائة الاتهامات الأمريكية بتعمد الصين خفض قيمة عملتها لاكتساب أفضلية التصدير) وعلاوة على ذلك فليس من السهل فصل السياسة عن الاقتصاد. فالصين أحد محركات العولمة وقوة عسكرية صاعدة، وهى «وال مارت ذات جيش»(*). وما يزعج الولايات المتحدة هو أن توسع الوجود الاقتصادى الصينى سوف يصاحبه التوسع فى وجودها العسكرى. ومن المؤكد أنه سيكون للتغييرات التى تطرأ على التوزيع العالمى للثروة آثارها على توزيع القوة العالمية، حتى وإن تحققت تلك التغييرات بالطرق السلمية. وإذا صعدت الصين اقتصادياً، فسوف تهبط أمريكا سياسياً. ويتذكر أصحاب التوجه التاريخى تلك السنوات من التنافس الأنجلو ألمانى التى سبقت الحرب العالمية الأولى. يتأثر الاهتمام بأثر الصين على العالم تأثراً شديداً بطبيعة نظامها. فالهند التى حققت مؤخراً نمواً يتساوى فى سرعته مع النمو الصينى، وسيكون عدد سكانها عما قريب أكثر من سكان الصين، لا تجعل الغرب

الشيوعى دنج جياوبينج إستراتيجية مختلفة. إذ أدرك أنه لكى ينقذ الدكتاتورية الشيوعية لابد له من خلق نظام اقتصادى ناجح. وبدأ اعتباراً من عام ١٩٧٨ فى إلغاء جماعية الاقتصاد. وبينما قضى ميخائيل جورباتشوف على حكم الحزب الشيوعى فى روسيا فى مسعى فاشل لتحقيق الشيوعية «الإنسانية»، أنقذ دنج الحكم الشيوعى فى الصين بقبوله الرأسمالية.

وحتى الآن مازالت الصيغة التى وضعها دنج تحقق النجاح. ولم يحدث أن أثرى عشرات الملايين، كما طلب منهم دنج، فحسب، بل انخفض معدل الفقر المطلق، الذى يحدَّد بدخل يومى قدره دولار واحد أو أقل، من ٦٤ بالمائة إلى ١٧ بالمائة من عدد السكان. أما فى السياسة، فالمعلومات مراقبة وموجهة، والمعارضة تُقمع بلا رحمة، مع تأكيد الاستيلاء على السلطة الذى جرى فى عام ١٩٤٩. إن الشعار السائد هو: «سوف نمنحكم حرية جمع المال، أما السياسة فمحظور عليكم الخوض فيها». ومازال ماو تسى تونج، الذى عرضته يونج تشانج وجون هاليداى فى كتابهما «ماو: القصة التى لا يعرفها أحد» على أنه مسئول بصورة وحشية وبلا مبالاة عن موت الملايين، معبود الصين الرئيسى. فصورته العملاقة تطل على ميدان تيانن من (السلام السماوى)، ومازال وجهه يظهر على أوراق العملة الصينية. بل لقد أعيد تشكيله ليخدم الاحتياجات التجارية فيما يمكن أن يكون الكولونيل ساندرز الصينى(**)، حيث يعلن عن المنتجات الغذائية خارج المطاعم فى مقاطعة هونان، مسقط رأسه. وليس

الصـــــينى

روبـــــرت سكيدلسكى



على عكس ما حدث فى عام ١٩٨٧، كان هناك مرشح واضح للخلافة، وهو الصين. وكان الحال كذلك على نحو خاص حين أصبح الاقتصاد الأمريكى معتمداً على تمويل الصين للعجز التجارى الضخم. لقد تراجع حلم «القرن الأمريكى» ليحل محله كابوس «القرن الصينى»



على ذلك القدر من التوجس بالشر الذى يشعر به حيال الصين، وذلك لأنها ديمقراطية، و«الديمقراطيات لا تدخل فى حروب مع بعضها»، كما يُقال لنا باستمرار.

وقد حد نجاح الحزب الشيوعى الصينى فى الاحتفاظ بالسيطرة السياسية على الصين من الشعور الغربى بالتفوق الذى أحدثه انهيار الإمبراطورية السوفيتية. وكانت شيوعية القرن العشرين تَعِد، على عكس شيوعية القرن التاسع عشر، بالنمو الاقتصادى على حساب الحرية السياسية؛ أو «سلطة المجالس وكهربة البلاد»، كما جاء فى عبارة لينين المعبِّرة. وحيثما كانت الشيوعية تحقق انتصاراً كانت تقيم دولة ذات حزب واحد، وكان الاقتصاد يتخذ السمة الجماعية ويخطَّط تخطيطاً مركزياً. وحين فشل الاقتصاد الشيوعى، جرى تفكيك النظام الشيوعى؛ على نحو كامل فى روسيا وأوروبا الشرقية. أما فى الصين، فقد تبنى الزعيم الأعلى للحزب

هناك إنكار رسمى لميراث ماو، أو حتى ما يشبه الإنكار المحدود للستالينية الذى صدر عن خروشوف فى عام ١٩٥٦.

سوف يستغرب الإنسان الغربى استمرار تلك الثنائية التى تجمع بين دكتاتورية الحزب والحرية الاقتصادية. فمع استمرار احتكار الحزب للمجال العام، بات التحكم فى الميزانية لا مركزياً على مستوى المقاطعات والبلديات. ويقول المتفائلون إن الديمقراطية سوف تأتى تدريجياً، بدءاً بالانتخابات البلدية، مع تنامى الطبقة الوسطى. وقد يحدث التنازل عن السلطة المالية صدعاً فى تلك الكتلة الضخمة. ويقول المتشائمون إن فقدان السيطرة المصاحب للنمو الاقتصادى المستعر وتضاؤل عائدات الدولة قد يؤديان إما إلى نوبة جديدة من «نزعة أمراء الحرب» أو يجبران النظام المصاب بجنون الارتياب إلى الدخول فى نوبة جديدة من القمع السياسى الذى سوف يجعل ما حدث فى ميدان تيانن من يبدو وكأنه

حفل شاى برىء. ومهما كانت الاختيارات التى سوف تُتاح فى انتخابات المقاطعات، فلن يُسمح لحزب جديد بعرض قضيته. ولو كان نمو الصين أبطأ مما كان، لكان من الممكن أن تصبح توقعاتها السياسية أكثر اعتدالاً.

كل المطلوب للحصول على خبرة فورية عن الصين هو «تدفق سريع للإحصاءات، والتفاتة من حين إلى آخر للتاريخ، وقول كونفوشيوسى مأثور أو اثنان، وسرعان ما يمكننا جميعاً إدراك المعنى الواسع لظهور المملكة الوسطى من جديد باعتبارها قوة كونية»[4]. ومن المؤكد أن هذا هو الانطباع الذى نقله كلايد بريستوفيتس، مسئول التجارة الخارجية السابق فى إدارة ريجان. ومع أن عنوان كتابه «ثلاثة مليارات رأسمالى جدد: انتقال الثورة والقوة الضخم إلى الشرق» يوحى بالتركيز على آسيا، فالواقع أنه «مكالمة إيقاظ، أو جرس إنذار لأمريكا». وفرضيته، التى جرى التعبير عنها بعذوبة إن لم يكن بمهارة، هى أن عرض العمالة الذى لا ينتهى بالفعل فى الصين والهند، مقروناً بإبطال الإنترنت والتسليم الجوى الكونى لأثر الوقت والمسافة، ينذر بالقضاء على التصنيع الأمريكي والانهيار طويل المدى لمستويات المعيشة الأمريكية. فأمريكا تعيش الآن بما يفوق ما لديها من ثروة.

يروى بريستوفيتس فى المقام الأول الحكاية المألوفة الخاصة باستثمار رءوس الأموال الغربية فى الخارج لتخفيف الهوامش المضغوطة فى الداخل. وكان تصنيع المكونات فى الخارج، والتعاقدات، وأخيراً نقل الصناعات إلى أماكن العمالة الرخيصة، طرقاً لتقليل تكلفة الشركات الأمريكية وزيادة المبيعات فى مواجهة المنافسة اليابانية وضغط النزعة الاستهلاكية. وقد ولَّد تكليف الغير بتصنيع مكونات المصنوعات التصنيع فى الخارج. ففى الثمانينيات بدأت موتورولا وإنتل وتكساس إنسترومنتس فى نقل الجانب كثيف العمالة فى تصنيعها إلى ماليزيا وسنغافورة وتايوان. وتعاقدت سيرز روباك مع مصانع النسيج فى اليابان للحصول على أفضل الصفقات لعملائها. وأصبح شرق آسيا مركز شراء بالنسبة لتجار التجزئة الأمريكيين وخط تجميع للمصانع الأمريكية.

ويقول بريستوفيتس إن الصين مثيرة للاهتمام لسببين: «العمالة الرخيصة التى لا حد لها لإنتاج المنتجات منخفضة التكلفة للتصدير، (و)...احتمال أن تصبح أكبر سوق فى العالم». لقد اتجه المصنعون وتجار التجزئة إلى الصين لرخص أسعارها. فبناء المصانع وتزويدها بالمعدات هو الأمر الأقل تكلفة، والعمالة الرخيصة يمكن أن تحل محل الآلات. واليوم تنتج الصين ثلثى ما ينتجه العالم من ماكينات التصوير والأحذية ولعب الأطفال وأفران الميكروويف، ونصف ما ينتجه العالم من أجهزة الدى فى دى والكاميرات الرقمية والإسمنت والمنسوجات، و٤٠ بالمائة من الجوارب، وثلث مشغلات الدى فى دى روم وأجهزة الكمبيوتر المكتبية، وربع أجهزة التليفون المحمول وأجهزة التلفزيون والصلب وستيريو السيارات وغيرها. وهى تصدر ٣٠ بالمائة من منتجات العالم الإلكترونية. ونجد الولايات المتحدة فى تخيل بريستوفيتس المحموم الدكتور هى فرانكنشتاين الذى أيقظ المسخ المقدر له أن يفترسه.



بدأت الهند كذلك فى وقت متأخر جداً تتحدى الصين فى التصنيع، غير أن برامج الكمبيوتر وخدمات تكنولوجيا المعلومات والطب كانت ميادين بكر. وكان الأصل الأساسى الذى اعتمدت عليه الهند هو ذلك الحشد الهائل من العمالة الرخيصة ولكنها على قدر كبير من التدريب وناطقة بالإنجليزية. وفى عام ١٩٨٤ قرر راجيف غاندى أنه لابد للهند من تطوير صناعة تصدير برامج الكمبيوتر، وتصادف أن بدأت شركة تكساس إنسترومنتس خدمات ربط معلومات الأقمار الصناعية من بنجالور، مما ممهد السبيل للوصول إلى العملاء الكونيين على التليفون. وعند إنشاء شبكة الإنترنت، ومن بعدها الموجة العريضة، فى التسعينيات، زادت نسبة أعمال برامج الكمبيوتر، التى عُهد إلى الهند القيام بها، زيادة هائلة. وأدركت شركة جنرال إلكتريك أن عمليات مراكز الاتصال الخاصة بها وجزءاً كبيراً من العمل المكتبى يمكن نقلها إلى الهند حيث تُنجز بجزء من التكلفة التى تحتاجها فى أى مكان آخر. ويمكن لشركات الخطوط الجوية تعويض زيادة أسعار الوقود بنقل أعمال حجز التذاكر وأعمال الإصلاح إلى الخارج.

يصف بريستوفيتس كيف أنه يجرى فى ويبو سبكترامايند، وهى خدمة اتصالات تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة خارج دلهى، تعليم «تحييد اللهجة» لإعطاء المتصلين إحساساً بأن مكالماتهم يُرد عليها من كانساس سيتى. ووفر انهيار فقاعة التكنولوجيا الفائقة فى عام ٢٠٠١ المزيد من المبادرات التى تحد من التكلفة. وتزدهر «السياحة الطبية» حيث تتيح المستشفيات الخاصة فى الهند إجراء عمليات استبدال مفصل الفخذ وجراحة القلب والعيون بجزء مما تتكلفه فى الغرب. (على سبيل المثال يجرى مستشفى أبولو فى تشيناى، مدراس سابقاً، جراحة القلب بأربعة آلاف دولار مقابل ٣٠ ألف دولار فى الولايات المتحدة.)

ساعدت الحكومة الأمريكية صعود آسيا بتبنيها أيديولوجيا عدم التدخل وتعويم الدولار. ويقول أحد مستشارى البيت الأبيض الاقتصاديين: «رقائق البطاطس ورقائق الكمبيوتر، ما الفرق بينهما؟ إنها جميعاً رقائق». ويزعم بريستوفيتس أن واضعى السياسة الأمريكيين، وقد سحرتهم أصولية السوق، أساءوا فهم مصادر الابتكارات الأمريكية. فريادة الولايات المتحدة التكنولوجية لم تُبنَ على قوى السوق، بل على التعاون غير الطبيعى بين الدفاع والحكومة فى «المجمع الصناعى العسكرى»، وهو نتاج حربين عالميتين. فعلى سبيل المثال، قامت شركة آى بى إم على أساس من المنح الحكومية لأجل جهاز توجيه الطائرة B-٥٢. وأدى التحول إلى سياسة عدم التدخل فى الثمانينيات، التى أعقبها انتهاء الحرب الباردة، إلى حل هذا «النظام البيئوى للشركات والجامعات والمؤسسات الحكومية والبنوك والمحامين. نعم المحامين. المتداخلة». وبعد عام ١٩٧٣ لم يعد الأمريكان مشغولين بالتجارة العالمية، حيث يمكنهم طبع أية كمية يرغبون فيها من الدولارات من أجل الواردات. وقال بريستوفيتس فى مقابلة أجريت معه مؤخراً: «لقد سلمنا الصين المال الذى تستخدمه فى محاولة لشراء أنكول». وما يريد بريستوفيتس بيانه هو أنه «لا أحد يهتم بصحة الهيكل الاقتصادى طويل المدى للبلاد، لأن أيديولوجيا أمريكا تقول إنه من الخطأ فعل ذلك».



فما هو العمل إذن؟ يقول بريستوفيتس إن على الولايات المتحدة التخلى عن سياسة عدم التدخل. ولابد لها من التخلى عن الطموح المجنون لإغراق العالم بالدولارات، وعليها أن توجد بدلاً من ذلك مجالاً أكثر محدودية للدولار يتكون من منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية بالإضافة إلى تجارتها مع اليابان. «ترى الولايات المتحدة أن هذه الصفقة سوف تزوِّج فائض اليابان لعجز الولايات المتحدة وتخلق منطقة دولار داخل الفلك الأمريكي وتمنعها من الانزلاق إلى فلك الصين». من الناحية الداخلية لابد للولايات المتحدة من استعادة النظام المالى عن طريق خفض نفقات الدفاع وزيادة الضرائب على الاستهلاك. وهى بحاجة إلى سياسة للطاقة تجعلها مستقلة عن نفط الشرق الأوسط (سوف يقلل مجرد تطبيق لوائح إجمالى عدد الأميال المقطوعة على السيارات الرياضية تبعية الولايات المتحدة النفطية إلى حد كبير). ولابد لها كذلك من تحديث بنيتها التحتية الفيزيقية، وتعزيز تصنيع «الأنظمة البيئوية»، مثل وادى السيلكون، وإصلاح الضمان الاجتماعى لتشجيع مرونة العمل، وتحسين الأداء التعليمى بإعادة النظام لحجرة الدراسة والتمويل الكامل للطلاب الذين يدرسون العلوم والهندسة. باختصار، لابد لها من سياسة «منافسة» فعالة. ويرفض بريستوفيتس نموذج التجارة الحرة الخاص بالعولمة باعتباره ضاراً بالمصالح الأمريكية. وهو من أتباع النزعة التجارية المحدثين، حيث تقول القاعدة: تاجر بحرية مع أصدقائك، وعلى نحو إستراتيجى مع أى شخص آخر. وليست هذه بالقاعدة السيئة فى عالم من الدول ذات السيادة.



باعتبار الصين الدولة الوحيدة المحتمل أن تحدث توازناً مقابل ثقل الولايات المتحدة الاقتصادى والسياسى، فهى تحظى بود من يرغبون فى وجود ضمان ضد الهيمنة الأمريكية



يغطى تيد فيشمان، الصحفى والمتعامل السابق فى السلع، جزءاً كبيراً من الموضوع نفسه فى كتاب: China, Inc.: How the Rise of the Next Superpower Challenges America and the World. وهنا نجد النكهة السياحية ذاتها؛ إذ تكشف رحلة على نهر هوانجپو فى شنغهاى عن ناطحات السحاب والحياة الليلية المبتذلة للمدن الكبيرة الثرية، حيث «يمكن للمهندسين الغربيين السذج العثور على فتيات من الحرارة بالقدر الذى يجعل أصدقاءهم فى الوطن يضحكون». والفرق الأساسى هو أن فيشمان يؤكد على الوسائل المحلية لصعود الصين. فبدون قرار دنج «فتح» الصين، ما كان لمديرى الشركات التنفيذيين الأمريكيين أن يحلوا مشاكلهم بنقل إنتاجهم إليها.

سوف يعرف القراء معلومات عن الطريقة التى يعمل بها نظام «هوكو»، أو دفتر الحساب المصرفى، الذى استطاع به ماوتسى تونج الإبقاء على العامل الريفى على أرضه وخارج المدن، وعن أصول «نظام المسئولية المنزلية» الخاص بدنج چياوپينج لعام ١٩٨٠ الذى أحدث ثورة فى الإنتاجية الزراعية من خلال الاستعاضة عن المزارع الجماعية بنظام قطع الأراضى العائلية، وعن الطريقة التى نمت بها «المشروعات الحضرية والريفية» بحيث شغلت المساحة الرمادية أيدولوجياً بين المشروع العام والمشروع الخاص، وعن الهجرة الواسعة من الريف إلى المدن حيث وُلد الاقتصاد الخاص «بإشارة من الحكومة المركزية»، وعن شن چن التى تعد أول منطقة اقتصادية خاصة فى الصين تتحول من قرية صيادين تكثر فيها المستنقعات إلى مدينة يعيش فيها عشرة ملايين نسمة خلال خمسة وعشرين عاماً. ويقول فيشمان إن الصين «خليط لا نهائى من الأعمال التجارية الهجين» التى «تدمج القطاعات فى أغلب الأحيان بطرق على قدر غير معقول من التعقيد والإبهام». فالأعمال التجارية جميعها تقريباً «تديرها الكلمات والمصافحات، وفى بعض الأحيان العقود المكتوبة ولكنها غير قانونية». ويحكى فيشمان عن ذلك النشاط المفرط فى بناء المدن، وعن أعمال الإزالة ونزع الملكية الجبرية لإفساح الطريق أمام المبانى الجديدة والمشروعات الكهروهيدروليكية، وعن العاملات المستغَلات فى مصانع النسيج والإلكترونيات اللائى يحلمن بالعودة إلى قراهن، وعن زحف الصحراء، وعن التلوث الذى على قدر من الكثافة يجعل «السحابة البنية الأسيوية» تحلق فوق ساحل المحيط الهادى فى الولايات المتحدة، وعن البرنامج الصينى الضخم لإنشاء الطرق والسكك الحديدية، وعن انتشار فيروس نقص المناعة، الإيدز، والإجهاض للتخلص من الفتيات غير المرغوب فى ولادتهن، والكثير غير ذلك. ولكن موضوعه الأساسى هو موضوع پريستو؟يتس نفسه، أى أن ما لا يُحصى من الأعمال التجارية يعرِّضه «السعر الصينى» المنخفض للضرر، وهو الأمر الذى يتضمن الغش والقرصنة. وسوف تختفى فرص العمل المتاحة لملايين آخرين من العمال الأمريكيين. كما يعتقد أن شيئاً لن يوقف القوة الساحقة الصينية، ذلك أن الصين تبنى بالفعل «الكتل الحاسمة من الشركات المحفزة للخميرة الخلاقة التى تقود إلى التجديد السريع». ويتنبأ فيشمان بتزايد المنافسة الصينية الأمريكية قائلاً: «إنها لعبة قوة تمضى بطيئة، ولكنها تأخذ مجراها». ■

الـــهـــوامـــش

(١) Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers (Random House, 1987), p. ٥٣٤.

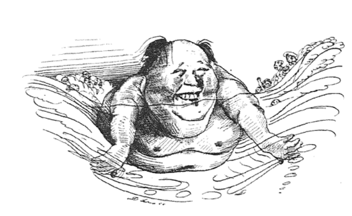
(٢) لابد من تحويل نتيجة المعلومات التى بالعملة الوطنية إلى عملة مشتركة لمقارنة حجم الاقتصادات. وإذا جرى التحويل بسعر صرف السوق يكون الاقتصاد الصينى هو ثامن أكبر اقتصاد فى العالم، أى عشر الاقتصاد الأمريكى، وليس من المحتمل أن يلحق به قبل الفترة ما بين ٢٠٤٠ و٢٠٥٠. إلا أن تحويل المعلومات طبقاً لأسعار صرف السوق ليس إجراء جيداً بالنسبة للحجم النسبى للاقتصادات لأنه يأخذ فى اعتباره السلع والخدمات التى يجرى التعامل فيها على المستوى العالمى وتشوهها تقلبات أسعار العملات قصيرة الأجل فحسب. وهذا هو سبب استخدام الاقتصاديين لمحولات تساوى القوة الشرائية بصورة كبيرة، وهو ما يقيس القوة الشرائية النسبية لعملات الدول المختلفة فيما يتعلق بدسلة، السلع نفسها فى كل منها. ويمكن أن يكون ذلك أعلى بكثير من الناتج المحلى الإجمالى بالنسبة للدول النامية. وعلى تساوى القوة الشرائية يكون إجمال الناتج المحلى الصينى ٨٨٧٧ مليار دولار؛ بينما يكون ٢١٧٢ مليار دولار على أساس سعر صرف السوق.

(٣) Steve Lohr, "Who's Afraid of China, Inc." New York Times, July ٢٤ ٢٠٠٥.

• تعد وال مارت أكبر سلسلة متاجر للتجزئة فى الولايات المتحدة والمكسيك وكندا، وبلغت أرباحها فى العام المالى الحالى ٣,١٠ مليار دولار عن مبيعات بلغت ٢٨٥ مليار دولار، ولو كانت اقتصاداً مستقلاً لاحتلت المرتبة الثالثة والعشرين بين دول العالم، بين النمسا والمملكة العربية السعودية. (المترجم)

(••) كولونيل ساندرز هو مؤسس سلسلة «كنتاكى فرايد تشيكن»، وتظهر صوره على واجهات محالها. (المترجم)

(٤) Philip Stephens, Fainancial Times, July ١ ٢٠٠٥.



مـــاو.. صـــورة قاسـيــة!

جـــونــاثــان ســـبـنـس

Mao: The Unknown Story

(ماو: القصة غير المعروفة)

Jon Halliday, Tung Chang

Jonathan Cape, 2005, 832PP., 25.00

باتفاق مع:

The New York Reviv of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

[١]

■ قبل ما يقرب من ٧٠ عاماً، وعقب اتصالات بينه وبين الحزب الشيوعى الصينى، تلقى Edgar Snow، الصحفى الأمريكى الشاب (وقتها)، دعوة لزيارة قاعدة الحزب فى منطقة Bao-an، شمال غرب الصين، فقصدها تارة مرتحلاً بقطار، وشاحنة، وتارة أخرى سيراً على الأقدام، أو فوق صهوة جواد، ووصل إلى القاعدة مصحوباً بعشرين رجلاً من قوات الجيش الأحمر الصينى. هناك، تمكن Snow من إجراء عدة مقابلات صحفية مسائية طويلة مع Mao «الزعيم الصينى»، داخل كهفه المضاء بالمصابيح، قام خلالها سكرتير Mao، بدور المترجم، ثم تولى Huang Hoa، وكان طالباً صينياً، ترجمة محصلة اللقاء (٢٠ ألف كلمة) من الإنجليزية إلى الصينية لعرضها على Mao، الذى أجرى بعض تعديلات واختصارات، وأعاد Huang ترجمة النص المعدل إلى الإنجليزية وقدمه إلى Snow الذى عمل على إضافة تعليقات وحواشى تفسيرية وقرائن تاريخية. وكانت المحصلة هى كتاب: «نجمة حمراء فوق الصين Red Star over China»، الذى نشر فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عام ١٩٣٨، وظهرت عنه، فى الصين، نسخة مختصرة باللغة الصينية وتم توزيعها على نطاق واسع، بعد قليل من عودة Snow إلى بكين، وخاصة فى منطقة القاعدة الشيوعية. فيما بعد علق Snow على كتابه بهذه الكلمات:

ذهبت إلى الشمال الغربى للصين قبل أى أجنبى، وفى لحظة حالكة من تاريخ الشيوعيين الصينيين وكل الصين. ووجدت أن أمل هذه الأمة يكمن داخل هذه المجموعة الصغيرة من الناجين من «المسيرة»

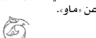


الطويلة. لقد كونت انطباعًا جيدًا عنهم، وعن سياساتهم، وأعجبت بشجاعتهم، وغيرتهم وإصرارهم على إنقاذ الصين (تحت قيادتهم) إلى جانب قدراتهم المتميزة، و إدراكهم السياسي العملي، والنزاهة الشخصية لقياداتهم العليا.

كان كتاب Snow - حقًا - مديحًا خالصًا لكل من زعماء الصين الشيوعية وأتباعهم: في «نجمة حمراء» يصف ماو، البالغ من العمر - وقتها - ٣٤ عامًا بأنه كان شخصًا نحيلًا، لينكولينى المظهر[1]. اشتهرت منزلته، وسجله، سواء في عمله أو خلال المسيرة، لتصبح أنشودة على ألسنة الناس. ولاحظ Snow في يومياته أن الشيوعيين الصينيين الذين التقاهم «كانوا يتعاملون مع إعادة صياغة العالم وكأنهم صبية مدرسة في مباراة لكرة القدم، وأن Mao، الذى وصفه، كان عمليًا، جادًا، شعبيًا، خفيف الظل، وحالمًا.

ورغم أن مبيعات «نجمة حمراء» في الولايات المتحدة، جاءت مخيبة للآمال (لم تتجاوز ٢٣،٥٠٠ نسخة، وهي ربع المبيعات في بريطانيا)، إلا أن الكتاب كان له تأثير كبير على رؤية الأمريكيين للصين. كما أن شهادة Snow المفصلة عن حياة Mao المبكرة، تعليمه، وخبراته الأولية كثورى، وعن المسيرة الطويلة، أصبحت مصدرًا لما كتب عن حياة Mao، ولا تزال أجزاء منها مقبولة إلى اليوم. ولقد استمر هذا «التراث المدحى» منذ اليوم الأول لصدور «نجمة حمراء» وعبر كتابات من سافروا إلى منطقة القاعدة في إقليم Yenan خلال الحرب العالمية الثانية، أو في كتابات من راقبوا - بتوجس - الهزيمة التي ألحقها الشيوعيون بـ Chiang Kai-Shek، في الحرب الأهلية ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٩، ثم حاربوا، فيما بعد، من أجل تأسيس دولة جديدة. هذا التعاطف أخذ يتلاشى بصعوبة. ومنذ وفاته في عام ١٩٧٦، بدأ مديح «الراحل ماو» يجف بشكل واضح مع ظهور أدلة قاطعة حول مأسى «القفزة التقدمية الكبرى» وما تلاها من مجاعة ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٢، ثم الثورة الثقافية ما بين ١٩٦٦ و١٩٧٦، لكن أسطورة ماو القوى لم تتلاش على أية حال.

في «ماو: القصة غير المعروفة Mao: The Unknown Story»، يشن المؤلفان Ton Halliday & Jung Chang، هجومًا مطولًا على مجمل الرؤية المنحازة إلى تقدير دور «ماو» في بزوغ الحركة الشيوعية الصينية ونجاحها، قبل وبعد عام ١٩٤٩. وقد أقدما على «مشروعهما» اعتمادًا على ما حققته Chang من صيت عالمى بكتابها Wild Swans: Three Daughters of China، وهو الكتاب الذى نشر للمرة الأولى في عام ١٩٩١، وفيه قدمت خبراتها الحياتية التي عاشتها في «جمهورية الشعب»، وعلى معرفة Halliday بالمصادر واللغات الشرق - أوروبية والروسية. قدم المؤلفان، إلى القراء، ٨٥ صفحة من المراجع والحواشي الشاملة والمصنفة من مقتنيات الأرشيف الصينى، وكتابات صينية أخرى استعان بها (٢٦ صفحة)، و٢٣ صفحة بالمراجع من لغات شرقية (بما في ذلك الروسية، الألبانية، والبلغارية)، وترجمات باللغة الإنجليزية عن مصادر صينية، إضافة إلى ٤٠ صفحة تحتوى أسماء هؤلاء الذين أجريا معهم لقاءات صحفية في الصين، روسيا، وبقية أنحاء العالم. ويبدو من ملاحظاتهما أنهما باشرا في إجراء أول تلك المقابلات في عام ١٩٩٣، لهذا يمكن الظن بأنهما عكفا على إعداد كتابهما عقدًا من الزمان. ومن هذا الكم الهائل (من المصادر والمراجع والمقابلات) توصلا إلى تكوين صورة «خاصة بهما» عن «ماو».



السمات الأساسية لهذه «الصورة» هي: أن ماو الذى ولد لأسرة تعمل بالفلاحة لم يكن يعرف شيئًا عن الفلاحة الجادة. وأقصى ما كان يستطيع فعله، وهو صبى، تقديم الطعام إلى الخنازير أو اصطحاب الماشية في نزهة. وعندما ترك الزراعة والتحق بالمدرسة المحلية، كان تلميذًا مزعجًا. وفي عام ١٩١١، عام الثورة التي أطاحت بآخر أسرة حاكمة في الصين، «قال وداعًا، وإلى الأبد، لحياة الفلاحة» التي لم يخرج منها بدروس مستفادة ولم يشكل من خلال تجربته، وجذوره الريفية، رؤية اجتماعية. كما أن مشهد ضحايا المجاعة لم يحرك فيه ساكنًا، ولم يجعله قادرًا على استيعاب حاجة المزارعين الأساسية إلى التخطيط والإحصاء، «فقد كان في معظم حياته كارهًا للأرقام وميئوسًا منه فيما يتعلق بالاقتصاد».

وخلال السنوات العشر التالية، من القرن العشرين، التحق Mao بمدرسة لتدريب المعلمين: هنا يخبرنا المؤلفان أن «ماو، تأثر في بداياته بفكرة رئيسية واحدة «جسدت دوره في تدمير الثقافة الصينية»، عندما قرأ في الفصل ترجمة صينية لكتاب «منظومة الأخلاقيات A System of ethics»، الذى نشر في عام ١٨٩٩ للفيلسوف الألمانى Friedrich Paulsen، وتشرب منها إدراك شخصى مفاده أن الذات هي التي تسيطر على المجموع، وأن التقويض يحكم التفوق، وأن «الفضيلة لا يجب تعريفها في ضوء علاقتها بالآخرين». مثل هذه الأفكار كانت أبعد من كونها مجرد فقرات منتقاة من مؤلف قديم، تشير إلى مرحلة من وعى في بداية اكتمال النمو، مثلما قد يظن العديد من القراء، بل كانت بالنسبة للكاتبين، آراء وعناصر مركزية، في شخصية «ماو»، وظلت متوافقة وحددت دوره طوال العقود الستة التي عاشها».

هناك عنصر آخر شكل شخصيته، ويكمن في بلادته في الحياة، ومنذ صباه الريفى أو التعليمى. ويرى المؤلفان أن السبب الذى دفع «ماو» إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعى، وهو ما حدث نهاية عام ١٩٢٠، أوائل عام ١٩٢١، لم يكن له علاقة بوعيه الاجتماعى «لأنه لم يشعر بتعاطف لا مع العمال ولا مع الفلاحين». ولأن ضعفه في تحصيل اللغات منعه من الذهاب إلى روسيا أو فرنسا للدراسة في المعاهد اليسارية، أسوة بأقرانه في إقليم Hunan، وجد «ماو» أن أفضل وسيلة لكسب العيش، وكان غير بارع في التدريس، هي الحصول على نقود تخصصها «حركة الشيوعية الدولية» وقبول وظيفة مريحة كثورى محترف وله مخصصات دعم. ولأنه كان نهازًا للفرص، و«مشوشًا فكريًا»، لم يجد مشقة كبيرة في التوافق مع العالم المتعرج للجبهة الموحدة للشيوعية الدولية التي أوجدت تحالفًا ما بين الشيوعيين والطبقتين البورجوازية والمتوسطة، إضافة إلى الحزبين من أصحاب الاتجاهات اليمينية، تحت مسمى حماية الاتحاد السوفيتي ومستقبل الثورة العالمية: «وراح ماو يتحول تبعًا لاتجاه الريح السائدة».



يبدو أن «المطلوب» كان إيجاد حالة يستطيع فيها الجانب السادى الكامن في «ماو» أن يتطور إلى مداه. وقد لاحت الفرصة، كما قيل لنا، في الصراع المرير الذى تفجر في الصين، في منتصف العشرينيات، عندما تحللت الجبهة الموحدة من تناقضاتها الداخلية الحادة والضغائن السياسية. ويرى المؤلفان أن «ماو»، وخلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٢٦، والشهرين الأولين من عام ١٩٢٧، التزم بتعليمات رؤسائه لكي يدرس (وينشر) الثورة الريفية عبر المؤسسات الفلاحية التي تشكلت في أنحاء متفرقة من الصين. ولقد عشق «ماو» ما شاهده من إهانات لحقت بملاك الأراضى وقسوة انتقام الجماهير، وكان يحتفل بأبناء الانتفاضات في إقليم Hunan، مسقط رأسه. واعتبر العديد من المحللين المحليين ذلك علامة على عمق إدراكه للمشاكل الرهيبة التي تطارد الصينيين في الأرياف. وهذا أدى بالمؤلفين إلى تكوين رؤية مختلفة:

ما حدث، في الواقع، هو أن «ماو» اكتشف في نفسه عشقًا لسفك الدماء. وهذه المتعة الباطنة، والتى تجاوز السادية، تناغمت مع، بل فاقت، انجذابه إلى العنف اللينينى[2]. لم يعتنق «ماو» العنف بناء على نظرية، بل نبع نزوعه إليه من داخله. وقدر أن يكون للعنف تأثيره العميق على طرق حكمه في المستقبل.

هذا التعطش إلى الدماء صاحب «ماو» عندما لجأ إلى القاعدة الثورية في جبال



منذ وفــاته في عام ١٩٧٦، بدأ مديح «الراحل ماو» يجف بشكل واضح مع ظهور أدلة قاطعة حول مآسى «القفزة التقدمية الكبــرى»، ثم الثـورة الثقافيــة، لكــن أسطورة ماو القوى لم تتلاش





Jinggang في عام ١٩٢٨ وقتها. وكما يرى المؤلفان، أثبت ماو «ولعه الشديد بالموت البطيء». ويضيف المؤلفان، في حاشية، أن ماو لم يخترع الإعدام العلني لكنه أضاف إلى هذا التقليد الرهيب بعداً حديثاً هو «الحشود المنظمة». وبهذه الطريقة أصبح الموت مشهداً إجبارياً لجزء كبير من السكان، كان يجبر على الانخراط في زحام لرؤية الناس وهم يعدمون بهذه الطريقة الدموية المؤلمة التي تزرع الخوف داخل القلوب.



مع هذا التحليل «القارس» الوارد في أول ٥٤ صفحة من متن الكتاب، يكون القارئ قد «تناغم» مع الأفكار الرئيسية لحياة «ماو» التي يكشف عنها المؤلفان وهما يتتبعان نشاطاته خلال سيطرة الشيوعيين على إقليم Jiangxi الصيني، بداية ثلاثينيات (القرن الماضي)، وما أعقب ذلك من تأسيس لقاعدة Yenan للمقاومة ضد اليابانيين، وفترة الحرب الأهلية وهزيمة الوطنيين من أتباع «شيانج كاي شك»، والسنوات الطويلة المؤلمة لـ «الجمهورية الشعبية»، والمجاعة والثورة الثقافية التي أودت بحياة الملايين من الصينيين.

ومن بين الأفكار الرئيسية التي يقدمها المؤلفان في بداية عملهما الذي لم يصل إلى قمة ازدهاره إلا في رؤيتهما لسنوات ماو اللاحقة، يمكن للمرء حصر الكثير من «السمات»، ومنها: قسوة «ماو» إزاء زوجاته (أربع زوجات في حياته) ونحو أبنائه، عشقه المتنامي للترف، وخاصة للقصور الفخمة المحاطة بالحدائق الشاسعة والمطلة على المشاهد الخلابة، حمامات السباحة والقطارات الخاصة، شدة ارتيابه وهوسه الأمني، عاداته الشخصية غير النظيفة، انغماسه في الشهوات، شراهته، نزوعه إلى الاستغراق في الملذات الجنسية، اعتماده - منذ بدايات الثورة - على كميات متزايدة من الحبوب المنومة، واستمتاعه بإهانة الآخرين وإيلامهم، وخاصة القيادات التي تعمل معه. وخلال الثورة الثقافية كان «ماو» حريصاً على أن يتأكد بنفسه «من حجم العنف الذى يمارس علناً، وأن يجعل ضحاياه يخضعون للإهانة والتعذيب بواسطة اتباعهم ومرؤوسيهم المباشرين».

وكل «هذا» بلغ ذروته في طموحه من أجل السيطرة على العالم، عبر امتلاك القنابل النووية، بعد أن ألحق الهزيمة بكل ركن من أركان بلاده.

[٢]

توجد مداخل عديدة عمل خلالها المؤلفان علي إحكام نقطة التقاء كل تلك السمات السلبية في ذات مدركة لامرئ واحد متكامل، وهذا المرء، في دنيا «ماو» في عام ١٩٦٤، يستطيع أن يصمد أمام تصويرهما لـ «ماو» في ذلك الوقت، وفي أي من المراحل إلى وفاته في عام ١٩٧٦:

كان «ماو» قد رسم في ذهنه صورة لمجتمع مجدب بمعنى الكلمة، مجرد من المشاعر الإنسانية، يسكنه قطيع بلا إدراك، ويطيع أوامره بتلقائية. لقد أراد أمة بلا عقل، كي تحقق له الخلاص من الأعداء غير المرغوب فيهم، وتعيش هذه الحالة بشكل دائم. وكان «ماو» في ذلك، أكثر تطرفاً من هتلر أو ستالين.

حول هذه الصورة لوجه إنسان بغيض، شيد المؤلفان نظاماً-نموذجياً متشابكاً ومركباً لتاريخ قومى سعى فيه «ماو» إلى توظيف كل مواجهة رئيسية لصالحه، لكي تتلاءم مع رغبته غير المحدودة للسيطرة علي الحزب الشيوعى الصينى، الحركة الشيوعية الدولية، والعالم على اتساعه. يوجد، حسب ما أحصيت، ما يقرب من ٢٢ «لحظة» أو أكثر، من تلك اللحظات الحرجة، مذكورة عبر صفحات الكتاب (٦٣١ صفحة)، كل «لحظة» منها صممها المؤلفان للطعن في بعض ما يعتقدان أنه معرفة زائفة شائعة عن صفات «ماو» في مسيرته إلى السلطة، حاول المؤرخون والمحللون تأكيدها على مدار ما يقرب من ٦٠ عاماً.

ينقسم الكتاب إلى ٥٨ فصلاً، من الحجم الصغير (الفصل حوالى عشر صفحات). وكل فصل، من معظم الفصول، يركز على مخطط، أو فعل، واحد استطاع «ماو»، الذى يزعمانه، وبحصافة، أن يوظفه في خدمة مصالحه الشخصية. هكذا نرى «ماو» وهو يستخدم Wang Ching، زعيم الحزب الوطنى، لدعم دوره داخل الجبهة الموحدة: يؤدى دور التابع للشيوعية الدولية، ويخون ثقة رفاقه في Wuhan، عام ١٩٢٧، ويفكك قاعدة رجال حرب العصابات في جبال Jinggang، ويخرب الإنجازات العسكرية لزميليه الثوريين Zhu De & Peng Dehuai، ويقنن لموجة من التعذيب والقتل في مجالس Jiangxi المحلية، ويستغل «المسيرة الطويلة» لتدعيم منافسه الحزبى الرئيسى Chang Kuo-T'ao، وينقص من شأن Chou En-lai ويحوله إلى خانع تابع. يتآمر مع «ستالين» لكي يدفع باليابانيين إلى حرب في Shanghai، في الوقت الذى يرفض فيه محاربتهم بالقرب من إقليم قاعدته في الشمال الغربى، ويعذب منافسه Wang Ming، وكان من صفوة الحزب، عقلياً، ويحاول تسميمه، ويكون «دولة بوليسية» في قاعدة الإقليم ذاته، ويخون رفاقه من الشيوعيين، في وسط الصين، ويمكن Chiang Kai-Shek من سحقهم، ويطور عقيدة «ماو» داخل القاعدة، كما يصر على سياسة عسكرية مميتة خلال الحرب الأهلية في «منشوريا» أدت إلى وقوع ضحايا فاق عددها في بعض المدن هناك، إجمالى عدد ضحايا الغزو اليابانى في Nanjing، ويخون الصين كلها بترك «ستالين» يحتفظ بمناطق شاسعة من الأراضى الصينية في الشمال والغرب، إلى جانب إرغام كبار رفاقه على دخول الحرب الكورية دون دعم جوى سوفيتى، كما كان يحتال على المثقفين بوعود زائفة وشعارات مثل شعار «دع مائة زهرة تتفتح»، ويصادر الغلال من الفلاحين دون ما حاجة، خلال المجاعات الرهيبة التي أعقبت «القفزة الكبرى»، إضافة إلى تدميره للموارد الصينية لمواجهة أعباء طموحاته العالمية، وتعمده تدمير زملائه النابهين في «تطهيرات» الثورة الثقافية، وفي بعض الحالات بعد معاملتهم بفظاعة شديدة، في وقت نجح فيه أيضاً في «إزالة» الثقافة من داخل البيوت الصينية «حيث أقدم المواطنون الخائفون على إحراق ما لديهم من كتب». وقرب النهاية أمر برفض علاج Chou En-Lai من مرض سرطان المثانة «خشية أن يطول به العمر من بعده ويحاول تغيير سياساته».



جاءت سلسلة الأحداث هذه في نصوص محكمة بصيغة ما، أو أخرى، قدمها المؤلفان تحت عناوين لافتة للنظر. خذ - على سبيل المثال - عنوان الفصل التاسع عشر: «عامل في الظلام يشعل الحرب الصينية - اليابانية». خلاصة هذا الفصل، من الكتاب، أن الجنرال الوطنى Zhang Zhi-Zhong، قائد إقليم Nanjin في شنغهاي، كان في حقيقة الأمر عميلاً شيوعياً، ولوقت طويل، وأن «ستالين» قام بتنشيطه في شهر أغسطس، من عام ١٩٣٧، لكي يوسع رقعة الحرب مع اليابان. ويرى المؤلفان أن نجاح الجنرال Zhang في دفع اليابانيين إلى الحرب على اتساع مسرح العمليات في شنغهاي أدى، في النتيجة، إلى إعطاء شرعية للحزب الشيوعى الصينى كحليف للوطنيين الذين يحاربون اليابانيين. ولا يعنى ذلك أن ما حدث ليس من أهم الضربات التي وجهها «ستالين» فحسب، بل يعنى أيضاً أن Zhang هو أهم العملاء في كل العصور. وهذه مزاعم مبالغ فيها وتحتاج بعض تأمل.

ولا ريب أن المؤرخ للصين، في القرن العشرين، لا يستطيع إنكار وجود عملاء «نائمين» عملوا في العديد من المواقع داخل الجيش الوطنى الصينى وأجهزة الاستخبارات. وهؤلاء «الجواسيس» تم زرعهم، إما بواسطة الحزب الوطنى، أو الحزب الشيوعى، أو أنصار اليابان. وقد استطاعوا التأثير - في أوقات - على مجرى الأحداث،

«ماو» اكتشف في نفسه عشقاً لسفك الدماء. وهذه المتعة الباطنة، والتى تجاوز السادية، تناغمت مع، بل فاقت، انجذابه إلى العنف اللينينى. لم يعتنق «ماو» العنف بناء على نظرية، بل نبع نزوعه إليه من داخله





وبطرق فاعلة. كان هناك أيضًا عملاء مزدوجون في كل جانب. وكل جانب كانت له فرق اغتيالات خاصة به.

وقد ظهر هذا الوضع بسبب طبيعة الجبهة الموحدة التي سمحت لكل من الشيوعيين والوطنيين بحضور تدريبات عسكرية أكاديمية في Whampoa، بالقرب من Canton، في بداية العشرينيات، حيث نشط عملاء الشيوعية الدولية بشكل مكثف. وقد خدم Chiang Kai-Shek كقائد لأكاديمية Whampoa، التي كان Chou En-Lai مديرها السياسي. وكان الأول قد زار الاتحاد السوفيتي لدراسة طرق التدريب الأكاديمي، أما الثاني فقد جاء من عائلة مثقفة وعاش لبعض الوقت في فرنسا. ومثلهما مثل آلاف الشباب الصيني الطموح درس Chiang & Chou أيضًا في اليابان. ولقد بدأ Zhang Zhi-Zhong يسطع بسرعة داخل الجيش الوطني. ويقول المؤلفان إنه كان من المفضلين - بوضوح - عند Chiang، وإن كان Zhang فضل أن يستسلم أمام الشيوعيين، في عام ١٩٤٩، بدلاً من الانسحاب إلى تايوان مع Ching.

وتظل هناك العديد من الجوانب، في المزاعم الدرامية التي يطرحها المؤلفان، التي تحتاج إلى توضيح: كيف تمكن «ستالين»، على سبيل المثال، من «تنشيط» الجنرال Zhang، من أجل توسيع رقعة الحرب مع اليابان؟ هل كان يوجد، في شنغهاي، قاعدة لعملاء الشيوعية الدولية لاتزال على اتصال مع موسكو عبر قنوات لاسلكية سرية، وفي وضع يسمح بإعطاء التوجيهات إلى الجنرال Zhang؟ وما هي - على وجه الدقة - طبيعة عمل ومهام الجنرال قبل «تنشيطه».

في مذكراته التي نشرت في بكين عام ١٩٨٥، يقول الجنرال Zhang إنه كُلف من قبل Chiang، وفي وقت مبكر، في فبراير عام ١٩٣٦، بوضع خطط سرية مع كبار ضباطه في الأكاديمية العسكرية الوطنية، وكان هو عميدها، للدفاع عن إقليم Suzhou-Shanghai ضد اليابانيين. وقد استمر هذا التكليف إلى عام ١٩٣٧، عندما توجه Zhang إلى مدينة Oingdao الشمالية بهدف العلاج، لكنه، وفي التاسع من شهر يوليو في العام نفسه، وبعد سماعه أنباء الهجمات اليابانية في شمال الصين، سارع بالعودة إلى Shanghai & Nanjing، لتنسيق الدفاعات هناك. ولا يوجد في ذلك ما يشير إلى «جاسوس يعمل في الظلام». والحقيقة التي كتبها Zhang أيضًا في مذكراته هي أنه كان ناشطًا في الحرب ضد اليابانيين في شنغهاي، منذ وقت مبكر في عام ١٩٣٢. وعند عودته إلى مطار Nanjing، قادمًا من جبهة القتال، استقبل Chiang بحرس شرف ومراسم عسكرية. ويبدو أن Chiang كان عارفًا بوجهات نظر Zhang، الذي كان موضع ثقته بشكل دائم.

نقطة أخرى، لها صلة بالموضوع وتستحق الانتباه: يقول المؤلفان إن الجنرال Zhang، وبسبب موقفه العدائي المناهض لليابان، قد «دفع إلى الاستقالة»، في شهر سبتمبر (١٩٣٧) من قبل Chiang الغاضب، خائب الأمل، والمرتاب فيه. وعلى أية حالة فقد أوضح Zhang، وأكدت مصادر أخرى ما أوضحه، أنه، وعقب الانتصار الياباني الأولى في إقليم شنغهاي، تم نقله وأصبح حاكمًا لإقليم Hunan. ولا يبدو في ذلك إهانة له لأن الخطة التي أقرها Chiang للانسحاب العام، كانت تقضي باعتبار أراضي إقليم Hunan، جنوب نهر Yangtze، مع روافده الرئيسية إلى الجنوب الغربي، الإقليم الرئيسي لمستقبل الصين. ويضيف Zhang في مذكراته أنه، وبعد عشر سنوات، التقى مجددًا مع بعض الشيوعيين، ومنهم Chou En-lai، الذين عرفهم في الأيام الخوالي في Whampoa. لقد استعان المؤلفان بمذكرات الجنرال Zhang كمصدر من بين مصادر كتابهما، ولا يوجد - بطبيعة الحال - سبب يجبرهما على الاتفاق معه في كل التفاصيل. لكن هنا، وكما في العديد من «السيناريوهات» الجريئة في: «ماو: القصة غير المعروفة» كان من شأن المحتوى التاريخي الأكثر إحكامًا أن يكون أكثر فائدة للقارئ.

[٣]

من الطبيعي أن تتأثر المعالجات التاريخية بظروف وملابسات زمان ومكان إنجازها. ولم تكن «رؤية» Edgar Snow، لأهداف «ماو» وأساليبه الثورية، منزهة عن النقد في يوم من الأيام. بدأ هذا النقد عقب انسحاب Chiang إلى تايوان في عام ١٩٤٩. وفي العام التالي أخذ نقد رؤية Snow يزداد حدة في ضوء ما تبين من حقائق مروعة عن الحرب الكورية، والرعب المتنامي بشأن ما كان يجري داخل الاتحاد السوفيتي، في عصر «ستالين». ولم يكن الجدل الدائر داخل أمريكا حول ما سمي بـ «فقدان الصين» سوى أحد جوانب القصة. وعندما أصبحت «هونج كونج»، تحت الحكم البريطاني، قبلة لهاربين من الصين الماوية، توافد علماء الاجتماع إلى هناك لإجراء المقابلات مع الهاربين، والتوصل إلى تحليل يرسم طبيعة عمليات «غسل الأدمغة»، والدعائم التأسيسية والمعنوية للدولة والمجتمع في الصين.

في تايوان، حيث تجمع الوطنيون وحاولوا الحفاظ على أمل العودة إلى الوطن الأم، بدأت شواهد التجاوزات والفظائع تتجمع وتسجل وتصبح في متناول الباحثين. واقترنت عمليات التطهير، داخل «جمهورية الشعب»، بعمليات تصنيف، خارجها، في ملفات عن هؤلاء الذين قاموا بها، أو تورطوا فيها. أصبح «دليل الجرائم» هذا، جزءًا من سجل سرى متجدد ودائم. وفي اليابان، ورغم التقاعس الذى شاب البحث المتعمق حول طبيعة الاحتلال الياباني «للصين»، كانت هناك عمليات فحص شاملة، وإعادة نسخ، للدراسات التي قام بها باحثون يابانيون عاشوا، وعملوا، في منشوريا وشمال الصين. يضاف إلى ذلك أن الصدع الذي أصاب العلاقات الصينية - اليابانية، بعد العام ١٩٥٦، أدى إلى قيام الباحثين بإعادة دراسة الاختلافات ما بين العقيدة، و«التكتيكات» الثورية في كل من الاتحاد السوفيتي والصين.

ومع توفر «مادة»، و«مصادر» جديدة، أخذ اتجاه التأريخ يتغير، وأصبح أكثر عمقًا. ويستند القسم الأكبر من المصادر المتعلقة بحياة «ماو»، وإليه استند، أيضًا، المؤلفان في كتابهما «ماو: القصة غير المعروفة»، إلى فيضان المذكرات والذكريات التي تدفقت من المطابع الصينية في كل من «تايوان» و«هونج كونج»، في البداية، ثم من داخل الصين ذاتها، وعلى نطاق واسع اليوم. مذكرات الجنرال Zhang يمكن اعتبارها مثالاً لهذه النوعية من المصادر، لكن المذكرات التي لفتت انتباه «الغرب»، بشكل أوسع. كانت مذكرات Li Zhisui طبيب «ماو» التي نشرت في «تايوان» في عام ١٩٩٤، وصدرت ترجمتها الإنجليزية، في العام نفسه، عن دار Random، بعنوان «الحياة الخاصة للرئيس ماو The Privat Life of Chairman Mao».

لقد سلط هذا الكتاب الضوء، وبشكل حاد، على المعضلة الأكبر في تقييم «أدب المذكرات» الذى يتناول حياة «ماو»: هل هذه المذكرات صادقة وحقيقية أم لا؟ وضرورة أن تكون الإجابة هي «نعم»، لا تعد عاملاً رئيسيًا في التقييم، خاصة إذا ما جاءت جذاذات المذكرات متناسقة وفي سياق محدد. هنا يصبح السؤال هو: هل يمكن أن تظل الأحداث حقيقية صادقة إذا ما وضعناها في سياق بديل مختلف؟ لقد وضع Li Shisui طبيب «ماو» مذكراته في سياق محكم وقوى، الأمر الذى جعلها مقبولة بشكل متزايد، مع مرور الوقت، حيث قدم «ماو» في هذه المذكرات، باعتباره شخصًا منشغلاً بذاته، غريب الأطوار، متسلطًا، غير موهوب، مولعًا بالشعارات الجوفاء، حسيًا، عاشقًا للرفاهية، وقسوته تبدو نابعة من أهواء عشوائية، في بعض الأوقات، أو نتيجة لحسابات باردة، في أوقات أخرى. ويشجع أسلوب «طبيب ماو» المحكم، والمعياري، نسبيًا، على قبول مزاعمه الرئيسية. لكن الأمر نفسه لا ينطبق على الكثير من الروايات المعادية الواردة في كتاب «ماو: القصة غير المعروفة»، رغم الاعتماد على مذكرات لشخصيات صينية ولقاءات مع عدد كبير من الشخصيات الأخرى، من بينها صديقات سابقات «لماو»، وأفراد من «السكرتارية» الخاصة، إلى جانب بعض حراسه، ابنته، وزوجات بعض كبار زملائه.

كان «ماو» قد رسم في ذهنه صورة لمجتمع مجدب بمعنى الكلمة، مجرد من المشاعر الإنسانية، يسكنه قطيع بلا إدراك، ويطيع أوامره بتلقائية. لقد أراد أمة بلا عقل





يضاف إلى ذلك وجود صعوبة خاصة في تقييم كل ما يسند إلى مصادر صينية ارتبطت بسيل المحاكمات التي جرت لشخصيات سياسية رئيسية، مثل الرئيس السابق Liu Shaoqi وزوجته Wang Guangmei، أو Lin Biao وزوجته Ye Qun، والأخيران حاولا اغتيال «ماو» في عام ١٩٧١، ولقيا حتفهما عند تحطم طائرتهما خلال محاولة الفرار إلى الاتحاد السوفيتي، بعد وقت قصير من فشل محاولة الاغتيال. وكان ماو قد قام خلال ما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٥، بتعبئة شاملة في الصين لانتقاد Lin Biao، القائد السابق للجيش، وعائلته. وكما هو الحال، دائمًا، مع من يسقط من «الزعماء»، يسارع «الشعب» إلى توفير وثيقة الإدانة المناسبة لكل ضحية جديدة. وقد كان من نصيب زوجة «لين بياو» وثيقة تستند إلى جزء من محادثة هاتفية سجلت خلسة، وكانت قد دارت بينها وبين Huang yong-Sheng، رئيس هيئة عمليات الجيش، الذى عينه «بياو» في منصبه عام ١٩٦٨، وقت أن كان هو و«ماو» على علاقة جيدة. وحسب تفسير المؤلفين، فإن «هوانج» كان «زير نساء معروف»، وسرعان ما أصبح عشيقًا لزوجة «بياو» التى كانت، وقتها، شخصية قوية وسرعان ما أصبحت عضوًا في المكتب السياسي. يقول المؤلفان:

كانت Ye امرأة شهوانية وكانت علاقتها بزوجها سيئة، وبخاصة أن عجزه الجنسى كان واضحًا، وكانت «يى» تصفه بأنه «جثة جامدة». وقد تكشفت العلاقة بينها وبين عشيقها في محادثة هاتفية مدتها ثلاث ساعات.

نقل المؤلفان نص هذه المحادثة الهاتفية(*) عن كتاب صينى نشر في عام ١٩٩٣، تحت عنوان ترجماه إلى «المحاكمة الكبرى Super Trial». ويعد هذا الكتاب اتهامًا صارخًا لعصابة الأربعة بقيادة زوجة «ماو» Jiang Qing، ومعها «بياو» وزوجته «يى» وابنهما، الذين تآمرت معهم. جاء الكتاب خاليًا من المراجع، وفيه ورد نص المحادثة الهاتفية دون إسناد. وبما أن «بياو»، وزوجته، وابنهما، قد تورطوا في محاولة الاغتيال، وقتلوا عند تحطم طائرتهم فوق «منغوليا»، فقد كان من الضرورى إعمال التدقيق، خاصة أن نص المحادثة الهاتفية اقتُبس من سجلات «المحاكمة الكبرى» باعتباره نصًا أصيلاً وإن كان يظل، في اعتقادى، أقرب إلى الحكايات الصينية الشعبية الإباحية، أكثر من كونه نص محادثة هاتفية جرت بين اثنين في قمة السلطة السياسية، وتم التنصت عليها خلسة. وفي زمن الثورة الثقافية في مجتمع يحفل بالجواسيس و«المخبرين» في كل ركن من أركانه، حيث التحفظ، والحذر، كانا من ضرورات البقاء. ورغم أننا اعتدنا مثل تلك النزوات الجنسية في مجتمعاتنا «الغربية»، وبشكل متفاوت، فإن الوضع في الصين كان مختلفًا. وفي استطاعتنا تخيل إمكانية استخدام مثل هذه السبل، في وقت معين، لتحفيز Ye وزوجها. ولكن علينا معرفة المزيد عن «الأصل» و«المصدر» قبل القبول بالنص كما هو.

ويتضمن كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» العديد من النماذج الأخرى لمثل تلك «المحادثات السرية» بين زعماء في أعلى السلطة في الصين، وجدت طريقها إلى «أدب المذكرات» وأصبحت من «المصادر». ونادرًا ما بذل المؤلفان جهدًا مثل الجهد الذي بذلاه في مناسبة واحدة، عندما رصدا بعض ملاحظات حول عادات جنسية لشخصيات غير صينية، وردت في الكتاب، وأبدتها زوجة زعيم حرب العصابات Zhu De. فقد علق المؤلفان بقولهما إن «معلوماتها تعكس شائعات سرت في ذلك الوقت».

رغم ضخامة حجمه، تجنب كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» التعرض بجدية إلى عوامل أخرى معينة جعلت من القرن العشرين قرنًا بغيضًا لعشرات الملايين من الصينيين، بغض النظر عن كل ما فعله «ماو». من بين هذه العوامل عمق ووحشية الهجمة اليابانية على الصين، طبيعة الحركة العمالية الصينية وحقائق فقر الريف، انهيار نظام الأمن الداخلى وانتشار قطاع الطرق وعصابات الجريمة المنظمة، وخطورة افتقاد Chiang Kai-Skek إلى المهارات العسكرية والسياسية، إضافة إلى الاختلافات الطبقية والإقليمية والاجتماعية.

وقد أدت شدة التركيز على «دناءة» ماو، وإغفال العوامل «الإيجابية» الأخرى، إلى أن يفقد الكتاب الكثير من القوة التى كان يمكن أن يكون عليها. كما أن السعي الدءوب إلى إثبات أن «ماو» بدأ شريرًا واستمر هكذا طوال حياته، لم يترك مساحة لتغير حتمى يطرأ على الشخصية سواء بحكم النمو والتطور، أو بحكم الانتكاس والنكوص، أو نتيجة لاستخدام المكر والدهاء، أو احتمالات النزوع إلى إصلاح. لم يكن للأعداد غير المحدودة من الصينيين، الذين كافحوا من أجل التغيير، أية أدوار في الكتاب. تحولت، هذه الأعداد، إلى أصفار عاشت وماتت دون ما هدف، مع بعض استثناءات من بينها الجنرال Peng Dehuai، الذى تصدى لماو في مواقف عديدة، وعُذب وقُتل. لقد تم تقديم كبار زملاء «ماو» ورفاقه، في الكتاب، كشخصيات مثيرة للشفقة، يسهل التلاعب بها، وغير قادرة - كما يبدو - على فهم خدع وألاعيب «ماو» المفضوحة منها، والمستترة المجهولة. وبدا الشعب الصينى كله محبوسًا داخل بؤسه، بلا حول أو قوة، بفعل طغيان شخصية رجل واحد هو «ماو» الذى بدا، بدوره، وكأنه غير قادر على الاستيعاب والتطور. فكيف يكون على «ماو» أن يسقط إلى القاع وهو لم يغادر القاع أصلاً؟

كنت أسأل نفسي، وأنا أقرأ الكتاب: لماذا يجب على المؤرخين التزام العدل مع الوحوش المريضة، إذا كان «ماو» - حقًا - وحشًا مريضًا؟ الإجابة الأكثر وضوحًا ربما تكون بنائية، بقدر ما هي مفاهيمية. وبدون بعض جهد، من أجل العدل، يمكن القول إنه لا يوجد ذلك الاختلاف الدقيق. لا يوجد شعور بالضوء أو الظلمة. الوحش، صارم ومميت، يسير بتثاقل عبر مسار وحشى يصنعه لنفسه. وإذا ما افتقد الضمير لا تكون لديه رؤية ذات معنى، لعالم مختلف سوى العالم الذى يكون هو فيه الأكثر تميزًا، بينما «الأعداء» في حالة إهانة دائمة، و«الشعب» في حالة جوع مميت. وهل في إمكاننا أن نتعلم شيئًا من مثل هذا الرجل؟ هذا السؤال هو «بيت القصيد»، الذى حاول المؤرخون - دائمًا - عدم مواجهته على مر العصور. ■

رغم ضخامة حجمه، تجنب كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» التعرض بجدية إلى عوامل أخرى معينة جعلت من القرن العشرين قرنًا بغيضًا لعشرات الملايين من الصينيين، بغض النظر عن كل ما فعله «ماو»



(*) نص المحادثة الهاتفية الوارد في «ماو: القصة غير المعروفة»:

Ye: إننى أشعر بقلق من احتمال أن يوقعك إصرارك، على إشباع رغباتك، في مأزق. أستطيع أن أقول لك إن حياتى ارتبطت بحياتك سياسيًا وشخصيًا. هل تعرف ما يفعله «١٥١» (الاسم الحركى للين بياو) في البيت. إننى أعيش معه حالة من الإيذاء الجسدى، وأقدر لك مشاعرك القيمة. بلادنا واسعة وبها مجال لمزيد من الأطفال. وكل طفل يستطيع أن يحظى بموقع رئيسي فيها.

Huang: نعم. معك كل الحق.

Ye: أريد أن أنجب منك خمسة أطفال، يصبحون خمسة جنرالات. كل جنرال منهم يتولى منصبًا رفيعًا. ويمكن أن يعملوا كمساعدين لك.

Huang: ياه. أنا ممتن جدًا لك.

Ye: لقد أخذت قياسه (إشارة جنسية)، فقد يفيدنى ذلك إذا ما أردت الخلاص «منه» (إشارة إلى جنين محتمل). لماذا لا تأتى لزيارتى مرة.. (صوت بكاء ونشيج).

Huang: سوف أحضر. سوف أحضر. لا تكونى هكذا. هذا يجعلنى أشعر بحزن شديد.

Ye: أمر آخر.. ليس من الواجب عليك أن تكون لى وحدى. يمكنك أن تفعل ما تشاء فلست ضيقة الأفق. وبإمكانك أن تحظى بعشيقات غيرى وتكون ساخنًا معهن. لا تقلق بشأنى.

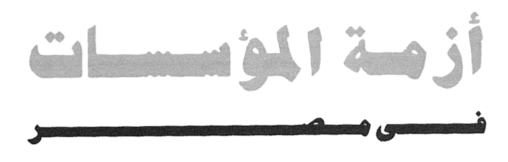
هوامش للمترجم

(١) نسبة إلى ابراهام لينكولن (١٨٠٩ - ١٨٦٥)، الرئيس الأمريكى السادس عشر، مؤسس الحزب الجمهورى، والذى اشتهر بعصاميته ورفض العبودية وتحرير الأمريكيين السادس عشر.

(٢) نسبة إلى فلاديمير لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) قائد الثورة البلشفية وأول رئيس للاتحاد السوفيتى بعد ثورة ١٩١٧.

أسباب تعثر الأداء التنموى فى العقود الثلاثة الأخيرة تكمن فى نوعية السياسات التنموية التى طبقت خلال تلك الفترة، وتخلف وتراجع أوضاع المؤسسات التى يتعامل أفراد المجتمع من خلالها





أحمد صقر عاشور

■■ خلال العقود الثلاثة الأخيرة، شهدت مصر تحولات كبرى فى نطاقها الاقتصادى والاجتماعى، وفى هيكلها الإنتاجى، وفى عدد سكانها، وفى البنية التحتية لمرافقها. فقد تحول اقتصادها من الاقتصاد الاشتراكى المخطط والموجه من الدولة إلى اقتصاد رأسمالى حر. وتحول هيكل الطبقات الاجتماعية فيها، فبرزت ونمت طبقة من أصحاب الأعمال والمستثمرين، قابلها هبوط نسبة أكبر من أفراد الطبقة الوسطى إلى الطبقة الدنيا. وأصبح بذلك هيكلها الطبقى يحوى قمة ضيقة نسبياً، وشريحة تتآكل باستمرار من الطبقة الوسطى، وقاعدة شديدة الاتساع من الطبقة الدنيا. وتحول هيكلها الإنتاجى والاقتصادى، فتضخم فيه القطاع الحكومى، وزاد نصيب التجارة والخدمات. وتحول جزء كبير من القطاعات الإنتاجية (الصناعة والزراعة والسياحة) فى اتجاه مزيد من الاعتماد على مستلزمات إنتاج من الخارج، دون أن يقابل هذا زيادة موازية أو أكبر فى التصدير. وقد تضاعف عدد سكان مصر بأكثر من مرة خلال تلك الفترة، لكن هذه الزيادة مثلت طاقات استهلاك بأكثر مما شكلت زيادة فى القدرات والطاقات الإنتاجية. وقد شهدت مصر خلال العقود الأخيرة أكبر توسع فى تاريخها المعاصر فى مرافقها العامة (المادية)، جاء نتيجة استثمارات كثيفة ضختها الدولة فى هذه المرافق. كما حدث توسع كبير فى التعليم فى كافة مراحله.

لكن المثير للاهتمام أن هذه التحولات الكبرى لم تنتج آثاراً تنموية كبرى، ولا حققت تحسناً تراكمياً منتظماً فى أحوال أغلبية المصريين، على النحو الذى حدث لبلدان كان وضعها مناظراً لمصر (وربما أسوأ) منذ ثلاثة عقود مثل كوريا الجنوبية وماليزيا. ويؤكد على هذا تعثر معدلات النمو فى متوسط الناتج القومى الإجمالى، وتراجع ترتيب مصر فى المؤشر العالمى للتنمية البشرية. كما يؤكده أيضا التفاوت الشديد والمتزايد فى توزيع الثروة والدخل، واتساع قاعدة الفقر، وارتفاع معدلات البطالة، وتواضع نصيب مصر من النمو فى الاستثمار الخارجى المباشر، والعجز شبه المزمن فى الميزان التجارى، وتفاقم حجم الدين العام الداخلى والخارجى. ويتواكب مع هذا مؤشرات سياسية واجتماعية مثل تراجع نسبة المشاركة السياسية، وزيادة مشاعر الإحباط التى تسيطر على قطاع كبير من الشباب، وتراجع الشعور بالانتماء والاعتزاز بالمواطنة لدى نسبة متزايدة من المصريين.

هناك لا شك أسباب لتعثر الأداء التنموى فى العقود الثلاثة الأخيرة تكمن فى نوعية السياسات التنموية التى طبقت خلال تلك الفترة، وتخلف وتراجع أوضاع المؤسسات التى يتعامل أفراد المجتمع من خلالها. بل إن نوعية السياسات التنموية وكفاءة تطبيقها تتوقف على المؤسسات التى تصاغ وتدار وتوجه وتتفاعل التنمية من خلالها. ومن الواضح أن تأخر وإرجاء وتردد وعدم اتساق أو توازن الإصلاح فى هذه الأوضاع والعوامل المؤسسية يمثل الشق الأكبر من أسباب ضعف وتعثر الأداء التنموى خلال تلك الفترة.

شواهد الأزمة

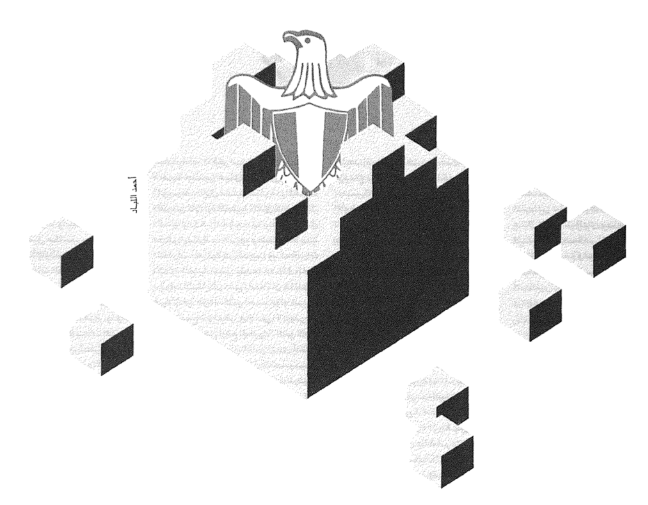
هناك شواهد عديدة للضعف المؤسسى أو الأزمة المؤسسية تتبدى فى مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر. وقد تزايدت وتكاثرت هذه الشواهد بصورة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الأخيرة. وفيما يلى تحليل لهذه الشواهد والمؤشرات:

أولا: تزايد حجم وكثافة التعاملات والمبادلات الاقتصادية التى تتم خارج الأطر المؤسسية الرسمية.

كثير من التعاملات والمبادلات تتم دون قواعد وآليات ضبط معينة، لتوفير الحماية المطلوبة للحقوق والالتزامات التى تتمخض عنها. ويمثل الحجم المتزايد للاقتصاد غير الرسمى الذى يقدره البنك الدولى فى تقرير أخير بحوالى ٣٥٪ من الاقتصاد الكلى فى مصر، أحد أهم شواهد تزايد خروج المعاملات الاقتصادية من نطاق الاقتصاد الرسمى الذى يعمل فى إطار المؤسسات الرسمية. وتعنى هذه الظاهرة تراجع الثقة فى الأطر القانونية والقضاء والجهاز الحكومى فى مجال التعاملات الاقتصادية.

ثانياً: انخفاض كفاءة المؤسسات

هناك تزايد فى معدلات الجريمة (بصرف النظر عما تسجله وترصده الأجهزة الرسمية)، وتزايد حالات الفساد الاقتصادى والإدارى والاعتداء على المال العام، وتزايد حالات الغش الجماعى والفردى للطلبة فى الامتحانات إلى الدرجة التى أصبحت معها محاولات الغش جزءا مستقرا من السلوك الطلابى خلال الامتحانات، وتزايد ظواهر التلاعب والغش فى مواصفات السلع والخدمات فى الأسواق، والتلاعب بقواعد ونتائج الاستفتاءات والانتخابات العامة، والانهيار فى جودة الخدمات التعليمية الذى يقترن بانتشار الدروس الخاصة، وشيوع عدم الالتزام بالقواعد المرورية من قبل قائدى السيارات، هى مجرد أمثلة لتراجع قدرة المؤسسات فى مختلف المجالات على تحقيق الضبط الاجتماعى، ولشيوع ثقافة عدم الاحترام أو الاعتداد (أو الالتزام الطوعى) بالضوابط المؤسسية القائمة. ولا يقتصر الأمر على تزايد حالات التجاوز وتراجع الضبط الاجتماعى بل يمتد إلى عجز



مزمن للقانون وأجهزة التنفيذ فى القضاء على ظواهر اجتماعية مرضية مثل عادات الثأر فى صعيد مصر. فالقانون والشرطة والقضاء تقف عاجزة لعقود طويلة أمام شيوع وتغلغل هذه الظاهرة لدى عائلات وعشائر صعيد مصر. وقد وصل ضعف هذه المؤسسات إلى الحد الذى نمت معه حالات انتهاك القانون، واغتصاب الحقوق، وكذلك حالات استقضاء الأفراد لحقوقهم المغتصبة بأيديهم مباشرة، لعدم الثقة فى جدوى اللجوء لمؤسسات الدولة.

ثالثاً: ضعف جدوى المؤسسات

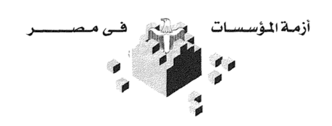
لا يتعلق هذا بالمؤسسات الحكومية والسياسية، بل يمتد ليشمل مختلف الأنظمة والمؤسسات الرسمية سواء كانت تابعة للدولة، أو تابعة للقطاع الخاص أو القطاع الأهلى. فلا شك أن دور الدولة فى إنفاذ القوانين قد أصابه وهن شديد، سواء كان ذلك راجعا لتراجع الثقة فى عدالة القوانين ومعقوليتها، أم كان نتيجة ضعف أجهزة التنفيذ. وتتبدى ذات الظاهرة فى تضاؤل وانحسار قاعدة المشاركة الجماهيرية فى العمل السياسى، وضيق القواعد الجماهيرية للأحزاب التى تكاثرت على الساحة دون أن يكون لأى منها وجود حقيقى فاعل أو مؤثر. وهناك تراجع خطير فى إقبال أفراد المجتمع على التعامل الرسمى فى مسائل تتطلب الرسمية بطبيعتها مثل بيع وشراء السيارات، والعقارات من خلال التسجيل فى جهاز الشهر العقارى. فكثير من عمليات بيع وشراء السيارات تتم بتوكيلات كبديل لنقل الملكية. وكثير من عمليات بيع وشراء العقارات تتم بعقود ابتدائية - غير مسجلة - تحاشيا للرسوم الباهظة للتسجيل وإجراءاته المعقدة. والكثير من عمليات البيع والشراء لكثير من المنشآت حتى بالنسبة لمؤسسات رسمية ضخمة مثل المؤسسات الصحفية القومية يتم بتعاملات نقدية مباشرة مع أفراد الجمهور لا تستخدم فيها وسائل الدفع الحديثة مثل الشيكات أو بطاقات الائتمان (مثل الإعلانات أو منافذ بيع الكتب والمطبوعات). هذا التراجع فى التعامل الرسمى، يقابله تواجد ذو كثافة عالية للمؤسسات الرسمية (وهو ما يمثل فى حد ذاته مفارقة)، مما يعنى تراجع الفاعلية والمردود الذى تحققه هذه المؤسسات.

رابعاً: التنافر والاغتراب

كثير من المبادئ مثل الحرية والديمقراطية وعدالة القانون ونزاهة القضاء وتكافؤ الفرص وغيرها من المبادئ والشعارات التى ترفعها الأجهزة والمؤسسات الرسمية للدولة، لا توجد قناعات حقيقية لدى جماهير المواطنين بها. فأغلب الناس ينظر إلى هذه المبادئ والشعارات باعتبارها واجهة معلنة، لا تقابلها ممارسات توفر لها المصداقية، ولا قناعات جماهيرية بحقيقة وجودها. فمبادئ تكافؤ الفرص والعدالة والأمانة والصدق التى تقوم عليها نظم الامتحانات التعليمية، يقابلها ثقافة لدى أعداد متزايدة من الطلاب وأولياء أمورهم تقوم على عكس هذه المثل والمبادئ والأمانة والشرف والمصداقية وخدمة العملاء وتجنب تعارض المصالح والوفاء بالوعود والعهود التى تتطلبها تعاملات السوق وتعلنها المؤسسات المتعاملة فى الأسواق (بورصة الأوراق المالية مثلا)، يقابلها فى الواقع الفعلى قيم تقوم على تبرير الوسائل بالغايات والانتهازية واقتناص الفرص والسعى المحموم للربح بكل الوسائل. وكذلك فإن بعض أجهزة الحكومة حين تعلن عن التزامها بالشفافية والمصداقية، لا تألو جهدا فى التلاعب بالإحصاءات والمؤشرات وفى التعتيم على حقيقة المشكلات والعقبات التى يعانى منها أداؤها خاصة والأداء التنموى عامة. ولم يعد لبيان الحكومة أو تصريحاتها خلال السنوات السبع الأخيرة، أو للمناقشات التى تجرى فى المجالس البرلمانية، صدى حقيقى لدى الجمهور، حيث يعيش الأخير فى دوائر وحلقات بينها وبين الخطاب الرسمى المعلن مسافات شاسعة.

خامساً: اختلال القواعد الحاكمة

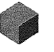
كثير من القواعد القانونية الحاكمة لتعاملات المجتمع بها ثغرات وجوانب نقص نتيجة ضعف عملية صناعة التشريع Law Making. وقد ظهرت هذه الجوانب بوضوح فى التعديلات التشريعية التى تمت خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فالتعديلات المتعاقبة التى أدخلت مثلا على قوانين الإيجار للعقارات المبنية خلال هذه الفترة أظهرت ثغرات فى كل تعديل وعكست عدم العدالة بين فئات ملاك العقارات القديمة، والحديثة إلى الدرجة التى أدت بالتضافر مع قصور سياسات الإسكان، إلى اقتصار الإيجار على العقارات المبنية حديثا، مع بقاء مستويات الإيجار القديمة على حالها، مما أدى إلى قصور الصيانة والتجديد للثروة العقارية القديمة رغم ما تحويه الكثير من مبانيها فى المناطق الحضرية من ملامح جمالية وتاريخية أصابها التشوه نتيجة الإهمال فى صيانتها والحفاظ عليها. وتحوى التعديلات التشريعية والقواعد المؤسسية والنظم المعمول بها، فرصاً واسعة للتكسب الريعى لبعض أفراد النخب ذوى النفوذ السياسى أو الإدارى والاقتصادى من خلال عمليات تخصيص الأراضى المملوكة للدولة، وتسعير العقارات المبنية بواسطة أجهزتها ومؤسساتها. بل إن بعض التعديلات فى القواعد الحاكمة لتشريعات



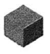
الجمارك والإعفاءات الضريبية أو تلك المنظمة للتعامل فى النقد الأجنبى وتشريعات الاستثمار، نتيجة لغياب الشفافية والمشاركة فيها. خلقت فرصا فريدة وفتحت أبوابا واسعة لنمو الفئات الساعية لتحقيق مكاسب ريعية Rent Seeking Group هائلة ودون جهد أو تكلفة أو تضحيات اللهم إلا من تكلفة استرضاء من يحتكرون المعلومة أو السلطة المتعلقة بالتعديل التشريعى أو السياسات والقواعد الحكومية. وتوجد نفس الظواهر فى تنظيمات القطاع الخاص. فالنخب المسيطرة على مجالس إدارات الغرف التجارية والاتحادات الصناعية تحظى نتيجة نفوذها واتصالاتها بمزايا تفضيلية تمكنها من تحقيق مكاسب ريعية من التعاملات مع الحكومة والبنوك. ونتيجة لهذه المعاملة التمييزية، صار شائعا لعدد متزايد من أعضاء المجلسين النيابيين، أن يحصلوا على حصص من هذه المزايا الريعية ليوزعوها بأنفسهم (مثل تراخيص الحج) أو ليستفيدوا هم مباشرة بها مثل الحصص السلعية، أو التخصيص العقارى لأراضى الدولة أو تراخيص المشروعات التى تتمتع بمزايا ضريبية. وبلغ الأمر مدى أفدح نتيجة تأثير المال على الانتخابات النيابية، بعد أن زاد عدد رجال الأعمال فى المجلس النيابى، وزاد معه تأثيرهم وتوجيههم للتشريعات التى يصدرها المجلس (حتى لا تتعارض مع مصالحهم) أو تلك التى لا يصدرها المجلس أو يتباطأ فى نظرها وإقرارها (مثل تشريع حماية المنافسة ومنع الاحتكار).

سادساً: شخصانية العمل المؤسسى

هناك شواهد وفيرة تؤكد أن تقاليد وممارسات المؤسسات فى مصر يتوقف على شخصية ونمط إدارة وقيادة الرئيس الأعلى للمؤسسة. فالسد العالى مثل نموذجا للإنجاز الرائع لأن من اختير لتولى مهمته فى الستينيات كان شخصية قيادية ذات قدرات تنظيمية فذة مثل المهندس صدقى سليمان. وإعادة بناء القوات الجوية من خلال نظام جديد ومنضبط لإعداد طلبة الطيران وإعادة بناء القوات الجوية جميعها بعد ذلك، اختير له فى نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات اللواء طيار محمد حسنى مبارك. والتحول الاستراتيجى فى مؤسسة الأهرام الصحفية خلال الستينيات والسبعينيات باجتذابها أعلام الفكر والأدب والفن تم لأن مفكرا وكاتبا صحفيا فذا ذا فكر استراتيجى من نوعية محمد حسنين هيكل كان على رأس هذه المؤسسة خلال تلك الفترة. والمعهد القومى للإدارة العليا الذى كان خلال الستينيات كيانا مؤسسيا واعدا يعمل بفكر استراتيجى ويوظف خلاصة الخبرات العالمية فى تدريب وبناء قدرات الإدارة العليا، حقق تقدما مذهلا خلال سنوات قليلة لأن على رأسه كان عالما فذا فى الإدارة هو الدكتور أحمد فؤاد شريف الذى جمع حوله فى مجلس الإدارة وفى المعهد نخبة من أرفع الخبرات التى كانت متاحة وقتها. ومركز الكلى الذى أنشئ فى جامعة المنصورة خلال الثمانينيات وتكون له رصيد وافر من الخبرات الرفيعة والإمكانيات غير المعتادة، حقق ذلك لأن رائده ومنشئه ومديره لسنوات ممتدة كان طبيبا وعالما ومديرا نابغة هو الدكتور محمد غنيم. لقد قامت جزر النجاح المؤسسى المشار إليها فى الأمثلة السابقة رغم البيئة المعاكسة والمقوضة للنجاح والإنجاز المحيطة بها، لأن أشخاصا يملكون قدرات فذه كانوا على رأس هذه المؤسسات. لكن أغلب هذه المؤسسات لا تلبث بعد غياب هذه القيادات أن تتراجع جذوة طموحها وحماسها وتتراخى أنظمتها ويتضخم كيانها ويتواضع إنجازها وتتحول إن بقيت إلى جهاز بيروقراطى يخدم من فيه أكثر مما يخدم المجتمع. المغزى المستخلص هنا أن النجاح المؤسسى محصلة لنوعية القيادة العليا التى تمسك بزمام السلطة والمبادرة على قمة المؤسسة. ونتيجة لأن النجاح الفائق والإبداع المؤسسى ظاهرة استثنائية لا يوجد ما يضمن استمرارها أو تجددها ذاتياً لأنه لا يوجد نظام لاختيار القيادات على أسس من الكفاءة والجدارة والقدرة على استنهاض قوى الإبداع المؤسسى وإدارة التغيير، فإن احتمالات النكوص أو الارتداد إلى الأوضاع المؤسسية المعتادة المريضة الشائعة التى يعج بها المجتمع تكون عالية بعد غياب أو خروج هذه القيادة. وليت الأمر يقتصر على ذلك. فهناك ظواهر عديدة تفسر تفشى الفساد فى الأجهزة الإدارية فى كل القطاعات، تتمثل فى شخصانية العمل المؤسسى. فالجمهور المتعامل مع المؤسسات لا ينظر للقواعد أو اللوائح أو السلطات التى يطبقها الموظف العام باعتبارها نظما موضوعية وإنما باعتبارها غنائم أو عطايا أو منحا يوزعها الموظف وفق أهوائه وأنه يتعلل بهذه القواعد واللوائح فقط عندما لا يريد منحها لشخص بعينه. وأغلبية أفراد الجمهور الذين يشيع بينهم الجهل والفقر والتخلف، يظنون أن الاستمالة الشخصية أو الوساطة وربما الرشوة وتبادل المنافع مع الموظف العام هى الوسيلة الناجعة فى أغلب الحالات للحصول على الخدمة وتنمية وتذليل عقبات القواعد واللوائح والنظم التى يتعلل بها الموظفون العامون. وكثيراً ما تكون هذه المدركات والقناعات نتاجا لخبرات فعلية استقاها أفراد الجمهور مباشرة أو من خلال مصادر غير مباشرة. ويعززها على الجانب الآخر، أن الموظف العام أو المسئول فى المؤسسة، ينظر إلى منصبه وسلطاته وصلاحياته باعتبارها لصيقة بشخصه، أكثر من كونها دوراً ووظيفة محكومة بأهداف (خدمة أفراد الجمهور) ومرتبطة بنظم وقواعد مؤسسية. وبحكم الخبرة كثيرا ما يكتشف الموظف أو المسئول أن هذه الصلاحيات والسلطات، مع غياب الحوافز والروادع على حسن استخدامها، يمكن أن تكون وسيلة للتكسب المادى أو التكسب المعنوى (من خلال المبالغة فى التعالى على أفراد الجمهور). لاحظ مثلا التعنت الذى يعامل به الفئات الدنيا من عساكر المرور أو الشرطة، الفئات المعدمة وشبه المعدمة من أفراد المجتمع، وسائقى سيارات الأجرة، والباعة الجائلين، كوسيلة لتأكيد تمايز المكانة بينهم وبين هؤلاء.

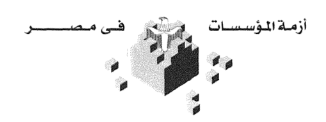


هناك شواهد وفيرة تؤكد أن تقاليد وممارسات المؤسسات فى مصر تتوقف على شخصية ونمط إدارة وقيادة الرئيس الأعلى للمؤسسة



سابعاً: فجوة بين المؤسسات والمجتمع

هناك شواهد عديدة على تراجع ثقة أفراد المجتمع وتجمعاته فى المؤسسات الرسمية. ومن هذه الشواهد ضعف الثقة فى التشريعات والقوانين والتجاء بعض الأفراد إلى اقتضاء حقوقهم مباشرة بأنفسهم، والشعور المتزايد بعدم جدوى الالتجاء للشرطة لطلب الحماية من تهديدات أو اعتداءات أو جرائم سرقة عادية، وعدم جدوى اللجوء للقضاء لفض منازعات تطول آماد البت فيها وقد تستهلك من الوقت والمال ما يمثل تكلفة إضافية لا قبل للأفراد بتحملها. ومن هذه الشواهد أيضا تراجع الثقة فى المعاملات بصورة عامة، وتضخم الحلقة الجهنمية للضمانات الرسمية المطلوبة فى كل معاملة وتعددها تعدداً مخيفا، نتيجة ضعف الثقة فى فاعلية أو قوة أو مصداقية أى منها. ولقد أدت الأزمة الاقتصادية الراهنة (التى امتدت الآن إلى ما يزيد على سبع سنوات) إلى تضخم واستفحال هذه الحلقة الجهنمية. فبعد أن تكشف للبنوك مثلا ضعف المصداقية والثقة لدى عدد كبير من كبار المقترضين، صارت الضمانات المطلوبة للقروض من كبار وصغار المقترضين تفترض أن جميع المتقدمين لطلب قروض «نصابين ومحتالين»، ينبغى التحوط الكامل لمواجهة نواياهم هذه بالتزيد فى توفير ضمانات مالية ومادية، واتخاذ إجراءات معقدة ومطولة لمنحهم القروض. لقد أوضح فرانسيس فوكوياما (Fukoyama, ١٩٩٧)، كيف أن تعاملات الاقتصاد الرأسمالى ونموه وازدهاره تعتمد على توافر أرضية الثقة بين أفراد المجتمع وبينه وبين مؤسساته. هناك إذن تراجع خطير فى عوامل الثقة فى المجتمع المصرى خلال العقود الثلاثة الأخيرة، لا مجال لبحث أسبابها فى هذه الدراسة، أدت إلى تعقيد التعاملات، وإلى إفراط فى التحوط، وزيادة كبيرة فى تكلفة المعاملات.



ثامناً: ارتفاع تكلفة المعاملات.

تتضافر العوامل السابقة جميعها في خلق مناخ يؤدي إلى تعقيد المعاملات والمبادلات، وزيادة العقبات التي تواجهها، وزيادة فرصة تعثرها، وازدياد الحاجة إلى توفير ضمانات لحماية حقوق الملكية وضمان الوفاء بالالتزامات. وتشير تقارير ودراسات البنك الدولي وكذلك الدراسات الصادرة عن المركز المصري للدراسات الاقتصادية، إلى أن الضعف والاختلالات المؤسسية التي تختص بتعاملات الأسواق وتشكل بيئة الاستثمار في مصر، تؤدي إلى ارتفاع تكلفة المعاملات Transaction Costs، ارتفاعا كفيلا بالقضاء على تفوق عناصر المزايا النسبية التي تتمتع بها مصر، وعلى إمكانية تنمية مزايا تنافسية تعتمد على التطوير وتركيم الخبرات وزيادة الكفاءات المحورية Core Competences. فهذه المزايا يلتهمها اضطرار المنشآت إلى تحمل أعباء كان يمكن أن تكون في غنى عنها لو أن البيئة المؤسسية كانت توفر حماية الحقوق والممتلكات، وتيسر دورة التقاضي، وتيسر التعامل مع الأجهزة الحكومية (التراخيص، الجمارك، الضرائب، وأجهزة الرقابة المختلفة)، وتوفر المعلومات، والخدمات الداعمة لنشاط الأعمال، وتوفر مصادر التمويل بتكلفة معقولة غير مبالغ فيها، وتوفر العمالة الماهرة الكفة المنضبطة، وتوفر الشفافية وتكافؤ الفرص، وتوفر الاستقرار التشريعي. وهذه العوامل وغيرها يشوبها الكثير من القصور، بما يعيق الاستفادة بالمزايا النسبية وتنمية قدرات ومزايا تنافسية. وهي معيقة لجذب وتنمية الاستثمارات المباشرة، ومعيقة لإمكانيات تنمية التصدير وتوسيع حصة مصر في التعامل مع الأسواق العالمية استيرادا أو تصديرا، حيث أنها ترفع تكلفة المعاملات لكليهما.

وتوضح المؤشرات المقارنة التي يحتويها الجدول التالي المستقى من دراسة حديثة للبنك الدولي (٢٠٠٣)، المدى الذي تمثله كثافة التنظيم والضبط اللائحي Regulations المؤسسي الصوري في مصر، والآثار العكسية التي تحدثها على تكلفة المعاملات وعلى تراجع الحافز لدى المنشآت للانضواء تحت الاقتصاد الرسمي، والاستثمار والتوسع والنمو، بالمقارنة مع مؤشرات المنطقة والدول المتقدمة في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) وأفضل المؤشرات العالمية.

ومن الجدول السابق يتضح أن الهوة بين مصر وأفضل الممارسات كبير للغاية. فوفق المسح الذي تم في ٢٠٠٣ في مصر (Stern, ٢٠٠٣) فإن عدد إجراءات تسجيل منشأة تبلغ ١٣ إجراء وتستغرق ٥٢ يوما بينما لا تزيد في أفضل الممارسات (كندا) عن ٢ إجراء ويومين، وهي تتم فيها إلكترونيا بالكامل (أي دون عناء الانتقال والتعامل المباشر مع الجهات الرسمية). وبينما تبلغ تكلفة تسجيل منشأة جديدة ما نسبته ٦١٪ من متوسط الدخل الفردي في مصر، فهي مجانية بالكامل في الدانمارك. ويقارب عدد الإجراءات والأيام لإنفاذ العقود ١٧ إجراء تستغرق ٢٠٢ يوم في مصر تلك المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وتلك الخاصة بدول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. لكن الملفت للنظر أن الرقم القياسي للتعقد البيروقراطي عبر الدول، الذي يعكس صعوبة تحقيق العدالة، وضعف القدرة على إنفاذ التعاقدات، وزيادة الفساد في المحاكم يعتبر عاليا نسبيا في مصر بالمقارنة بدول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وبالمقارنة بتونس التي تمثل أفضل الممارسات عالميا في هذا المجال. ومن المثير أن تبرز تونس وهي إحدى الدول العربية كأفضل الممارسات والمؤشرات عالمياً في مجال حل المنازعات وإنفاذ العقود، حيث لا تستغرق سوى ٧ أيام وعشرة إجراءات. ولدى مصر أكثر تشريعات العمل والتوظف والعلاقات الصناعية والنقابية جمودا، بما يفسر الحجم الكبير نسبيا للاقتصاد غير الرسمي فيها. لكن الكبر النسبي لحجم الاقتصاد غير الرسمي بالمقارنة بالدول الأخرى في المنطقة أو بالدول الصناعية المتقدمة، هو دالة لمجموعة عوامل مؤسسية ضاغطة ومنفرة لمنشآت ومشروعات القطاع الخاص، تتعلق بالبيئة المؤسسية عامة والسياسات والممارسات الضريبية وقوانين العمل خاصة.

جـــــذور الأزمـــــة

نتناول في هذا الجزء من الدراسة تحليلاً للعوامل والأسباب التي تمثل جذور الأزمة Root Causes. وتمثل هذه الجذور أو الأسباب العوامل الأعمق في البنية المؤسسية للمجتمع المصري وفي علاقته بهذه المؤسسات.

أولاً: علاقة الناس بالمؤسسات

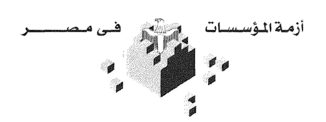
تلعب المؤسسات دوراً هاماً في ربط الناس ببعضهم البعض، وتيسير وتضافر جهودهم وتشكيل سلوكهم، باتجاه احترام القوانين والنظم والقواعد، والانضباط واحترام الوقت واحترام حقوق الغير. لكن المؤسسات لكي يكون لها هذه الآثار العميقة على حياة الناس لابد أن يكون لقواعدها وأنظمتها قبول عام ومشروعية وأن تتغلغل هذه المؤسسات في نواحي حياتهم المختلفة، وأن يكون لهذا التغلغل منفعة وعائداً يستشعرونه.

ويصبح الأمر مختلف تماماً إذا كانت المؤسسات بعيدة عن حياتهم أو إذا فقدت القبول والمشروعية لديهم، أو إذا كان الناتج الصافي للتعامل معها يمثل عبئاً وتكلفة عليهم. وتتمكن المؤسسات من فرض نظمها طواعية عندما تتيح هذه النظم إمكانيات وفرص معقولة للالتزام بالنظم دون تكبد تضحية أو مشقة عالية من قبل الأفراد.

لقد قطعت مصر شوطاً بعيدا خلال القرن العشرين في دمج المجتمع المصري داخل أطر من النظم والقوانين والتعاملات المنتظمة مع المؤسسات في مجالات التعليم والتعاملات الاقتصادية والعمل والتوظف وفي مجالات الاستهلاك وإشباع الحاجات. لكن التحولات التي أحدثها التطور المؤسسي تفاوتت حصيلتها من الضبط والانتظام من قطاع مؤسسي إلى آخر، حسب قدرة كل قطاع على توفير شروط القبول والمشروعية المشار إليها. ونجحت منظمات القطاع الاقتصادي الكبير نسبياً التي استخدمت نظم وأساليب متطورة في التعامل مع العاملين فيها ومع عملائها. لكن قطاع الدولة بمختلف عناصره لم ينجح إلا جزئياً في التغلغل إلى أعماق حياة المجتمع. ويرجع هذا إلى عجز هذا القطاع عن التغلغل في كثير من جوانب حياة الناس على النحو الذي يؤثر فيهم على أسس طوعيه وعميقة. ومازالت حياة قطاعات واسعة من المواطنين في الريف وفي المناطق الفقيرة في الحضر والمدن تقع خارج الأطر المؤسسية. فالمواطنين في هذه المناطق لا ينتظمون أو يشاركون في النظام السياسي سواء

المؤشر	مصر	متوسط دول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	دول منظمة OECD	الأفضل
عدد الإجراءات لتسجيل منشأة أعمال	١٣	١١	٧	٢ (كندا)
عدد الأيام لتسجيل منشأة أعمال	٥٢	٦٠	٣٣	٢ (كندا)
تكلفة تسجيل منشأة أعمال (كنسبة إلى متوسط الدخل للفرد)	٦١,٠	٦٢,٤	٩,١٠	صفر الدانمارك
عدد الأيام لإنفاذ التعاقدات	٢٠٢	٣٠٢	٢٠٥	٧ (تونس)
تكلفة إنفاذ التعاقدات (كنسبة إلى متوسط الدخل للفرد)	١٧	٢٣	١٦	١٠
الرقم القياسي للتعقيد البيروقراطي في المحاكم	٣,٧٩	٤,١١	٣,٠٨	٧٣,٠
الرقم القياسي لجمود Rigidity قوانين التوظف	١,٨١	١,٤٥	١,٣٥	٧٧,٠
الرقم القياسي لجمود قوانين العلاقات الصناعية والنقابية	١,٧٤	١,١٠	١,٢٤	٢٥,٠
نصيب الاقتصاد غير الرسمي من الناتج القومي الإجمالي (٪)	٣٥,١٠	٢٧,٤٨	١٧,٤٠	٨٠,٨

المصدر: دراسة البنك الدولي (٢٠٠٣) مشار إليها في (Stern, ٢٠٠٣)



بالمشاركة فى الانتخابات والاستفتاءات ولا فى العمل الحزبى. وهم نتيجة لما يمثله التعامل مع مؤسسات الدولة من أعباء لديهم، ولعدم ثقتهم فى هذه المؤسسات يتجنبون التعامل معها قدر استطاعتهم. وهم إن اضطروا للتعامل معها، فهم يتعاملون من خلال الوسطاء (نظرا لتفشى الأمية بينهم) لتسهيل معاملاتهم. ويلقى هؤلاء بحكم عجزهم وفقرهم وعدم وعيهم بحقوقهم معاملة من أجهزة الدولة وممثليها وموظفيها تقوم على التعنت والاستعلاء وأحياناً القهر والابتزاز. ويعزز هذا أن الخدمات التى تقدمها الدولة لهم فى مجالات التعليم والصحة وغيرها من المرافق هى الأردأ والأسوأ.

ثانياً: أوضاع الثقة الاجتماعية

تمثل الثقة فى العلاقات والتعاملات ركيزة أساسية لعمل المؤسسات بكافة أنواعها وأشكالها. ومن الخطأ تصور أن المؤسسات الرسمية يمكن أن تعوض ضعف الثقة فى مجتمع ما. فعمل المؤسسات الرسمية يستند إلى قاعدة من الثقة لا بد أن يتوافر حد أدنى منها لكى يمكن للمؤسسات أن تحقق فعالية. وتتمثل الثقة فى الاطمئنان من قبل الفرد إلى أن الآخرين، أو توقعه Expectation أنهم لن يقوموا بتصرف يترتب عليه ضرر له، بمبادرة أو بمباغتة من هؤلاء الآخرين، مقابل التصرف الإيجابى الذى قام به هذا الفرد تجاههم. وتزداد الثقة فى المجتمع عندما تكون معممة Generalized، أى عندما لا تقتصر على الآخرين من الأفراد الذين سبق التعامل معهم، أو على الأقرباء والمحيطين بالفرد فى الدوائر الاجتماعية القريبة من تعاملاته (الزملاء، الجيران، الأصدقاء). ويشمل التعميم الأفراد الغرباء. فالمجتمعات ذات الثقة الاجتماعية الأعلى، هى المجتمعات التى تمتد الثقة فيها إلى الغرباء. ويبرز السؤال هنا، لماذا يعتبر المجتمع المصرى فى أوضاعه الحالية، مجتمعا متدنى الثقة Low Trust Society، حيث لا يتعلق الأمر بانخفاض الثقة فى المؤسسات، وإنما بتدنيها فى العلاقات الاجتماعية الأولية (العلاقات العائلية، وعلاقات الجوار، والزمالة والصداقة)، وتجاه الغرباء. ويصدق هذا بصورة كبيرة، على مختلف شرائح المجتمع وتجمعاته، وإن اختلفت بعض التفاصيل. وبعبارة أبسط، ما هى أسباب ضعف الثقة فى المجتمع المصرى؟ وتفسر إجابة هذا السؤال - جزئيا - الصعوبات والعقبات التى تعترض عمل وفاعلية المؤسسات فى مصر.

يعود انخفاض الثقة إلى طبيعة حياة النسبة الغالبة من أفراد المجتمع المصرى وتجمعاته. فالمجتمع المصرى غالبيته التى كانت تقطن الريف وتعمل بالزراعة من الفلاحين المعدمين أو شبه المعدمين. ويعيش الفلاح وأسرته خلال العمل الذى يباشره فى الحقل، فى تجمعات تتكون من أفراد الأسرة المباشرين، يفصلها مسافات متباعدة بين الحقول. وقد اعتمدت نسبة كبيرة من حياة الفلاحين تاريخيا على الاكتفاء الذاتى، بما يعنى الانعزال النسبى عن الآخرين. وقد شكلت أوضاع الفقر الشديد والمزمن الذى عاشه أغلبية الفلاحين، والمصريين عامة، ظروفا اتسمت بمحدودية شديدة فى الموارد، وتنافسية عالية، وجهاد يومى لكسب الرزق، وقهرا من قبل الدولة وأعوانها المباشرين، وقهرا آخر من أصحاب الثروة أو الأرض أو السلطة. وفى وضع كهذا، تصبح فرص تحسين الحال شبه مستحيلة. ويصبح التنافس على الموارد والفرص الشحيحة المحدودة على أشده. وفى هذه الأوضاع تتوارى وتتضاءل علاقات التعاون والتضافر، ويحل محلها الشك والريبة فى تحركات وتصرفات ونوايا الآخرين. وبدلا من الثقة، يحل النفاق، والكذب، ومداراة الحقيقة، والتحايل، والخداع، والتخابث، بل وأحيانا التشفى فى الأضرار التى تصيب الآخرين والارتياح لها (على اعتبار أن عدم إصابة الفرد بها هو نوع من الفوز القدرى)، نمطا مستقرا من السلوك، وعادات حياتيه يتم توارثها من جيل لآخر. وحينما ينتقل الفلاحون إلى الحضر، ليستقروا فيه، هربا من شظف العيش فى الريف، فإنهم يواجهون ظروفا أشد ضراوة تستنفر كل الطاقات النفسية والاجتماعية التى تشكلت لديهم فى حياتهم الريفية، وتجعلهم ينقلون إلى تجمعاتهم فى العشوائيات، والمناطق شديدة الفقر فى الحضر ثقافتهم المشوبة بالشك والارتياب والتحايل والنفاق والخداع أى الثقافة متدنية الثقة. هناك أدلة ونتائج أدبيات بحثية عديدة فى العالم عن المجتمعات الفقيرة متدنية الثقة تتفق مع الأوضاع التاريخية والاجتماعية للمجتمع المصرى وأصوله الفلاحية المشار إليها. لكن التفسير التاريخى وحده ليس كافيا، لسبب بسيط أن هناك تغيرات اقتصادية واجتماعية فى المجتمع المصرى غيرت من نمط حياة الفلاح إلى اتجاه جعلته أكثر تنافسية وأكثر ارتيابا. وهناك استثناءات فى بعض المناطق الحضرية (الأحياء الشعبية فى المدن الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية) حيث لا زالت المجتمعات المحلية رغم طوفان التغيير الذى أصاب مصر خلال العقود الثلاثة الأخيرة، محتفظة بعناصر ثقة أكبر كثيرا من نظائرها فى بقية شرائح وتجمعات المجتمع، ولكنها تقع فى دائرة الأهل والجيران والأصدقاء، ولا تتعداها إلى الغرباء.

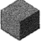
هناك أيضاً تغيرات عميقة وواسعة فى حياة المصريين بكافة طبقاتهم وفئاتهم، نتجت عن هيمنة الدولة والسلطة المركزية فيها خلال الخمسينيات والستينيات على مختلف جوانب الحياة فى المجتمع، على النحو الذى قلص أواصر التعامل خارج نطاق الدولة، وقلص أواصر الثقة الاجتماعية وعطل تطورها الطبيعى. وقد أصاب الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر زلزال كبير خلال العقود الثلاثة الأخيرة، نتيجة سياسات الانفتاح، والتضخم، والهجرة إلى دول الخليج، خلقت فجوة واسعة بين الإمكانيات والموارد والدخول الحقيقية (المتناقصة لقطاعات كبيرة من الطبقة المتوسطة والفقيرة فى مصر) وبين التطلعات المتزايدة وأنماط الاستهلاك المقتبسة عن مجتمعات أخرى. ونشأ نتاجا لذلك صراع محموم على الكسب المادى وعلى البقاء، وتحول الكثير من مفردات الحياة الاجتماعية إلى منتجات (أو خدمات) يتم شراؤها من الأسواق. وأدت هذه التغيرات إلى تآكل إضافى فى عناصر الثقة المتدنية أصلا فى بنية المجتمع المصرى، نتيجة شيوع الأنانية والفردية والانتهازية والتحايل وتراجع قيم التعاون والتكافل والتعفف والصدق والأمانة بدرجة ملحوظة فى الكثير من طبقات وشرائح المجتمع. وساهمت الطبقة الجديدة (الأثرياء الجدد) التى أصبح أفرادها يشكلون نماذج القدوة فى القيم والسلوك الانتهازى المادى فى التعجيل والإسراع بانهيار منظومة الثقة فى قطاعات واسعة من المجتمع المصرى.

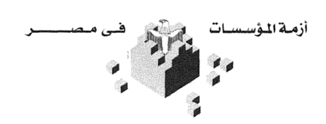
ثالثا: هيمنة الدولة

تعتبر حضارة المجتمع المصرى واستمراريته عبر آلاف السنين، مدينة لنظام الدولة المركزية القوية المهيمنة. ويعود ذلك إلى أن نشاط الزراعة المعتمد على الرى النهرى وهو المورد والنشاط الاقتصادى الأساسى للمجتمع المصرى، الذى أعتمد على ضبط النهر وإدارة موارد المياه من خلال إنشاء شبكات للرى والصرف وإقامة السدود، وحماية الأرض سنويا من الفيضان. وقد تطلب هذا كله قيام دولة مركزية قوية تستطيع فرض سطوتها على نهر النيل الذى يجرى فيها، وعلى المجتمع، وصد الغزوات وحماية مصر من المخاطر الخارجية. مصر كمجتمع هى نتاج تاريخى لنظام الزراعة وللشريان المائى المتمثل فى نهر النيل وللدولة المركزية. وتمثل هيمنة الدولة المركزية وتسلطها وفرض سيطرتها على المجتمع ظاهرة جغرافية وتاريخية، مرتبطة بنشاط الزراعة النهرية. وقد كان تأثير هذه الظاهرة من العمق والشمول تاريخيا على أوضاع المجتمع، حتى فى تاريخه المعاصر خلال القرنين الماضيين، إلى الدرجة التى صارت مركزية وهيمنة



يعتبر المجتمع المصرى مجتمعا متدنى الثقة، حيث لا يتعلق الأمر بانخفاض الثقة فى المؤسسات، وإنما بتدنيها فى العلاقات الاجتماعية الأولية (العلاقات العائلية، وعلاقات الجوار، والزمالة والصداقة)





الدولة جزءا من بنية المجتمع ذاته. ولم يبدأ التغيير خلال النصف الأول من القرن العشرين، باتجاه نشأة تجمعات ومؤسسات سياسية ونقابية وأهلية إلا بنمو طبقة من الرأسماليين وطبقة عاملة، وبزوغ نخب من المثقفين، خارج النطاق الزراعى التقليدى. لكن غلبة الزراعة على النشاط الاقتصادى جعل بعض النخب والمؤسسات السياسية البازغة مثل حزب الوفد يعتمد أساسا على ملاك الأراضى على التجمعات الريفية، فى مواجهة تحالف الدولة مع التجمعات أو النخب الأخرى. وجاءت ثورة ١٩٥٢، لتكرس مركزية الدولة وهيمنتها، ولتلغى التطور الذى كان قد بدأ فى التنظيمات السياسية، والنقابية، والمنظمات الأهلية، والشركات الخاصة الكبرى، المستقلة عن جهاز الدولة. وصار هناك توحد بين جهاز الدولة، والتنظيم السياسى الوحيد (هيئة التحرير، ثم الاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى) والتنظيمات النقابية والصحافة وأجهزة الإعلام. وتجمدت فى ظل هذا المبادرات السياسية والأهلية والاقتصادية المستقلة. وتأكدت للدولة صلاحيات وسلطات لم تكن تتمتع بها فى أى مرحلة من التاريخ القديم أو المعاصر. وبذلك تجمد التطوير الذى كان قد بدأ فى المجتمع المدنى فى مصر منذ قرن مضى. ونتاجا للإجراءات التى اتخذت من قبل نظام يوليو تجاه النظام الإقطاعى، والرأسمالية البازغة، وتجاه النظام الحزبى والنقابى الموروث من المرحلة السابقة، واحتكار الدولة للعمل السياسى والاقتصادى، كان من الطبيعى أن يكون للنظام الجديد أعداء كثيرون من النخب السياسية والاقتصادية والثقافية القديمة. وقد أمن النظام نفسه فى مواجهة هذه التجمعات والنخب، بأن أقام شبكات من الاستخبارات تعمل لصالحه تتغلغل داخل كل التجمعات والمؤسسات وجهازا أمنيا قويا، ليكونا معا نظاما للإنذار السياسى المبكر للحفاظ على أمن النظام الجديد والدولة المركزية. وتمركزت فى القاهرة العاصمة أصناف شتى من المؤسسات التابعة للدولة والعاملة فى نطاقها أو تحت وصايتها. كما تركزت فيها وحولها أغلبية الأنشطة الاقتصادية والصناعية الجديدة وتأكد وصف جمال حمدان للقاهرة أنها «رأس كاسح على جسم كسيح»، أكثر من أى وقت مضى.

وفى هذا المناخ العام يصبح العمل السياسى الموالى للدولة وللنظام الحاكم هو الوسيلة المؤكدة للصعود الاجتماعى والنفوذ وكذلك الثروة، وهو يقترن دوما بالنفاق والتملق والمداهنة. وكل هذه صور تحوى مشاعر عميقة من الشك والريبة لدى الجموع الغالبة من أفراد المجتمع. وتمثل سيطرة وهيمنة الدولة قوة كاسحة لإمكانية نشأة تنظيمات سياسية قوية لها جذور وقواعد جماهيرية، أو نشأة مجتمع مدنى قوى أو إمكانية نشأة مؤسسات تعتمد على تفاعل قوى السوق. لهذا لم يحدث تطور كبير على هيمنة الدولة حتى بعد إعلان سياسة الانفتاح الاقتصادى قبيل منتصف السبعينيات ولا تأثرت هذه الهيمنة بالسماح بنشأة الأحزاب السياسية بعد سنوات قليلة من إعلان هذه السياسة حيث ظلت الدولة ممسكة بخيوط الحوافز والتراخيص والمزايا، وكذلك الفرص المنتقاة التى تتيحها الدولة للمؤسسات الاقتصادية الخاصة. كما ظلت ممسكة كذلك بأدوات المنح والمنع للأحزاب السياسية والدور الإعلامية والصحفية التى تعمل خارج السيطرة المباشرة للدولة. كذلك لم تنته سياسة التحرر الاقتصادى التى تم تبنيها أواخر الثمانينيات وسياسة خصخصة المشروعات العامة التى تم تبنيها فى التسعينيات إلى تغيير نوعى أو جوهرى قد حدث فى علاقة الدولة بالمجتمع.

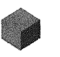
ورغم أن المجتمع المصرى لم يشهد فى تاريخه المعاصر ما شهده خلال العشرين سنة الأخيرة من حرية القول والتعبير والتفكير نتاجاً لروح التسامح التى تتمتع بها القيادة السياسية إلا أن هذا لم يؤثر فى مجمل هيمنة الدولة، وضعف المجتمع المدنى، وكذلك ضعف العمل السياسى الحزبى، حيث ظلت علاقة الدولة بالمجتمع تدور «بشكل إجمالى» فى ذات منظومة الهيمنة والسيطرة. وهناك بعض أوجه الشبه بين هشاشة المؤسسات الاقتصادية والتجمعات الحزبية ومؤسسات المجتمع المدنى فى السنوات القليلة التى أعقبت سقوط الأنظمة الاشتراكية والشمولية فى دول الاتحاد السوفيتى (بعد تفككه) وفى المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبعض جوانب الحالة المصرية. لكن أوضاع مصر بالجذور الجغرافية والتاريخية وهيمنة الدول تجعل خلخلة أو تقليص هذه الهيمنة مرهونا بتغيرات شاملة وعميقة فى هيكل الأنشطة الاقتصادية. تقلص من نشاط الزراعة التقليدى المرتبط بالوادى والتوظف فى جهاز الدولة ويفسح المجال لتوسع قطاعات الصناعة والخدمات. وقد بدأت هذه التحولات باستزراع الصحراء وإنشاء مدن ومناطق صناعية عديدة (وإن كانت لازالت تحت هيمنة جهاز مركزى هو هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة) منتشرة فى أرجاء القطر لكن على مقربة من مناطق التكدس السكانى فى الوادى. ويمكن القول إن إحداث تغيير جوهرى فى هذا المجال سيتطلب رؤية تنموية إستراتيجية بعيده النظر تعيد رسم الخريطة الاقتصادية وتعيد توزيع الكثافة السكانية والأنشطة الاقتصادية على نحو متوازن يمكن معه نقل سلطات تنموية وحرية حركة اجتماعية وسياسية لمناطق القطر.

رابعاً: النظام السياسى

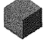
يرجع عزوف جماهير المواطنين فى مصر عن المشاركة السياسية، والحزبية إلى ظاهرة التمركز السياسى. فالأحزاب السياسية القائمة، نشأ أهمها بقرار فوقى مركزى من قبل الرئيس السادات. وما تكاثر منها على الساحة السياسية فيما بعد جاء، ليس نتيجة تراكم وتصاعد لتيار شعبى جماهيرى، وإنما بقرار إدارى من لجنة الأحزاب التى يسيطر عليها الحزب الحاكم. وتفتقر كل الأحزاب بما فى ذلك الحزب الحاكم إلى الانتشار والتغلغل فى تجمعات وقطاعات المجتمع وتكاد أنشطتها تتركز فى العاصمة، وبعض المدن والمناطق الحضارية الأخرى. وقد أدت الأساليب المستخدمة فى الدعاية والتصويت وفرز نتائج الانتخابات، عبر ما يزيد على ثلاثة عقود، ومنذ فترة التنظيم السياسى الواحد قبل ذلك، وما حوته من تحيز صارخ لأجهزة الدولة، واستخدام أساليب غير نزيهة والتلاعب بأصوات الناخبين وعدم توفير فرص متكافئة للأحزاب وللمرشحين فى الانتخابات، أدى هذا كله إلى فقدان المواطنين للثقة فى المؤسسات السياسية القائمة وفى جدوى المشاركة فى العمليات السياسية. وفى مجتمع تضطر فيه أجهزة الإدارة إلى استخدام الرموز المصورة (الهلال، الجمل، النخلة، المفتاح.... الخ) كبديل لكتابة أسماء المرشحين نظراً لاستمرار انتشار الأمية، ومع تزايد قناعة الناس بعدم جدوى المشاركة السياسية، يصعب تصور أن نظام كهذا قادر على توسيع رقعة المشاركة الديمقراطية، أو التأثير فى حياة الناس.

خامساً: الفقر وتوابعه

يمثل الفقر أحد الجذور العميقة للأزمة المؤسسية فى مصر فهو يسهم فى تهميش شرائح واسعة من المجتمع خارج نطاق النظم المؤسسية الرسمية، سواء فى الأسواق أو فى العمل السياسى والمشاركة السياسية، أو فى الاستفادة من الخدمات الحكومية. ويمثل الفقر المدقع حالة أشد ضراوة فى التهميش تقترن بحلقة مفرغة من العجز والتخلف الذى يؤدى إلى عدم القدرة على تنمية الدخل أو الادخار مما يؤدى إلى استمرار حالة العجز والتخلف، وهكذا. بل إن أوضاع الفقر المدقع لدى الأسر التى تعانى منه وفقدانها معنى الاستقرار والأمان يؤدى إلى تفكك هذه الأسر وإلى توريث الفقر والضياع والتخلف إلى الأبناء. ولأن أوضاع الطبقات الفقيرة على هذا النحو الذى يجعلها تعيش خارج نطاق المظلة المؤسسية للمجتمع، فهى تشكل فى مجملها مجتمعاً آخر غير هذا الذى تسن له القوانين وتتنافس على جذبه (فقط فى موسم



لم تنته سياسة التحرر الاقتصادى التى تم تبنيها أواخر الثمانينيات وسياسة خصخصة المشروعات العامة التى تم تبنيها فى التسعينيات إلى تغيير نوعى أو جوهرى فى علاقة الدولة بالمجتمع







يوسف الشريف

فى سوق «دراو»

عبر درب الأربعين الذى يصل مصر بالسودان على امتداد الصحراء الغربية نهضت بين الشعبين مصالح تاريخية ومبادلات تجارية وأواصر اجتماعية وصلات روحية وثقافية وكلها علاقات طبيعية يسودها الانسجام بعيدًا عن سياسات الأنظمة وتعاقب الحكام هنا وهناك.

فى بلدة «دراو» تحط قوافل الإبل رحالها بعد رحلتها الشاقة من السودان حيث تجد التجار بانتظارها لفحصها وتثمينها، وبعدها تجرى المساومات على شرائها. وقد زرت «دراو» ثلاث مرات، وهى تقع شمالى محافظة أسوان بنحو ٥٠ كيلو مترًا، وهناك كانت دهشتى للسمات والقواسم المشتركة بين المشتغلين بتجارة الإبل من الصعايدة المصريين والسودانيين: الملامح متشابهة والبشرة متدرجة السُّمرة واللهجات متباينة ومفهومة تكشف عن موطن صاحبها ومن أى مكان فى مصر أو شرقى السودان أو غربيه أو وسطه.. حتى الجلاليب والعمائم لا تكاد تميز السودانى عن المصرى!

لكن أنواع الجمال مختلفة وإن تشابهت على الغرباء والمتطفلين على السوق. والخبير المحنك هو وحده القادر على الفرز والتمييز: هذا جمل بشارى أو عبادى نسبة لقبائل البشارية والعبابدة، كريم الأصل وذو أنفة وكبرياء نحيف طويل القامة، سريع الخطو فى خيلاء.. وربما يصل ثمنه إلى ٥٠ ألفًا أو مائة ألف جنيه.



الانتخابات) الأحزاب السياسية. فهذا المجتمع لا يعنيه ما يجرى فى الساحة السياسية ولا ما يجرى فى الأسواق الرسمية أو ساحة الاستثمار والبنوك، لأنه لا يملك إلا قوت يومه. وهو غير معنى بما تبثه الصحف ونشرات الأخبار فى وسائل الإعلام. وتمثل هذه المجتمعات التى تعيش فى أفقر العشوائيات وعلى أطراف المدن والقرى الفقيرة والتى لا تعرف معنى الأمان الاقتصادى، ولا تعرف معنى الأمل (الكاذب) فى حياة أفضل إلا من خلال ما تنقله لها مسلسلات التليفزيون، تمثل بيئة صالحة لانتشار الجريمة والتطرف الدينى، وكذلك الإرهاب.

سادساً: فشل النظام القانونى

يمثل انتشار أو اتساع المعاملات الاقتصادية غير الرسمية بما فيها الملكيات العقارية وملكيات الأصول المادية، وعزوف أغلب الناس عن التعامل مع المؤسسات الاقتصادية الخدمية مثل البنوك نوعا من الفشل للنظام القانونى / المؤسسى فى مجال الاقتصاد. كما يمثل عزوف أغلب المواطنين عن المشاركة السياسية، وعدم اعتداد من يشاركون فى قلب حلبة العمل السياسى، بالقواعد القانونية القائمة (انتشار ظواهر التلاعب بنتائج الانتخابات، وتحيز أجهزة الدولة لصالح الحزب الحاكم، وعدم تكافؤ الفرص فى التنافس السياسى) فشلا للنظام القانونى فى المجال السياسى. كما يمثل التزايد الكبير فى النزاعات التجارية والمدنية، وتضخم عدد القضايا المعروضة على المحاكم، مؤشرا إضافيا على الفشل القانونى فى مجال النظام الاقتصادى الاجتماعى. وكذلك فإن تسيير الناس لشئونهم عامة بعيدا عن نطاق القواعد القانونية الرسمية، وباستقلال عنها، يعنى فشل النظام القانونى فى أن يوفر مظلة لتعاملات الناس، وفى أن يتغلغل فى مختلف جوانب حياتهم.

ليست المشكلة فى نقص القواعد القانونية، فمصر بها ثلاثة وستين ألف تشريع تنظم مختلف أوجه الحياة والتعامل والنشاط، وبها ما يزيد على إثنتى عشرة كلية للحقوق، تخرج سنويا عشرات الآلاف من الكوادر القانونية. وعلى العكس تماما، فالمشكلة الحقيقية تكمن فى الأثر السلبى للتضخم التشريعى (بما فى ذلك تضخم الكوادر القانونية) من ناحية، وفى المنهج أو الفلسفة التى يصنع ويدار بها ويوظف فيها القانون فى مصر من ناحية ثانية.

الإصلاح المؤسسى المنشود

يمثل تشخيص الأسباب والعوامل المؤسسية لركود التنمية نصف الطريق فى التعامل معها. لكن تجاوز الأزمة المؤسسية، ودفع المؤسسات لكى تقوم بدور داعم لتقدم وتطور المجتمع المصرى، فى مختلف جبهات حياته، يتطلب منهجا فى الإصلاح وإعادة البناء، يتسق مع عوامل القصور أو الأزمة، وأسبابها الجذرية، بحيث يوفر فرصة لإحداث تحولات مبدئية صحيحة، تمكن من استقاء الخبرة منها لتصويب مسار الإصلاح والتحول أو لتعزيزه، وتوسيع نطاق أو دائرة التغيير.

وينبغى التأكيد على أن الإصلاح المؤسسى المطلوب فى مصر، يستهدف فى النهاية تصويب غايات ومسارات التنمية، على نحو يعظم من إنجازاتها ونتائجها، ويوسع من قاعدة مشاركة واستفادة الطبقات المختلفة منها على نحو عادل. ويتحقق هذا بإعادة بناء المؤسسات الرسمية وغير الرسمية فى مختلف القطاعات لكى تنتظم من خلالها على نحو أكفأ وأفضل أنشطة وجهود الناس فى مختلف جوانب الحياة: فى الإنتاج والتبادل والحكم والمشاركة السياسية والعمل الاجتماعى. وهو يعنى إصلاح منظومة إدارة الحكم Governance فى المجتمع على نحو يوفر مشاركة فاعلة ومتوازنة للقوى المستفيدة من الإصلاح بكل فئاتها، وهى مختلف القوى المجتمعية والأطراف المعنية Stakeholders بالتقدم والتنمية بمختلف أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ■

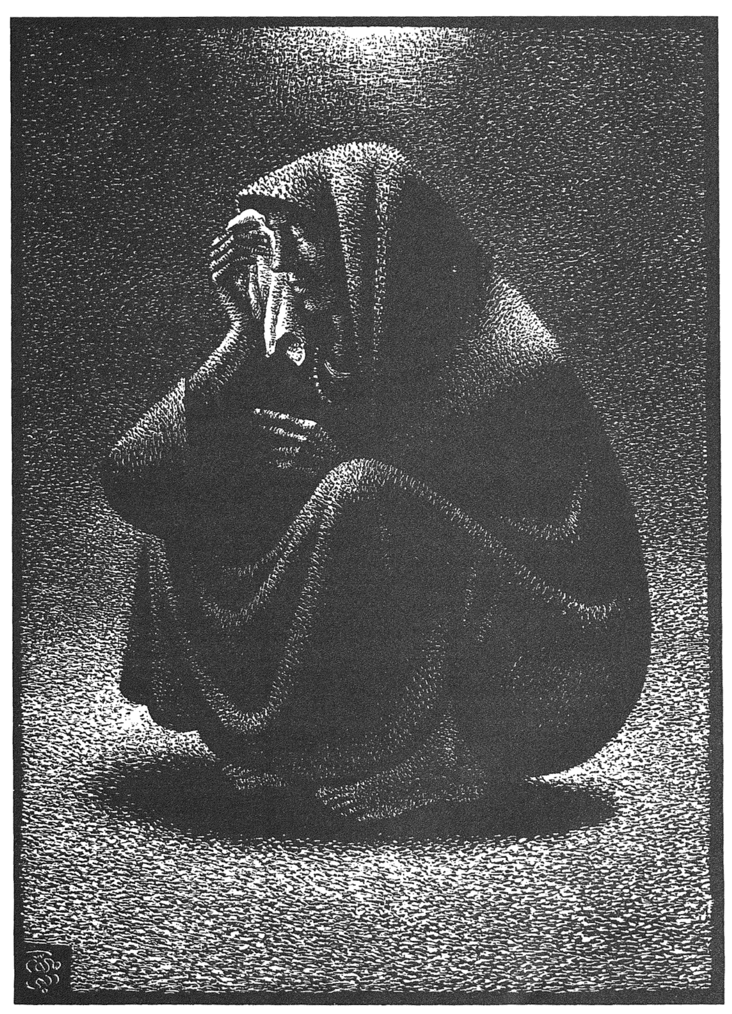
المراجع

Datta, Samar k. & Nugent, Jeffery B. (1986), " Adversary Activities and Per Capita Income Growth", World Development, Vol. 14, No. 12, pp. 1457-1462.

De Soto, Hernando (1997), Mystery of Capital , New York: Basic Book.

Fukoyama, Francis (1997), Trust, New York : Free Press

Stern, Nicholas. (2003)." Investment Climate: Lessons and Challenges", Distinguished Lecture Series 19, The Egyptian Center for Economic Studies, Egypt.



بين الفلسفة والطب والنقد الأدبى، تجمع هذه الدراسة التى تنشرها «وجهات نظر» فى حلقتين. والتى تضع الإبداع الأدبى فى مكانه الحقيقى مؤكدة على أنه قد يكون مسموحا بأن تواكب المعرفة معرفة أخرى من منظومة أخرى تدعمها أو تعارضها أو تجادلها. ولكن أن تقف منظومة معرفية وحيدة على منظومة أخرى تقيسها بأدوات من خارجها «فهذا اختزال غير مقبول».

وفى حين لا يدعو هذا المقال إلى حل قد يبدو (بالمخالفة) بديلاً عن الطب المعاصر، يشير إلى معنى آخر. قد لا يكون من الحكمة إغفاله. لما يسمى «الصحة». مؤكدًا أن الطب الرسمى إذ ينكر أهمية استعادة الهارمونى بين مستويات التوازن الداخلى المتصل بالتوازن الخارجى، إنما يفوت على نفسه فرصًا ليست هينة مهما بدت له غامضة. محذرًا من أن أفكار الطبيب المعاصر لدور الطبيعة فى استعادة الهارمونى هو الذى يخلق ما يسمى «الطب البديل» بخيره وشره، ثم إن التمادى فى هذه الأفكار هو الذى جعل الخرافة تصبح هى الغالبة والأكثر ضررًا.

حين نقرأ هذا المقال نتذكر كيف أن الزيت (حين انفصل عن النور) فى «قنديل أم هاشم»، لم يأت بعلاج مطلوب. وأصبح خرافة مضللة بعد أن انقلب نشازًا عن سياقه مثلما هى النيازك الساقطة نافرة عن الإيقاع الحيوى الكونى بهارمونيته السحرية.

المحرر



نيازك الخرافة.. والإيقاع الحيوى

بحثا عن الهارمونى

يحيى الرخاوى

■■ **حين يواجه ناقد ما، له منظومته الأيديولوجية، ومرجعيته العلمية، وأرضيته المعرفيه، ما يقدمه مبدع جيد جاد من رؤية تخالف ما ثبت لدى هذا الناقد «بالضرورة» (علما، أو تاريخا، أو أيديولوجية، أو حتى دينا)، أين يضعها؟ هل يحكم عليها بالصحة والخطأ؟ هل يقيسها بمقاييس ما وصل إليه من علم حتى لو كان متخصصا فيه بجوار اهتماماته النقدية؟ هل يضمها إلى نوع من الخيال البعيد، ومن ثم غير القابل للقياس بمحكات الواقع ومعطياته الحالية؟ هل يستلهمها بدهشة مسئولة باعتبارها مصدرا مختلفا للمعرفة، فيضع لقراءتها ما يلوح له من فروض جديدة محتملة، تتحقق أو لا تتحقق بإضافة من مبدعين آخرين، أو من مصادر أخرى للمعرفة: آنية، أو آتية؟**

متى كان المبدع مبدعا، فعلينا أن ننحنى لما أبدع، لا أقول نستسلم له، ولكن نحترمه، ونشتغل فيه بما هو، لكى لا نحكم عليه من خارجه. لعل هذا هو ما دعانى إلى رفض، أو على الأقل التحذير من أغلب مناهج النقد النفسية، وخاصة منهج التحليل النفسى التقليدى. (فصول ١٩٨٣) مسموح بأن تواكب المعرفة معرفة أخرى من منظومة أخرى تدعم بعضها بعضاً، أو تعارض بعضها بعضا، لعلها تجادل بعضها بعضا، لكن أن تقف منظومة معرفية، مهما كان إحكامها أو رواجها، وصية على منظومة أخرى تقيسها بأدوات من خارجها، فهذا اختزال غير مقبول.

حين قرأت لحس العتب لخيرى شلبى، وعشت جزئية التداوى الفاشل القاتل بلحس قاذورات ما تبقى من أحذية الداخلين إلى مقامات الأولياء فى مركز دسوق، جزعت، وحين مات خالد (الأخ الأصغر) نتيجة لذلك حزنت، لكننى اطمأننت للرسالة التى وصلتنى، ثم فوجئت أن شقيقه (فخرى: الراوى) المصاب بنفس المرض تقريبا قد شفى تماما، وبسرعة غير متوقعة، من وصفة أخرى لضاربة ودع أشارت على أمه ببعض الطقوس والرقى، شفى إذ تجرع من الحياة الخميرة النابتة فى الخل التى تلقت قطر الندى، على نغمات الإيقاع الحيوى الكونى المنتظم. فوضعتُ ما حدث بين قوسين. لم أرفضه برغم مخالفته لأبسط قواعد الطب، ولم أضعه فى نفس موضع لحس العتب باعتبارهما تطبيبا شعبيا معاً، بل رحت أحاول أن أفهم حدس هذا المبدع الذى جعلهما عكس بعضهما تماماً. فطفقت أقرأ المرة تلو الأخرى دون حل قريب.

يبدو أن هذه الجزئية من الرواية، هى التى ذكرتنى برواية يحيى حقى الشهيرة: قنديل أم هاشم، لم تسعفنى الذاكرة بالتفاصيل، فرجعت للرواية، فحضرنى بوضوح غامض أن قطر العين المريضة بزيت القنديل قد فشل حتى قاربت فاطمة العمى، وأن استعمال جزئيات العلم حتى الوارد منها من «بلاد بره» قد فشل أيضا وأوصل الحالة إلى نفس المصير. لكنَّ تصالُحا ما قد تم أخيرا بين إيقاع وعى المعالج والمريضة والكون فى لحن متكامل، جعل تلقى المريضة لما سبق فشله، ينجح، وبلا دهشة (أنظر بعد)

لم أجد تفسيرا علميا لما حدث هنا وهناك. رفضت التفسير بالإيحاء السطحى، كما لم أقبل تلفيقا مختزلا يصفق لشعار يجمع لفظى «العلم والإيمان» معا، بشكل شعرت معه بالاستسهال حتى خشيت أن يصل هذا الكلام إلى المتلقى بتلفيق مصطنع لم تقصده الرواية. على الناقد وهو ينفى هذا التلفيق الذى لم يرد فى النص أن يثبت عكس ذلك أو غير ذلك، الرفض هنا للتسطيح والتلفيق أو حتى للتسوية، لكنه لا يشمل رفض أى جدل حيوى محتمل. فهى دعوة غامضة مثيرة: أن نعيد النظر فى مفهوم أعمق لما هو علم وما هو إيمان وما هو طب وما هو خرافة. وهذا ما تحاوله هذه المداخلة.

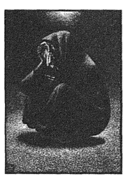
أثناء مراجعتى لقنديل أم هاشم[1]، وكنت متحفظا على ما شاع عنها، وبالذات على ما وصلنى من الفيلم بنفس الاسم، (قبل أن اشاهده) فوجئت بمنظر تم حذفه فى الفيلم وربما أغفل فى كثير من النقد، ولقد تبينت أننى لم أنتبه إليه من قبل بالقدر الكافى: منظر إسماعيل، (الدكتور

إسماعيل فى نهاية الرواية) وهو كائن ضخم الجثة، أكرش، مدمن للتدخين وربما للنساء الجميلات، مصدور، يستعمل امرأته، بأقل احترام، فيُنسلها ما شاء من نسل دون حساب (وربما دون مسئولية)، وفى نفس الوقت يعالج الفقراء بقروش، فى مكان قذر، ويشفون. تساءلت: ما علاقة هذه النهاية (أقل من صفحتين قطع صغير) بكل ما جاء فى الرواية من صراع بين العلم والمعتقدات الشعبية؟ بين الغرب والشرق؟ بين الشمال والجنوب؟ بين الانتماء والخلع؟. تأكدت أن وقفة أمام هذه النهاية التى حذفتها السينما، وربما تجاوزها أغلب النقاد، هى ضرورية لإعادة النظر فى النقد المتاح، ثم تأكدت أن قراءة حالة إسماعيل كنص بشرى نقدا، قد تكون لازمة لتفسير بعض أبعاد الصورة الكاملة دون الغاء صفحتى النهاية فأجلت ذلك لأتناوله فى دراسة لاحقة مكتفيا أن أركز فى هذه الأطروحة على مستويين نقيضين للتطبيب الشعبى.

لحس العتب مقابل

حدس الإيقاع الحيوى

بالعودة إلى رواية لحس العتب لخيرى شلبى (٢) نتذكر كيف تسربت الحياة من أسرة طفلنا الراوى على أكثر من مستوى، المال تسرب بخيبة الوالد التجارية، ولم تنفعه أحلامه حالة كونه جالسا ينتظر عكس ما يجرى أمامه واقعا، هذه الأحلام كانت محل نقد أو رفض أو سخرية هامسة أو معلنة من معظم رواد المندرة، سواء وهم جلوس يتغامزون، أو بعد الانصراف، ويبدو أن بعد الوالد عن الواقع اضطره أن يفرض خياله الأمل بقسوة جازمة، وربما هذا هو ما وصل للأولاد كنوع من القسوة حتى رفضوه: «...لقد كان يساورنا الشك فى أن يكون أبى- هذا الجلف الخشن الغليظ الصوت والرقبة - كان ذات يوم من الأيام ابن عز» (ص٧). المسألة لم تعد تدور حول ما إذا كان رب الأسرة ابن عز أم ابن فقر، بقدر ما أنها تعلن أن هذه الأسرة لم يعد يربطها تاريخ أو أمل. وحين أعلن المرض حلوله فى فخرى وأخيه بهذه الصورة التى تنبعج فيها البطن ويذوى الجسم، كان ذلك بمثابة الإعلان الأقسى لتسرب الأشياء والحياة. كل شىء يتسرب إلا الترابيزة التى أعلن الراوى إحياءها لتقاوم حتى النهاية، لم يستطع أى من الولدين أن يقاوم المرض مقاومة الترابيزة للإزاحة، تراجعا أمام ضربات المرض



الملاحقة. الترابيزة فعلت العكس، إذ ظلت تمتنع أن تضحى بوجودها فى سبيل توفير نفقات علاجهم، المرض الخطير المتسحب بهذه الصورة كان بمثابة إعلان هزيمة الحياة تدريجيا وباضطراد.

لم ينفع التطبيب الاجتهادى العشوائى، ولم تتيسر مصاريف علاج الطب التقليدى، فما العمل؟

هنا، كما فى القنديل، مستويان من التطبيب الشعبى، الأول فيه من التفسخ والاغتراب ما تجسد فى قذارة منفصلة متجمدة لفضلات بشرية ساقطة كنيازك بشعة متنافرة عفنة، فالعتب الذى لحسه الطفلان لم يكن له علاقة لا بالأولياء الذى هو على بابهم، ولا بالطبيعة المحيطة النابضة ذات الإيقاع الحيوى، وحين أُفرغ العتب (بالمسح قبل اللحس) مما عليه من قاذورات أصبح خاويا حتى من قذائفة الشاردة المتنافرة. تبين الشيخ على بقوس (الشيخ كعبلها)، وهو الذى أشار على الأم بالوصفة ابتداء، تبين هذا الخطأ الذى حدث نتيجة مسح العتب وتنظيفه قبل اللحس، وأفتى بأن ذلك هو الذى جرح شعور ولى الله، فصحح الوضع ونصح الأم أن يكون اللحس دون غسيل، ففعلت، ولحس الطفلان بقايا وشظايا ونتن القذارة والعفن: انغرست بقايا التفسخ البشرى كأنها النيازك

الساقطة نافرة من لحن الحياة، انغرست فى قلب الأخ الأصغر (خالد) فقضت عليه فى ليلته. فشلت محاولة الاستعانة بالأولياء لأنهم لم يكونوا هناك أصلا فى وعى طالب عونهم. حلت محلهم بقايا قاذورات أحذية ونعال وأقدام الداخلين إلى المقام، كان التبرك ببقايا نشاز قذرة منفصلة متفسخة وثنية، فهى الخرافة القاتلة.

البديل التقليدى بعد هزيمة الحياة فى الأخ الأصغر «خالد»، كان زيارة الطبيب فى البندر لعله ينقذ ما تبقى أو من تبقى، لكن الإمكانيات لم تسمح إلا بزيارة واحدة للدكتور ألبير فهمى فى بندر دسوق حين أمكن توفير أجرة السفر والكشف من بيع نحاس الأم المرة تلو الأخرى، فأمكن توفير قيمة الكشف ومصاريف السفر، لكن المبلغ لم يغطِ ثمن الدواء، كذلك لم تنفع استضافة الجدة الصبية وزوجها الفحل للطفل المريض إلا بقدر ما أتاحت استشارة عابرة لمستشفى حكومى ثبت أنها كانت مثل قلتها، ثم سرعان ما تخلصت الجدة وزوجها من الطفل الدخيل الذى كاد يفسد عليهما شغل الليل الصاخب.

فى قنديل أم هاشم لم ينفع الزيت كجسم متعين غريب عن الوعى والإيقاع، كما لم تنفع المعلومة العلمية الجزئية المنفصلة هى أيضا كجسم غريب، لكن

الذى يبدو أنه نفع هو التصالح مع أنغام الوعى البشرى ضمن لحن النغم الأكبر للإيقاع الحيوى مستعملين كل آلات عزف التوازن معا: علماً، وإخلاصاً، ومشاركةً وعيٍ لوعى، تحت مظلة وعى ممتد أكبر.

فى لحس العتب: ضاربة الودع قدمت بحدسها الفطرى حلا آخر له معالم أخرى، هو الذى نجح إذ تميز بشكلٍ ما بمواكبة الإيقاع الحيوى وصلًا بين الوعى البشرى والوعى الكونى (الإيمانى) الممتد، وذلك كما ذكرنا: سواء من خلال الخميرة - فى الخل- المخلِّقة للحياة، أو من مواكبة الإيقاع اليومى، فى مجال ثلاثة أذانات: المغرب والعشاء حتى الفجر، ثم مواكبة ظهور القمر أول كل شهر لثلاثة أيام، كل ذلك ليس شافيا بذاته، لكنه قد يحمل حدسا شعبيا يقول بأن الحياة التى تسربت بالانفصال والاغتراب والتفسخ والقذارة يمكن أن تعود بالاتساق والهارمونى والصحوة التوازنية فى حضن الطبيعة.

الفرق بين لحس العتب، وبين التناغم مع الطبيعة فى مواكبة الإيقاع الحيوى (الإيمانى: العارف هو الله- شفاه على الله وعلىَّ - ص٦٤)، هو الفرق بين نشاز الخرافة والتناغم مع لحن الطبيعة الممتد. ضاربة الودع ليست عمياء البصيرة، ولا هى صاحبة حسم اغترابى، هى قد تكون مجرد وسيط فطرى يستوعب إيقاع الكون، وإيقاع البشر فى آن، فينصحنا كيف يصحح النشاز بالعودة إلى التكامل مع اللحن الأساسى الممتد.

وعى هذا الحدس الفطرى قد يكون قادرا على أن يلتقط النغمة النشاز مثل أى أذن من التى نسميها «الأذن الموسيقية» التى تلتقط أى نغمة نشاز تتداخل فى لحن تعرفه جيدا: ربما هكذا تبين لفطرة ضاربة الودع كيف تتسرب الحياة من الآلة المنفردة (فخرى) حين انفصلت - لأى سبب كان - عن اللحن الأساسى، (المرض) فأشارت ضاربة الودع بما أشارت به مما يمكن أن يسهل طريق التصالح بين إيقاع وإيقاع، فى لحنٍ ممتد أكبر. ربما يكون مثل هذا التصالح المحتمل قادراً على أن يساهم فى إعادة التوازن حتى التغلب على أمراض عضوية فعلا وليس فقط أمراضاً نفسية وظيفية، إن ذلك لا يعنى أن يكون هذا الحل بديلا عن الطب المعاصر، وإنما هو يشير إلى بعد آخر لما يسمى «الصحة».

قلنا فى المقدمة، نحن لا نستطيع أن ننكر حدس المبدع لمجرد أنه يخالف معلومات جزئية فيما وصل إلينا من طب وتطبيب، إن الطب الرسمى إذ ينكر أهمية



كل ذلك ليس شافيا بذاته، لكنه قد يحمل حدسا شعبيا يقول بأن الحياة التى تسربت بالانفصال والاغتراب والتفسخ والقذارة يمكن أن تعود بالاتساق والهارمونى والصحوة التوازنية فى حضن الطبيعة



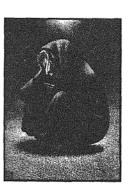

استعادة الهارمونى بين مستويات التوازن الداخلى المتصل بالتوازن الخارجى، إنما يفوت على نفسه فرصا ليست هينة مهما بدت غامضة له فى الوقت الحالى. المفروض أن الطبيب الحقيقى هو وسيط حقيقى لاستعادة التناغم الإيقاعى الحيوى المنطلق = الصحة. المطلوب هو أن يستعمل الطبيب كل وسائله العلمية التى تساعد على استعادة هذا التوازن (بعد التخلص من أسبابه إن وجدت)، لكن ليس هذا هو الحادث فى عالم الطب الحديث، فالاعتماد كله أو أغلبه هو على الأدوات والفحوص والمضادات والتسكين، إن إنكار الطبيب المعاصر لدور الطبيعة فى استعادة الهارمونى هو الذى يخلق ما يسمى «الطب البديل» بخيره وشره، ثم إن التمادى فى هذا الإنكار هو الذى جعل الخرافة تصبح هى الغالبة والأكثر ضررا.

عودة الحياة إلى الطفل فخرى، من خلال احتمال استعادة التوازن مع بقية دوائرها، صاحبها حادث الاضطرار للتخلص من الترابيزة بعد أن انهزمت تحت سقوط السقف فوقها حتى تهشمت. كأن انهيار السقف على الترابيزة هكذا هو إعلان إمكان كسر الجمود حولها، بعد أن أصبحت لا تمثل الحياة، لقد بدا بمثابة «إعدام العدم» الذى أصبحت تمثله الترابيزة بعد أن كانت تمثل الحياة. إن تسليم الوالد بنزوحها كما انزاح الملك فاروق هو اعتراف بأن عز الحياة لا يعود لمجرد تمسكنا برموزه القديمة، وإنما هو يتخلق من جديد إذا تصالحنا مع أنغام الحياة المتجددة الممتدة القادرة على استعادة التوازن بين دوائر الوعى ودوائر الكون.

هذا عن الخطوط العريضة للمرض/التسرب/ النشاز/ التوقف،

فى مقابل التناغم/ التوازن/ التجدد/البعث،

مجرد فرض، وفى هذا إعلان أيضا عن التناقض بين التسليم النشازى المتطاير، فى مقابل استعادة مواكبة الطبيعة بيقين جديد (وليس بإيحاء مسطح)، ثم لعله تنبيه إلى موقع الطب الميكنى الحديث الذى ينبغى أن يعود ليحترم إمكانيات المريض إذ يطلب النصح، وأن ينصت إلى البدائل من واقع الحال، ويميز منها ما يعاونه، فلا يعمم الرفض ويعتبر أن كل ما ليس فى نطاق معلوماته، هو خرافة محض وفى نفس الوقت عليه ألا يقزّم دوره حين تصبح عطاياه الجزئية منفصلة عن «تناغم الوعى الفردى فى الطبيعة»: أصل ما يمكن أن يسمى «صحة».



الإيقاع الحيوى: نور على نور

حين حضرت لى رواية قنديل أم هاشم فارضة نفسها فرضا وأنا أقرأ لحس العتب لم أستطع أن أتبين معنى ذلك بدرجة جاهزة من البداية؟ تقارب زمن الروايتين ليس كافيا، كما أن ممارسة التطبيب الشعبى (بشقيه السلبى والإيجابى) ليس متوازيا بما يسمح بالمقارنة، إلا أن نظرة لاحقة جعلتنى أربط بين هذه الممارسات النقيضية فى كلا العملين، بما قد يضيف إلى الفروض المطروحة بعض الانارة.

ليس الزيت، لكنه النور

من البداية والشيخ درديرى ينبهنا أنه «يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان» (ص ٧٢)، فلا بصر مع فقد البصيرة، ومن لم يُشف فليس لهوان الزيت بل لأن أم هاشم لم يسعها بعد أن تشمله برضاها، أم هاشم كما وردت فى الرواية، وفى وعى غالب فى الشعب المصرى، لها حضور حيوى نابض. هى ليست مجرد فكرة إيحائية. حين استنقذت نعيمة بأم هاشم طالبة التوبة، شك إسماعيل أنها (السيدة زينب) بادلتها القبلة تعبيرا عن قبول شفاعتها «.. ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة» (ص٨٠).

القنديل لم يكن أبدا «فانوسا» يضىء مساحة محدودة بجدران فحسب، هكذا أوضح الأمر الشيخ درديرى منذ البداية (ص٦٦) قال: «هيهات للجدران أن تحجب نوره». ثم يمضى الوصف بحيث لا يدع مجالا للشك أنه ليس قنديلا: «...وانتبه (إسماعيل) لوصف الشيخ».. هذا القنديل الصغير.. يكاد لا يشع له ضوء، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار، إننى ساعتها لا أطيق أرفع عينى إليه «ثم يردف الشيخ درديرى وهو يشير بإصبعه إلى القنديل: وسنان كالعين المطمئنة رأت، وأدركت، واستقرت، يضفو ضوؤه الخافت على المقام كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها، ومضات الذبالة خفقات قلبها حنانا او وقفات تسبيحها همسا. يطفو (القنديل) فوق المقام كالحارس مبتعدا تبجيلا، أما السلسلة فوهم وتعلة. كل نور يفيد اصطداما بين ظلام يجثم، وضوء يدافع، إلا هذا القنديل، فإنه يضيئ بغير صراع! لا شرق هنا ولاغرب، ما النهار هنا ولا الليل، لا أمس ولا غد»، «وانتفض إسماعيل، لا يدرى ما هذا الذى مس قلبه»! (ص ٧٤)



وعى هذا الحدس الفطرى قد يكون قادرا على أن يلتقط النغمة النشاز مثل أى أذن من التى نسميها «الأذن الموسيقية» التى تلتقط أى نغمة نشاز تتداخل فى لحن تعرفه جيدا



نور القنديل يحضر كائنا يَرى، يُدرك، ويُرضع ويحنو من البداية (ص ٦٦) حتى قرب النهاية (١٧) «.. ورفع إسماعيل بصره، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين المطمئنة رأت، وأدركت، واستقرت، خيل إليه أن القنديل وهو يضىء إليه ويبتسم (لاحظ تكرار نفس الألفاظ رأت، وأدركت، واستقرت!! (ص٧٤).

هذه القصيدة تفرق بين النور الحانى، وبين الضوء المقتحم، وتجعل الواقع السلسلة التى تحمل القنديل (ص ٧٤) هو الوهم (أما السلسلة فوهم وتعلّه). حين يصل الأمر إلى الإشارة، ولو دون قصد، إلى القنديل وكأنه يستمد نوره من زيت شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، حيث لا نهار ولا ليل، حيث السرمدية الحانية، فنحن أمام قبس يرمز إلى، إن لم يعرض، النور الذى هو على نور، وبالتالى لا يكون الزيت زيتا عاديا يقطر فى العين لمرضى البصر، وإنما هو الزيت الذى هو النور الذى يكاد يضىء ولم تمسسه نار، هو النور الذى ينير البصائر إيقاعا حيويا متسقا. الفرق بين الزيت حين يوضع كزيت، مادة لزجة لها قوام، فى عين رمداء، وبين النور الذى يعيد النغمة الشاردة النشاز (المرض) إلى موقعها فى اللحن الممتد من الإيقاع الحيوى الذاتى إلى الإيقاع الحيوى الكونى، هو الفرق بين زحف العمى إلى عيون فاطمة النبوية نتيجة التداوى بالزيت المتعين، وبين إبصارها نتيجة للتناغم مع إيقاع النور الممتزج بالعلم الصحيح. أما جزئيات العلم وهى منفصلة عن هارمونية النور الإيمانى المسئول، فهى لا تقل اغترابا عن الزيت الجسم الغريب قبحا ونشازا. هذا الفرق فى رواية حقى يكاد يكون موازيا للفرق بين لحس العتب وبين حدس ضاربة الودع وسيطا إلى استعادة التوازن مع النبض الحيوى فى رواية شلبى.

قد يكون من السهل نسبيا أن نفهم الفرق الأول بين الزيت كزيت، وبين الزيت كنور السماوات والأرض، من خلال فرض عن علاقة الصحة بالتوازن الحيوى الممتد. الأصعب هو أن نتصور أن المؤسسة المعلوماتية الطبية المغتربة عن هارمونية الوجود الأشمل، يمكن أن تكون أحيانا لها هذا الإضرار حتى العمى. ربما يفسر بعض ذلك - فرضا - هو تلك الكلمة التى أطلقها إسماعيل وهو يهوى بعصاه على القنديل ص ١٩٤: «وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه حتى تناثر زجاجه، وهو يصرخ «أنا...أنا...أنا». كتب المؤلف هامشا مضافا إلى الطبعة التى بين يدى ص ١٠٤ مؤرخا

سنة ١٩٧٤ يعلق فيه على هذا الموقف: من النادر أن يرصد كاتب نفسه كل هذه المدة (أكثر من أسبوع) وهو يحاول أن ينتقى لفظة بذاتها لموقف بذاته، ومن النادر أن يأتى بهذا اللفظ الغاضب المنقطع «أنا..أنا» مبتدأ بلا خبر، ليفيد به (بنص هامش اعتراف الكاتب بعد ثلث قرن) أن «...هذه هى الكلمة التى كنت أبحث عنها، لأنها تجسد كل المعانى التى طلبتها». ما هى تلك المعانى التى طلبها المؤلف حتى تحتويها هذه الكلمة فيفرح بها ثم يفرضها وكأنه يطالبنا أن نلتقط كل المعانى التى طلبها، فجسدها فى كلمة نستعملها نحن فى معنى واحد. يضيف المؤلف إلى الهامش تفسيرا (مرفوضا منى على الأقل) لذلك: مرة بحجة أنها الكلمة التى قالها نيتشه هابطا من بيته حين أصيب بالجنون، ومرة وهو ينتبه إلى أن حرف النون به نغمة الأنين. بصراحة لقد تعجبت من هذا الهامش ورفضته بقدر ما فرحت به، رفضت محتواه التفسيرى أو التبريرى، فالمبدع يكتب ما يعن له وهو لا يحدد «كل المعانى التى طلبها»، ثم تأتى الكلمات لتحتوى ما تشاء من معان حتى لو لم تكن تحتويها قبلا، صحيح أنه بين كتابة النص وكتابة الهامش أكثر من ثلاثين سنة، لكن هذا فى ذاته يجعلنا نحترم الكلمة بقدر ما نتحفظ تجاه تبريرها. ثم إن حكاية النون والأنين هى أبعد ما تكون عن موقف الصراخ المجنون، وحتى حكاية نيتشة ليست كافية لتعلن أن مسًا من الجنون قد أصاب إسماعيل. إلا أننى فرحت به للتأكيد على أهمية هذا الانتقاء ولكن من وجهة نظر أخرى.

لقد استقبلت صيحة «أنا.. أنا.. أنا..» باعتبارها إعلان انفصال الكيان الفردى عن النبض البشرى الجماعى، وعن النبض الكونى الكلى، هذا الانفصال الذى يلغى فاعلية الإيقاع الحيوى فى استعادة التوازن، فينقلب العلم الجيد والمعلومات المفيدة من آلات تشارك فى عزف لحن الإيقاع الكلى، إلى جسم غريب قد لا ينفع وقد يضر، فتكون بمثابة الزيت المنفصل عن النور. المعنى الذى جاء بعد ذلك فى إعلان إسماعيل أنه «لا علم بلا إيمان (ص ١١٧)»، أو أنه: وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان (ص ١١٩) هو معنى له موقعه الدال فى عمق مضمونه، لكنه إذا أخذ بظاهره يصبح تلفيقا مسطحا من كلمات متجاورة تكاد تضيف إلى الاغتراب مزيدا من الاختزال والتجزىء على الجانبين. هذا التلفيق شائع بين الدين والعلم، وأيضا فى السياسة والإيمان (أنظر بعد). التلفيق يفقد شقيه فاعليتهما معا، بل وفاعلية كل على حدة، أما الجدل الذى أرجح هنا إمكانية أن يجرى بين الأداة الجزئية، وبين الوجود الشمولى، فهو يخلّق مستوى جديدا من التوازن المتناغم فى تصعيد ضام.

الرسالة التى تصل من الفيلم، دون الرواية، لها قيمة من حيث أنها تنبهنا أن القائمين عليه قد وصلتهم من العمل ما قد يصل العامة أو المتدينين المهزوزين من مثل هذه الأعمال الرائعة إذ يختزلونها إلى ما ليست هى، وكأن كل المراد من مثل هذا الإبداع هو إعلان انتصار ما يسمى علما على ما يسمى خرافة. ليكن، ولكن هذا ليس هو كل ما يقوله النص، ولا هو يستأهل أن يكون نصا إبداعيا ليوصل لنا هذه النصيحة الإرشادية البديهية. إن مثل هذا الاختزال والتسطيح جدير بأن يفرغ النص من مضمونه، بل وأن يشوه جماله.

إذن ماذا؟ هل ثَمّ تفسير بديل؟

إن إسماعيل لم يصبح فى النهاية متدينا أفضل، كما أنه لم ينته مشايعا للعشوائية المتفسخة (الخرافة)، وبالتالى طبيبا أبله يتبرّك بما شاع كيفما اتفق. إن ما بلغنى هو أن إسماعيل قد استعاد توازنه الإيمانى الإبداعى الموضوعى القادر على تدعيم وعى الطبيب، إن تفسير أسلوب هذا العلاج لا يمكن أن يطرح إلى فرضا يشير إلى احترام مستويات وعى المريض مع مستويات وعى الطبيب فى علاقتها بمستويات وعى الكون، لقد اكتشف وعى فاطمة من خلال هذا الحدس الفطرى أن معالجها - برغم أنها تحبه - فردا - حتى التقديس فالاستسلام - منفصل عن الإيقاع الجماعى. إنه جسم غريب عن الوعى الجمعى والوعى الكونى (أنا.. أنا.. أنا..) وحين عاد مؤمنا بمعنى التناسق مع من حوله وما حوله، ناسا وطبيعة، ونورا على نور، استجاب وعى فاطمة لعودته، وشفيت بنفس الوسائل التى سبق أن فشلت. النص الإبداعى الذى بين أيدينا يعلن أن فاعلية العلاج تتأتى بوضع كل الوسائل المفيدة: علما وإيقاعا حيويا،

«الفيلم.. والرواية»

■ كنت قد أشرت بتفصيل نسبى إلى ما بلغنى من تفسير الفيلم للرواية بأن الشفاء الأخير تم بطريقة العلاج بالإيحاء، ورفضت أن نفسر المسألة بهذا الاختزال شبه العلمى.

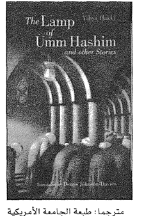
لكننى لما أتيحت لى فرصة مشاهدة الفيلم بعد ذلك - الفضل لابنتى «نهى يحيى حقى» - تبينت إن ما جاء فى الفيلم ليس مجرد خطأ أو تسطيح، لكنه تشويه للنص وتوظيف له فى عكس ما يمكن أن يصل منه.

لكل من الفن والطب والإيمان.

ثم إنى شعرت أن ثمة أمانة فى عنقى أن أحرر النص نقدا مما يمكن أن يكون قد لحقه بما اقترفه الفيلم فى حقه، هذه الأمانة ربما هى التى حملها لى المؤلف عفوا دون أن أتيقن ساعتها كيف أحملها، أو متى.

عرفت يحيى حقى وأنا فى الخامسة عشرة (١٩٤٨) طالبا فى الثانوى فى منزل أستاذنا وصديقه الحميم الأستاذ محمود شاكر، ثم التقيته فى أوائل الثمانينيات عند أستاذنا أيضا، وإذا به يعلق على بعض ما أكتب نقدا أو رأيا، ويسألنى: ألا تستحق أعماله أن أدلى فيها بدلوى، خجلت بحق (بقدر ما فرحت طبعا) ولم أف بوعدى حتى الآن. بعد ستة عقود من لقاءاتنا الأولى وربع قرن من لقائنا الثانى أجد نفسى أشرف بأن أستجيب لما حملنى من أمانة وأحاول أن أصحح ما أفسده الفن والجهل والمؤسسات المغلقة الفهم، فلتغفر لى يا سيدى تأخرى، ولأحمد الله على أنى فعلتها بما يستأهل، فلعلك سيدى تقبلنى.

مترجما: طبعة الجامعة الأمريكية



مسموعا: المجمع الثقافى بأبو ظبى

يقول الفيلم شيئا ينفصل تماما عن عمق المتن، بل يشوهه، الفيلم يفسد ما دعا إليه النص من إيمان بمعنى التناغم الصحى مع الإيقاع الحيوى المتصاعد، وهو يضع محله تلفيقات وتسويات ليس بها إضافة، وحتى يتم له ذلك يضيف ويحذف ويبدل ويلفق مايشاء. مثلا: لم تجر فى النص أية عمليات لفاطمة، فى الفيلم عمليتان، وتبدو الثانية وكأنها عملية وهمية للإيحاء، وهذه جريمة فى ذاتها، يقوم بها الهواة من الأطباء كأنها مشروعة،ويفرحون بنتائجها التافهة التى يمكن أن نحصل عليها بأى إيحاء أخيب. كذلك لا يوجد فى الرواية تشخيص لما ألمّ بالعين لكن الفيلم تبرع أن يحدد التشخيص على أنه «عمى هستيرى»، كما لا يوجد فى المتن إيهام وخداع باستبدال الزيت بدواء حقيقى، هذا أسلوب سطحى قد ينفع فى حالات عابرة لا تمت من قريب أو بعيد لحالة فاطمة النبوية. أضف إلى ذلك أن ما عرضه الفيلم هو تقابل بين دروشة عشوائية زائطة، وبين مجموعة أطباء رسميين تقليديين مما أدى إلى تشويه رسالة النور من القنديل، وتشويه معنى التصوف النابض بإيقاع الحياة، القادر على تغير حتى النشاز البيولوجى. لم أعرج عن الفيلم فى متن النقد، مع التنبيه ألا يحكم على النص من الفيلم وإنما من أصوله. ■

وإيمانا وتواصلا إنسانيا، لاستعادة التوازن الذاتى فى علاقته بالتوازن الأكمل المفتوح النهاية الذى «ليس كمثله شىء».

النص الذى يقول: «وعاد من جديد إلى علمه وطبه يشده الإيمان..» (ص ١١٩) لا يشير إلى أية تسوية مائعة تجمع بين لفظين لهما سمعة طيبة، لكنهما إذا ضُمّا إلى بعضهما تعسفا ضاعا فيما ليس هما. تماما مثل نفس الشعار «العلم والإيمان» حين يستعمل فى السياسة لغرض مناوراتى تسوياتى مخادع، أو حين يسوّق فى سوق التفسير العلمى للنصوص المقدسة. كل هذا هو نوع من الاستسهال والاختزال لكل من العلم والإيمان على حد سواء.

فروض متصاعدة

ليس من حق الطب والأطباء أن ينكروا - لأى سبب علمى أو شخصى أو شبه علمى أو تجارى - ما جاء فى عمل إبداعى ظهر نتيجة لحدس مبدع له خبرته ووعيه ورؤيته وأدواته، قد يكون من حق المؤسسة الطبية أن ترفض الممارسات الطبية الفعلية خارج نطاق قوانينها ولوائحها، وأن تسن لذلك القوانين بالحق أو بالباطل، لكن أن ترفض أحداثا جاءت فى عمل إبداعى جاد جيد، فهذا ليس من اختصاص المؤسسة الطبية، ولا من سلطتها. أيضا لا يمكن أن نسائل المبدع لماذا كتب هذا الحدث هكذا، أو لماذا رجح أن هذا العلاج نجح وذاك العلاج فشل، يحدث مثل هذا أحيانا فى مقابلات صحفية أو ثقافية عابرة، بعد ظهور العمل، وهو خطأ منهجى حتى لو أجاب المبدع على أسئلة السائل إجابات مساعدة، كما قد يأتى التفسير أيضا من عالم أو طبيب حين يسأل نفس الأسئلة فيفتى من واقع منظومة تخصصه دون الالتزام بالسياق الإبداعى واختلافات اللغة والأدوات. إن مهمة النقد الإبداعى هى قراءة النص لتفكيك أبجديته لإعادة تشكيله عبر كل منظومات الناقد المعرفية وحدسه الإبداعى وأدواته، يضع الناقد لذلك الفروض، ويعيد تشكيل النص، انتظارا لنقد النقد وهكذا، إلى غير نهاية.

وأخيرا فإنه ليس من حق فن لاحق (السينما أو المسرح أو المسلسل) أن يسطح إبداعا غائرا بمثل ذلك التشويه الذى طرحه الفيلم بنفس الاسم.

الخلاصة: (الفرض)

إنه ينبغى علينا أن نقوم بمهمة النقد ونحن نحترم كل حرف ورد فى النص، نحترمه ونجادله ونتعلم منه، ونعيد تشكيله فى إبداع ناقد مستكشف. إن كلا من «لحس العتب» و«قنديل أم هاشم» يمكن أن يحمل دعوة لتعميق فهم الوعى والوجدان ليصبح إسهامهما فى استعادة التوازن نحو الصحة فعلا بيولوجيا إيجابيا إيمانيا يكمل عمق العلم و يسهل وظيفته.

إن هذا، وليس الإيحاء السطحى، هو الذى يعيد الصحة بمعنى التوازن الإيقاعى من خلال استعمال آليات العلم بالضرورة.

الإيقاع الحيوى الكونى هو اللحن الأساسى الذى يحتاج إلى آلات تعزفه، وما الآلات البشرية إلا أدوات لعزف هذا اللحن الأعظم، تفاصيل أوتار الآلات البشرية تشمل كل شىء: من مفردات العلم إلى حدس الفطرة، إلى انتظام فحوى العبادات، كل ذلك يتكامل مع وعى من يستعملها من خلال إيقاعه الحيوى الخاص، وبالتالى يصبح قادراً على أن يتلاحم مع إيقاع وعى مريضه الناشز، فى حضن وعى الكون المحيط الممتد بغير نهاية، فينتظم فى لحن الوجود الأكبر إلى غيب يقينى ليس كمثله شىء.

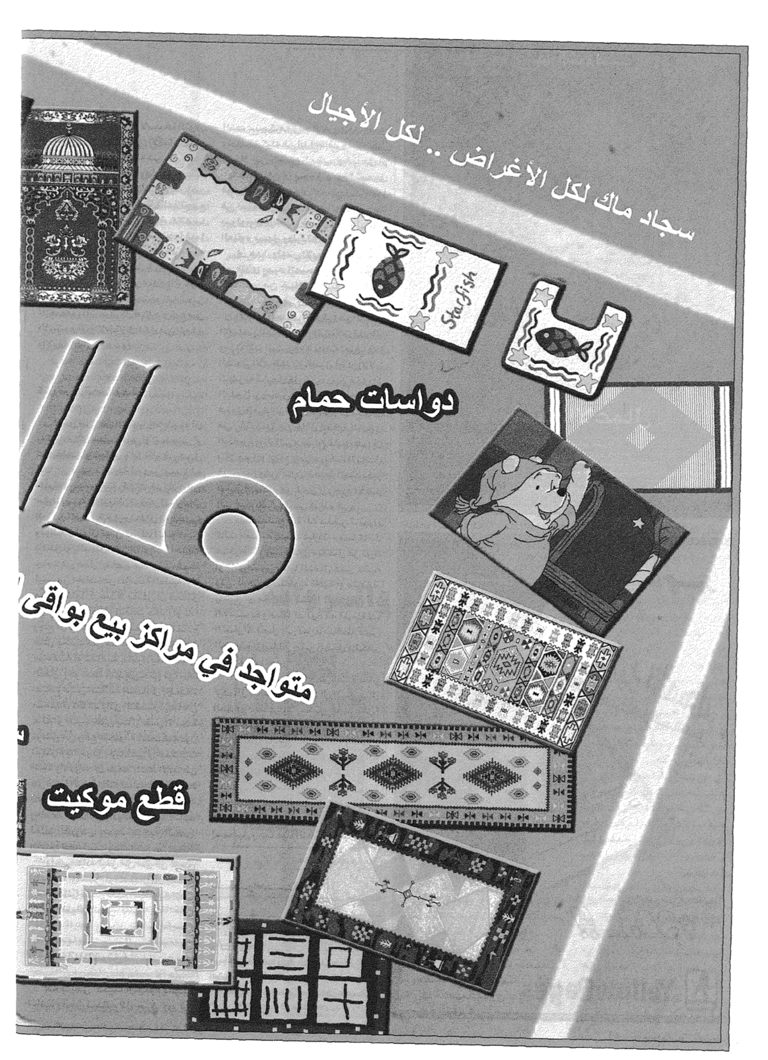
بهذا تصبح أية آلة منفردة، سواء كانت معلومة علمية شاردة، مهما كانت صحيحة، أو زيت قنديل منفصل عن نوره، أو قاذورات من بقايا النعال على عتبة ولى. أو فتوى سلطوية تافهة أو منافقة، يصبح أى من ذلك نشازا لو عزفت أية آلة منفردة وحدها لذاتها، ثم قد ينقلب النشاز المنفصل إلى نيزك ساقط، فهى الخرافة المضللة حتى القتل والكفر والشقاء أو الخدر الميت.

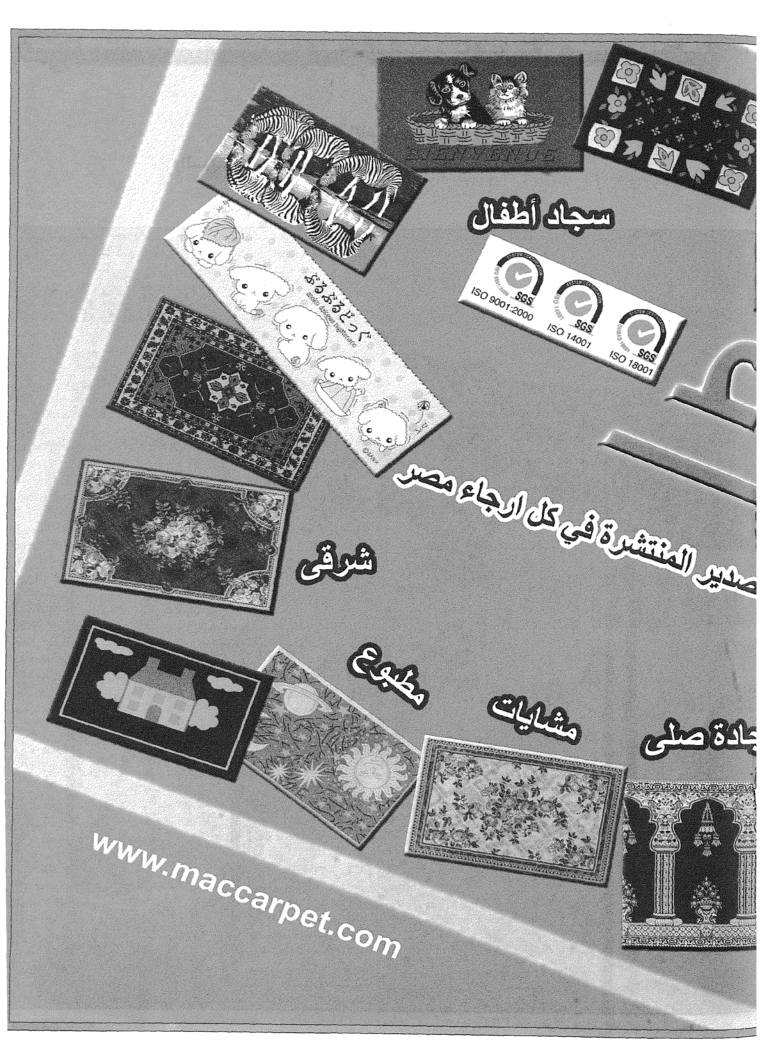
الأمر الذى يحتاج إلى إعادة نظر لإكمال الصورة هو ما آل إليه حال الدكتور إسماعيل (الدكتور إسماعيل) بعد شفاء فاطمة، فى نهاية الرواية، الجزء الذى تجاوزه أغلب النقاد (غالبا)، وما كان بمقدور الفيلم الذى قدم الرواية بكل تلك السطحية أن يقترب منه أصلا. هذه النهاية تحتاج إلى قراءة نقدية خاصة، وهو ما يمثل الجزء الثانى من هذه الدراسة، الذى أسميته «نص إسماعيل رجب عبد الله». ■

هوامش:

(١) كتبت رواية قنديل أم هاشم فيما بين (١٩٣٩ - ١٩٤٠) ونشرت لأول مرة فى سلسلة اقرأ العدد ١٨ سنة ١٩٤٤... ونشرت فى مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥ وهى النسخة المشار إلى صفحاتها فى هذا العمل

(٢) صدرت رواية «لحس العتب» فى طبعتها الأولى ١٩٩١ ونشرت فى مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت

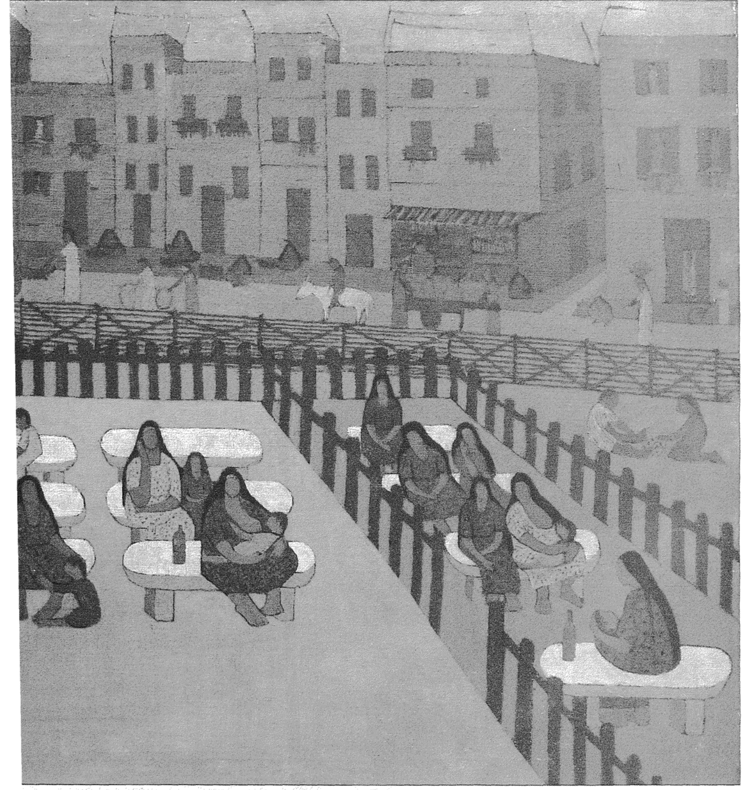


BIENVENUS
سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

فنانة من

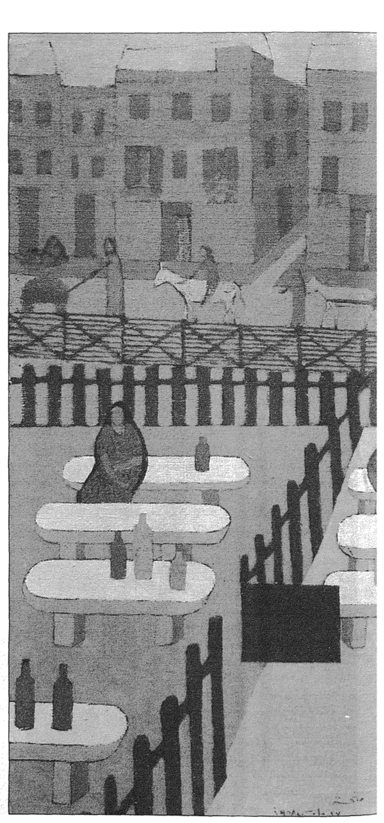
منحة الله حلمى
والريادة الجرافيكية

•العيادة الخارجية• تصوير زيتى



"عصــــــر "الإتقـــــــان"

مصـــطــفى الـــــــرزاز



■ تميزت الحركة الفنية في مصر منذ أوائل القرن العشرين بدور نشط للفنانات اللاتى سبقن الرجال فى الاشتغال بالفن قبل تأسيس مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨ بالقاهرة، فقد كان المستشرقون الفنانون يترددون على منازل العائلات لتدريس الرسم لبناتها، وكان من بين السيدات رعاة مهمون للحركة الفنية منذ نشأتها الأولى في العشرينيات من القرن الماضى، غير أن ندرة منهن قد مارسن فن الجرافيك. الطباعة اليدوية للوحات بالقوالب المحفورة.

وذلك منذ الخمسينيات من القرن الماضى فقط، بينما نشط الفنانون الرجال في التعبير بتلك الوسائط منذ ثلاثينيات القرن.

ومن بين أكثر الفنانات تميزاً في فن الجرافيك المصرى الفنانة الراحلة منحة الله حلمى، وبالرغم من مكانتها الرفيعة تلك، فقد لاحظت تجاهل اسمها في العديد من مناسبات تصنيف الكتابة عن الفنانات المصريات، أو إقامة المعارض التي تخصهن.

وفي ديسمبر ٢٠٠٥ قدم قطاع الفنون التشكيلية معرضاً استعادياً لإبداعات هذه الفنانة بقاعة أفق «١» لأول مرة بهذا التكامل الذى يضم أعمالها في الرسم والتصوير والجرافيك فجاء العرض كمفاجأة سارة، وتصحيحًا لتصنيف رواد فن الجرافيك المصريين المعاصرين.

كانت الفنانة الأستاذة منحة الله حلمى آية للرقة والتأدب، لم تفارقها تلك الابتسامة الصادقة الهادئة. كانت تنتمى لطبقات النغمات الخافتة الزاهدة ولم تعبر تلك الطبقات النبيلة ولم تتخطها أبداً حتى في مواجهة أسوأ المواقف والأزمات، ودودة تولى زملاءها وتلاميذها جل عنايتها مجاملة وتقديراً وتشجيعاً، كانت ملاكًا بشريًا بمعنى الكلمة، حينما انتقل رفيق حياتها الدكتور عبدالغفار خلاف وبعد أن شاطرناها الأحزان والمواساة. طلت علينا في اليوم التالى متشحة بالبياض الروحانى وبهدوئها وابتسامتها مكسورة بعض الشيء. ومن أصدق ما قيل عن شخصيتها النبيلة ما قاله الفنان حسين بكار: صاحب قلب صاف، ونفس نقية، وروح شفافة. ولدت الفنانة منحة الله حلمى بالقاهرة في ١١ يوليو ١٩٢٥ ودرست الفن في المعهد العالى للفنون الجميلة حتى عام ١٩٤٩. مع شقيقتها رعاية الله حلمى حيث تتلمذتا على يد فنانات مثل مرجريت نخلة، إيماكالى عياد، كوكب يوسف. عدالت كمال ومدام «راينر» ثم بعثت لاستكمال دراستها في لندن حيث التحقت بكلية «سليد» التابعة لجامعة لندن من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٥ ثم فى كلية «مورلى» بلندن لمدة ٦ سنوات إضافية أثناء إقامتها من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٩ بلندن حيث تفرغت للتعمق في دراسة فنون الحفر الجرافيكى، ثم عادت إلى القاهرة لتمارس معها تدريس فن التصوير لطالبات معهد الفنون الجميلة ببولاق ثم المعهد العالى للتربية الفنية بالزمالك ثم أستاذًا بكلية التربية الفنية جامعة حلوان. بالرغم من دراستها للتصوير إلي جانب الجرافيك، إلا أن الجرافيك قد غلب على توجهها الفنى منذ أوائل الخمسينيات، في المعرض الذى أقيم بقاعة أفق واحد بمجمع محمد محمود خليل بالجزيرة شاهدنا مختارات مميزة من أعمال الفنانة منحة الله حلمى لم يتح لدارسى ومحبى الفنون رؤيتها مجمعة من قبل، فضلاً عن أن بعضها لم يعرض قط في قاعات العرض بمصر، بعضها لم يعرض منذ أكثر من أربعين عاماً، وغابت عن ذاكرة الجيل المخضرم ولم تدخل أصلاً في دائرة معارف أجيال متتابعة من الفنانين والنقاد والذواقة، إذ قدم المعرض صورة بانورامية للمشوار الإبداعى للفنانة اعتباراً من تاريخ تخرجها في المعهد العالى للفنون الجميلة للمعلمات عام ١٩٤٩ عبر نشاطها الحيوى فى فترة الشباب، والسفر إلى إنجلترا حيث درست فنون الرسم والتصوير والجرافيك ثلاث سنوات، ثم زيارتها الثانية إلي لندن بصحبة زوجها الدكتور عبدالغفار خلاف عندما كان مستشاراً طبيًا في

☞

من مجموعة رسوم السد العالى

العاصمة البريطانية. حيث التحقت بكلية مورلى لتكرس جل وقتها لبحوث فن الجرافيك. وتقنيات الحفر الغائر الملون على وجه الخصوص. ثم فترة العودة إلى مصر والنشاط في المشاركة في المعارض والبيناليات وتمثيل الفن المصرى في المحافل الدولية والبيناليات المتخصصة في فنون الجرافيك في اليابان وألمانيا وإيطاليا والنرويج ويوغسلافيا ومصر.

حيث أثبتت تفوقها وتميزها وحصلت على عدد وفير من الجوائز المرموقة في مصر وفي البيناليات الدولية، كما حصلت على زمالة فخرية من أكاديمية الفنون بفلورنسا بمناسبة مرور ٤٠٠ سنة على تأسيسها حيث أضيف اسمها إلى قائمة الخالدين من نجوم الأكاديمية.

كما أقامت الفنانة الراحلة منحة الله حلمى معارض خاصة لأعمالها في لندن ١٩٧٨ وبرمنجهام وفي معهد جوتة بالقاهرة ١٩٦٦. كما حازت جوائز في صالون القاهرة و«بينالى لوبليانا الدولى» بيوغوسلافيا عام ١٩٦١. حيث حصلت على جائزة الشرف عن لوحتها ببولاق، وبعدها حصلت على جائزة التكريم من لجنة التحكيم من نفس البينالى على أعمالها وعلى جائزة الحفر بمعهد «سليد» بلندن ضمن جوائز عديدة.

البدايات:

فى أعقاب تخرج منحة الله حلمى من المعهد العالى للفنون الجميلة للمعلمات ومنذ عام ١٩٥٦ وفي أوج ثورة يوليو اتجهت منحة الله حلمى إلى موضوعات التعبير البيئية والوطنية، وموضوع الطبيعة الصامتة، والموضوعات القومية. في الموضوعات البيئية أنتجت رسوماً عديدة بعضها من الواقع الحى، وبعضها تصورى خيالى، والبعض الآخر توليف لما بين هذا وذلك.

في الموضوعات البيئية القاهرية غلب عليها تصوير الأحياء الشعبية ببولاق. البيئة المحيطة بالمعهد الذى درست فيه آنذاك. حيث كانت تتوقف عند جامع سنان باشا، وتصور الحوارى فى الصباح الباكر، وتسجل تراكم النوافذ على الجدران المتلاصقة والأسطح المزدحمة وتصور مولد سيدى سلامة، وحارة السيد عامر. وجامع سنان باشا، عربات الترمس الخشبية الملونة، وعروسة المولد. وكانت الجيزة بمثابة المكان المختار لدراسة المشاهد الخارجية لدى أساتذة المعهد حيث رسمت منحة الله حلمى شاطئ النيل من هناك، وقرية من الجيزة، مصنع الطوب على شاطئ الجيزة وملعب الكرة، والمسرح الشعبى وتجمعات المراكب.

وبين الزمالك والجيزة صورت منحة الله حلمى العوامات، بيوت خشبية مقامة على سطح النيل بالقرب من الشاطئ، والكازينو الذى كان يتخذ من تلك العوامات موقعاً، وهى التى صورها الأديب نجيب محفوظ في رواية (ثرثرة على النيل وفي الثلاثية) كملتقى للأحداث.

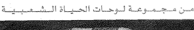


وخارج القاهرة رسمت الفنانة الراحلة منحة الله حلمى قرية التمساحة وشاطئ المنتزه، وميامى، موضوع صيد السمك والسد العالى. من الواضح من هذا السياق أن منحة الله حلمى كانت فتاة محافظة وارتباطها الأسرى قوى جداً، وحركتها محدودة في إطار تحركات العائلة أو فى الطريق إلى المعهد ومناطق الزيارة العلمية للمناطق الشعبية. ومن قراءة موضوعات التعبير وأماكنها في هذه الفترة يمكننا أن نستشعر شخصية الفنانة وارتباطاتها العائلية المحافظة، وعندما نعرف أنها عاشت هذه الفترة في ضاحية حلوان بعيداً عن حراك المدينة وصخبها، وفي عائلة كبيرة متماسكة تحترم التقاليد الأسرية العريقة، والالتزام الشديد بأدبها وسلوكياتها، يتبين لنا أن موضوعات التعبير كما سبق الإشارة محصورة في خط سيرها الدراسى وتحركاتها مع الأساتذة للرسم الخارجى، وعندما تعود إلى المنزل تسدل الستار عن مشاهدتها حتى أنها لم تخرج في مدينة حلوان لترسم معالمها كالحديقة اليابانية والسوق أو ما شابه، وتنشغل باستكمال ما رسمت من الذاكرة، ومن ثم لم تخالط الفنانة الحركة الفنية إلا فى أضيق الحدود وفي إطار الحرص على المجاملة وحب المعرفة في حضور المعارض التي كانت تفضل أن تراها مع شقيقتها رعاية في غير أيام الافتتاح ليتجنبا الجلبة والمخالطة، وبالطبع تباعدت عن المشاركة في الجماعات الفنية التجريدية والثورية، أو في الحوارات المتوهجة التي شهدتها الحركة الفنية في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، كانت تكتفى بالقراءة والإحاطة المعلوماتية حول نشاطات تلك الجماعات ودون الدخول فى انفعالاتها، قانعة بالمراقبة عن بعد للحركة الفنية المصرية، وراسلت جمعية الحفر الدولية بأمريكا وجمعية الحفر البريطانية لتنضم إلى عضويتها. ومع الروح التى شاعت في البلاد أثناء ثورة يوليو تناولت منحة الله حلمى موضوعات تعبير واقعية اشتراكية مثل السد العالى، والعمل بالسد العالى، وتراشق النيران، والإنتاج الزراعى، الانتخابات في حي شعبى، وسجلت انطباعاتها على العيادة الطبية التي كانت مواجهة تماماً بمبنى المعهد الذى درست فيه ببولاق، والناس تمرح في الحديقة ومع الأرجوحات. ومثلها مثل عبدالهادى الجزار التفتت إلى موضوعات غزو الكواكب والفضاء فصورت لوحات جرافيكية بعناوين الكواكب. وأبحاث الفضاء. في مجال الطبيعة الصامتة صورت الفنانة مجموعة صغيرة من المحفورات الخشبية المطبوعة بلون واحد أو لونين ذات عناصر شعبية كلمبة الغاز والقلل والأوانى والثمار في محيط مبتكر من الأرضيات ذات البلاطات الشطرنجية، ونوافذ مميزة الطابع، وذلك في النصف الثانى من الخمسينيات.

الرسم والتصوير:

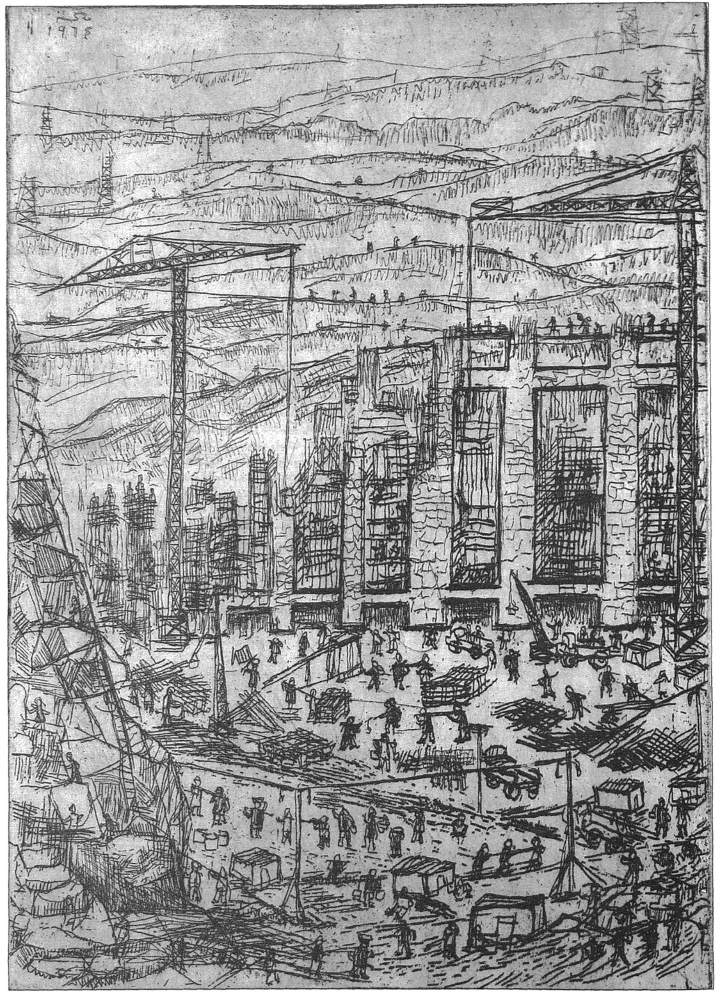
في مراحل الدراسة بالقاهرة ولندن رسمت الفنانة دراسات خطية في مجالات رسم الموديل العاري، والبورتريه، وفروع النباتات والمناظر الخلوية. ثم صورت لوحات زيتية ذات طابع أكاديمي لشخصيات لطبيعة صامتة وللموديل العاري. وفي مرحلة لاحقة أنتجت الفنانة عدداً محدوداً من اللوحات الزيتية ذات الخصوصية المتحررة من الأكاديمية ومن قواعد المنظور والنسب التشريحية، اعتمدت في تكويناتها على رصيد الرسوم الخطية التي رسمتها في الأحياء الشعبية القاهرية، وقد تميزت هذه اللوحات بالتصرف الابتكارى في البحث الأسلوبى، وبرقة المجموعات اللونية والحس الإيقاعى الظاهر.

كان هذا هو إسهام الفنانة في مضمار فن التصوير حيث توقفت عن ممارسته بصورة قطعية منذ ذلك الحين، بينما واصلت تدريس التصوير بكلية التربية الفنية طوال حياتها، أما على المستوى الإبداعى فقد تفرغت لتجاربها العميقة في مجال الحفر الغائر الملون الذي حققت فيه ذروة غير مسبوقة في فن الجرافيك المصرى المعاصر. ولذا فإن مشاهدة أعمالها التصويرية خاصة



من مجموعة لوحات الحياة الشعبية





ذات الطبيعة الأسلوبية الخصوصية يعد بمثابة اكتشاف لأنها لم تعرضها بقاعات الفنون في مصر من قبل. ولم تقدم نفسها أبداً بوصفها مصورة في الوسط الفني.

المحفورات القاهرية الصغيرة:

تعد هذه المجموعة ضمن العلامات المميزة والمبتكرة للرصيد الإبداعي للفنانة وقد حفرتها حفراً حمضياً على ألواح الزنك وطبعتها على الورق، سجلت فيها تدويناتها البصرية المرسومة في بولاق والجيزة، والإسكندرية، وقد حملت هذه اللوحات عناوين مثل: الحديقة والمراجيح والعيادة الداخلية وجامع سنان باشا وبائع الترمس، والانتخابات، وحارة السيد عامر، ومولد سيدى سلامة ببولاق وعروسة المولد والشبابيك في بولاق، وفوق السطوح، وبولاق في الصباح، العوامات الكازينو، عوامة نهرية، والمسرح الشعبى، ملعب الكرة، وتصليح المراكب وصيد السمك، وسوق الحيوانات بإمبابة، ومصنع الطوب، قرية بالجيزة، شاطئ النيل، وفي القرية فوق السطح والإنتاج الزراعي والسطوح، وقرية التمساحة، وشاطئ المنتزه وتوضح تلك العناوين فضلاً عن اللوحات نفسها نوعية التوجه الاجتماعى الذى ساد البلاد في هذه الفترة، كما نلاحظ تنقل الفنانة بين الاستعانة بملاحظتها التي رسمتها من الواقع وبين التأليف الخيالى الذى تتذكر فيه بقية العناصر والشخوص ومن الناحية الأسلوبية استفادت الفنانة من منهج تكوين المنمنمات الإيرانية التي تحتشد بأحوال الناس داخل وخارج المباني وعلى الأسطح وفي الشرفات يمارسون طقوسهم الحياتية في المرح وفي العمل، مع العناية بالتفاصيل المعمارية. تقاسيم الطوب والحجر في الجدران، مع إضافة العبارات الكتابية من آن إلي آخر، بالإضافة إلي استخدامها التسطيح والمناظير المائلة في التعبير عن المجسمات والجدران والمبانى، ولجأت الفنانة إلي شغل المساحات بالتنقيط أو بالتهشير للتعبير عن النجيلة والمياه ذات الأقواس الثعبانية اعتماداً على الخطوط دون اللجوء إلي التأثيرات الظليلة لتقنية (الأكواتنت) أو التقنيات الأكثر حرفية (كالمتزوتنت والشجرلفت) وما إلى ذلك.

عين الطائر وروح بهزاد:

رسمت الفنانة أساساً لهذه اللوحات الخطية الصغيرة أحياناً من منظور عين الطائر، حيث تنظر من دور مرتفع على مجريات الأمور أسفل مستوى النظر. كما اهتمت كثيراً بعناصر التأطير كالأسوار والجدران العازلة، والبوابات، وأيضاً بالنوافذ والشرفات والأسطح والأرصفة وفي النهر، عوامات، وفلوكات تقف أمام عمارات حى بولاق حيث قامت برسمها من ناحية كورنيش الزمالك عن بعد، شماسى مطوية وأخرى مفتوحة. وموضوعات كالمسرح الشعبى. والبهلوان الذى يلف جسده كالقوس على سجادة. الرجل الكاوتشوك. وفرقة الموسيقى والطبول والدفوف. ورسمت لعب الكرة وصيد السمك بصورة تأليفية خيالية، بينما رسمت سوق الحيوانات بإمبابة. الجمال والجاموس والأبقار من الواقع، وحيث اتسمت بحيوية إيقاعية ظاهرة. وفي مثال لوحة مصنع الطوب على شاطئ النهر يتضح أنها صنعت تخطيطها من الواقع بينما استكملت باقى تفاصيل المشهد من خيالها. مشاهد السطوح والسلالم والجدران والمصاطب، وغية الحمام والمساجد والمآذن والقباب والطرق والمبانى بزياداتها العشوائية.



وفي الطرقات والأزقة تسعى عربات الكارو والبطاطا والترمس والكيروسين (الجاز)، وسيارات ودراجات تحوم حول حنفية المياه العمومية، وفي الحقول تسعى الأبقار والحمير والجمال والقطط والدواجن. تعمدت الفنانة تحريف المنظور البصرى لتكشف عن دخائل الكتل المعمارية حيث تشخص أحوال الناس اليومية في حجرات النوم والطعام والجلوس. وفي الشرفات وبجوار الأسوار وعلى الأسطح وأمام البوابات، وفي الشارع وفي المناطق المحاطة بأسوار، حيث تظهر من تغسل على الطشت. ومن تخبز، والجالسون حول طبلية الطعام وعلى سور السطوح للمراقبة، المرضعة والغسالة تنشر الغسيل. والأم تصفف شعر ابنتها، وإطعام الدواجن ومتابعة غية الحمام، حبال الغسيل وحبال اللمبات الكهربائية، والقلل والقباقيب والقطط وأشجار ونخيل وحقول مقسمة إلي أحواض، كبائن الشواطئ ذات الدورين في ميامى والسور الحجرى الملتف حول الشاطئ والمستحمات يلهون بالعوامات والأطفال بالجرادل، السلالم والشماسى والمصطافون، في لوحات السد العالى، ترسم الأوناش واللوريات العملاقة أمام الخلفية الجبلية، وتستكمل من خيالها خاصة في رسم العمال بصورة اصطلاحية.

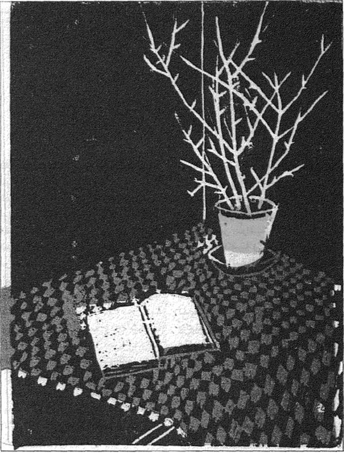
في هذه الأعمال الصغيرة استهدفت الفنانة ترجمة الواقع والمتخيل إلى مشاهد مسرحية الطابع، تحدد فيها العناصر في مواقعها من العمق المنظورى بصورة اصطلاحية، وتطلق شخوصها وحيواناتها ومركباتها وكأنها فريق التمثيل. وإمعاناً في تلك النزعة التوضيحية تستخدم الفنانة أحياناً عبارات مكتوبة وإرشادية كما يفعل الفنان في المنمنمات الإيرانية تمثل هذه المجموعة من الأعمال مرحلة مبكرة من أعمال الفنانة اتسمت بالواقعية والإيضاح التمثيلى الخيالى، سبقتها تكوينات أولية نفذتها بالحفر الطباعى على الخشب وهي قطع صغيرة موضوعاتها الطبيعة الصامتة في الخمسينيات وفي المرحلة التالية حينما رسمت موضوعات، تراشق النيران، والكواكب وأبحاث الفضاء، تحولت الفنانة إلى النزعة التجريدية الإيقاعية، حيث دخلت التقاسيم الهندسية المتداخلة والخطوط المشعة من مراكز أو أكثر، والدوائر والأقواس والخطوط الدوامية الثائرة.

لندن:

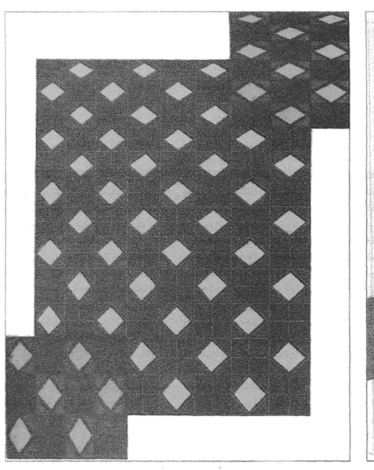
ذهبت منحة الله حلمى إلي لندن مرتين، الأولى: عندما بعثت عاماً للدراسة حيث التحقت بمعهد «سليد» Slade لدراسة التصوير والحفر، والمرة الثانية: فيما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٩ حينما ذهبت برفقة زوجها الدكتور عبدالغفار خلاف حين أصبح مستشاراً طبياً في سفارتنا هناك، وحيث التحقت بكلية «مورلى Morly» لتتلمذ على أساتذة الحفر الكبار هناك ولتستخدم إمكانيات الكلية، وحيث اشترت مطبعة يدوية للحفر الغائر ومستلزماتها لتواصل العمل في المنزل.

فى المرحلة الأولى: إبان البعثة درست منحة الرسم والتصوير إلي جانب الحفر. حيث رسمت رسوماً ناضجة بالقلم الرصاص من حدائق بريطانية وقرى وجزر، استخدمت فيها تهشيرات أكثر جرأة في التعبير عن العمق المنظورى والظلال رسمت «ريجنت بارك» و«كامبل هوك» وحدائق وشواطئ وقلاعاً، ومارست طريقة «الكياروسكورو» في التظليل بالقلم الرصاص حيث تحقق الأضواء بالمحو بالأستيكة من مساحات سوداء وتمويه تدريجى للأضواء. كما رسمت دراسات متمكنة لفروع وسيقان الأشجار ولزهرة الأوركيد، ومجموعة رائعة من التخطيطات السريعة والقوية للموديل العارى باستخدام الريشة والحبر الشينى، خطوط دقيقة بدرجة مخففة من الحبر ثم خطوط واثقة من تهشيرات إيقاعية بالحبر الأسود.

كان ذلك في النصف الثانى من الخمسينيات وفي هذه الفترة بدأت منحة الله حلمى في استخدام تقنية «الاكواتنت» لتحقيق الظلال بدرجاتها، فكانت تجرى تجارب على نفس القالب بمستويات مختلفة من الراقات الظلية، اتسمت هذه المرحلة بغياب النزعة المسرحية واستخدام العناصر الاصطلاحية أصبحت الشخوص أكثر تأملية وعمقاً واتزاناً وأصبحت التهشيرات أكثر تمكناً ورقياً، اتسمت بالتحكم الناعم في الظلال والأضواء ومن إبداع الرسوم في هذه المرحلة



طبيعة صامتة . حفر على الخشب



تجـريـد . حفـر

تراشق النيران . حرب الاستنزاف . المدفعية عبر القناة . تصوير زيتي

وأكثرها تعبيراً الموديل العارى، رسم عازف على آلة وترية صغيرة تنبض بالتعبير الهادئ وخطوطها تتسم بالرقة والشاعرية. وقد حولت هذا الرسم إلى مطبوعة فيما بعد.

وفي الزيارة الثانية للندن ولمدة خمس سنوات متصلة تفجرت ملكات الفنانة الحقيقية بعد أن استهلكت في المراحل السابقة تدريباتها في الرسم والحفر والتصوير من الواقع ومن الخيال ومزاوجة هذا بذاك. تخلت في هذه المرحلة بصورة كلية ونهائية عن الرسم التمثيلى الواقعى وأبحرت في عالم التجريد الذى مهدت له في محفوراتها عن الفضاء والكواكب وفي اللوحات التصويرية التجريدية الهندسية. في هذه المجموعة النادرة من أعمال الحفر الغائر الملون قدمت الفنانة أعمالاً فنية فريدة من نوعها في مدرسة الجرافيك المصرى الحديث. ومن اليسير تقسيم مرحلة اكتمال النضج والأستاذية للفنانة منحة الله حلمى إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تمثل حالة تحول من المشاهد المرئية إلي التجريد على خطوات، إلي أن تحولت الأعمال إلى ما يشبه المعادلات الهندسية لأسس التصميم في التكرارات وتبادل الألوان واللعب بالبدائل الطباعية لنفس القالب المعدنى المحفور، والتحرر من الصفة المربعة أو المستطيلة لمساحة اللوحة المطبوعة، واستخدام قوالب متعددة لتطبيق ألوان متراكمة ومتداخلة. تعمقت في إيقاع التكوين واتجاهات الخطوط والأشكال. واكتسبت تحكماً مدهشاً في ضبط راقات اللون المتراكمة كل في مكانه. وجمعت بين المساحات والخطوط، والتي يغلب عليها الخطوط المتعامدة والمتقاطعة والمائلة. ومع ذلك فإن هذه المجموعة الأولى من الأعمال تعد بمثابة تجارب استكشافية في اللغة الجرافيكية.

المرحلة التجريبية:

اتسمت بتصاعد الخبرة التقنية، وصفاء التكوينات الإشعاعية بالغة التركيب، والتحكم في التدريجات الظلية الناعمة والمتعددة، بسيطرة مدهشة حقاً كما اتصفت تلك المرحلة بصفاء وتقشف المجموعات اللونية المخلوطة والشفافيات فيما يشبه مذهب إحكام العلاقات الهندسية في Hard edge فى هذه المجموعة نستشعر أن هناك طاقة مغناطيسية وهمية جبارة تلتقى عندها الخطوط وتنتشر منها كما في الأطباق النجمية في الفن الإسلامى ولكن بأسلوب نقائى خالص، واعتمدت على التقابل الثنائى والمتعدد المحاور، وتعدد الاتجاهات برصانة واستقرار، واستثمرت انكسارات الخطوط الإشعاعية لتكثف التعبير المنظورى المجرد. وفي هذه المجموعة الديناميكية اتجهت الفنانة إلي قطع القوالب الطباعية على أشكال مبتكرة منها المعين، ومتعدد الأضلاع والاتجاهات وكرؤوس السهام التي تلتقى في نقطة عند بؤرة الجذب الوهمية، ومتعامدات تؤكد حدة التلاقى وحيوية التوازن. وفي هذه المرحلة أيضاً كانت الفنانة تجرى دراسات وافية على تحليل اتجاهات الخطوط وحركة التكوين وأوزان الطاقات الظلية واللونية. وكانت تخطط لتلك الدراسات بعناية كاملة بنفس المقاس قبل التعامل مع قوالب الزنك والحفر والأحماض. وأصبحت تسيطر باقتدار ويسر على استخدام «الإكواتنت». رذاذ القلفونية، والحفر الحمضى والحفر الجاف معاً لتحقيق ذلك الإحكام الهندسى والضوئى في لوحاتها. وكانت تطبع كل مجموعة من الزنكات المحفورة. قد تصل في بعض اللوحات إلى اثني عشر قالباً للوحة الواحدة، تطبعها ببدائل تلوينية أو بتحريفات في اتجاهاتها لتحقق تنوعات بصرية من نفس القوالب.

مرحلة الذروة:

وهي مرحلة الأستاذية و الإبداع، حيث زهدت الفنانة فى منهج الإحكام الهندسى والتقابل والتشعع والتمسك والتدرج اللونى والناعم والمنضبط، ولجأت إلى قدر أوسع من التحرر في اتجاهات الخطوط وتشبيكاتها، والجمع بين الدائرة وبين محيط هلامى من نسيج متطاير تربطهما شبكة خطوط متقاطعة، حيث تُقطع القالب الصناعى إلى مساحات معينة قبل الطباعة. استخدمت الفنانة في هذه المرحلة الأخيرة تقنية الشمع اللين Soft Ground لتحقق بصمات من ملامس من الشاش الناعم المجعد والخيوط المتقاطعة لتضيف نبضاً حركياً ولمسة حيوية لتكويناتها المدهشة، وتجمع أحياناً بين هذا التأثير المفعم بالحيوية، وبين أشكالها الهندسية المحكمة من الدوائر والمساحات الإشعاعية التي تلتقى عند مركز الدائرة مع تدرج الظلال بتمكن مدهش حقاً فى هذه المجموعة الرائعة تعاود فيها الفنانة الالتحام بالطبيعة ولكنها الطبيعة الكونية وليست الأرضية فهي أشكال ذات طبيعة عضوية، ولكنها سديم لا نعرف له أشباهاً. ثم أضافت الفنانة بعداً جديداً لأعمالها حيث لجأت إلي طبع القوالب المحفورة حفراً شديد الغور بدون تحبير لتحدث تأثيرات ملمسية كالحجر والجدران البيضاء وفي المناطق الملونة تعطى انطباعاً بالأجرام الكوكبية السابحة فى سماء لا نهائية تدور في فلك حول قرص مركزى، وأحياناً تضيف خيوطاً على القالب الطباعى لتحقق بصمتها على الورق بينما تحجب الحبر الطباعى عن المناطق شديدة الاقتراب من تلك الخطوط فتصبح كالضوء الذى يجف ويتوازى مع الخطوط المطبوعة ونتيجة لتعاشق تلك الخطوط تشعر بالبعد الثالث والتضفير. وتعكس هذه الأعمال التجريدية الخالصة عن حس صوفى ظاهر.



في السبعينيات حين نشطت منحة الله حلمى أثناء إقامتها الثانية بلندن كانت تيارات «الماناريزم Manarism» والفورماليزم Formalism قوية النفوذ عندئذ ظهرت الاتجاهات «السيبرانية Cybernitic» التي تعتمد على نظريات الإدراك البصرى والأفكار العلمية المتقدمة أكثر من اعتمادها على الفلسفة وعلى الفطرة وبدأت برامج الكمبيوتر جرافيك في تحقيق صياغات بنائية مبرمجة تلعب بالوحدات والأنظمة وبداخلها التركيبية واللونية من خلال متغيرات تجريبية محددة وموجهة وبينما واجه الكمبيوتر جرافيك مقاومة كبيرة لأسباب عاطفية ولأنه لا يتوافق مع الأطر الجمالية القائمة. ولأن برامج الكمبيوتر لم تكن مهيأة بعد للوفاء بالمتطلبات الجمالية والتشكيلية للفنانة، إلا أن المرجعية الرياضية والهندسية لبرامج الكمبيوتر التي كانت متاحة حينئذ قد فتحت أبواباً للفنانين للعمل حتى دون الاستعانة بالكمبيوتر، مستفيدين بالبدائل المتعددة التي تتيحها برامج الكمبيوتر جرافيك. وقد تأثر فنانو الجرافيك في هذه الآونة بذلك التيار البرنامجى العقلانى وكذلك فعلت منحة الله حلمى، إذ حرصت على وضع مخططات بالغة الدقة لكل عمل قبل الشروع فى تنفيذه بصورة مادية على ألواح الزنك، وقد تركت الفنانة وراءها كنزاً من تلك المخططات المدهشة تضم عناصر وتكوينات كل لوحة من لوحاتها، ودونت عليها في أماكن ذات مغزى رموزاً كودية، و إشارات كتابية، وعلامات وأرقاماً تعبر كلها عن خطوات تنفيذ العمل، وعدد الألواح المطلوب إعدادها لتنفيذه، وعدد مرات الغمر في الحمض، ودرجات تركيز الحمض وتوقيتات الغمر، ومراحل العمل، وتجارب على التراكيب اللونية وخطوات الطباعة ومرات التحجيز لعزل مناطق موضعية من القالب لحمايتها من الحفر الحمضى ومنهج التلوين، وراقات الألوان. ومناطق قطع محيط القالب أو تفريغ مواقع فيه، وإشارات دالة على طريقة الطباعة للقالب المعدنى بالغائر أحياناً Intagelo وبالبارز أحياناً أخرى، ومناطق المعالجة برذاذ القلنونية Aquatint أو المعالجات الأخرى للحصول على الملامس كالشمع اللين Soft ground أو الرفع السكر Suger Left، وغير ذلك من التأثيرات المحكمة لإخراج الطبعة النهائية متكاملة واحترافية. وتركت فضلاً عن ذلك عدداً من الكراسات الصغيرة دونت فيها بدقة تامة كل عمل من أعمالها في المرحلة اللندنية الثانية ١٩٧٣ . ١٩٧٩ وبيانات دقيقة عن مواصفاته وتقنياته ومغزاه الرمزى والتعبيرى. كما دونت بياناً

الحياة الشعبية . الانتخابات

بالخامات والأدوات التي اشترتها لهذا العمل بدءاً من ماكينة الطبع، إلى القرص الساخن، إلى صندوق الاكواتنت واللباد والأحبار والورق.



إن التطلع إلى هذا التراث المدون للفنانة يجلى الكثير من أسرار منهجها في التفكير وفي التعامل مع الوسائط، ومع الحسابات الدقيقة للوصول إلى نتائج مختمرة صورتها في الذهن، مروراً بجهد شاق في التجهيز والتخطيط والبروفات، إلى الطبعة التي قد تتطلب أكثر من اثنى عشر لوحاً من الزنك لتنفيذها على مدى أسابيع وربما شهور عديدة. غير أن القوة الحقيقية في أعمال منحة الله حلمى الأخيرة تكمن في قدرتها على التملص من حرفية النظم المبرمجة لتدوير العناصر والأشكال في تكوينات منطقية حسابية، كما أفلتت بوعى كبير من فخ ابتكارات الخداع البصرى optical illmsion التى ميزت فن الـ opart وآثرت أن تعتمد على عقلها وأناملها في تخطيط برامجها التكوينية الخاصة خطوة بخطوة، وتجنبت بثقة كاملة الوقوع في المؤثرات الخداعية البصرية. واحتفظت بذلك بحريتها وسجيتها، وعبأت تكويناتها بحس روحانى أثيرى نادر. وهي بذات القدر من الثقة تجنبت الانجذاب للتراث الإسلامى الهندسى بالرغم من توازى العديد من أعمالها مع آيات هذا الفن، واستبعدت تماماً الذوق الفطرى والفلكلورى الذى تركته وراءها في الخمسينيات والستينيات، ومعه التعبير التمثيلى لتنحاز بصورة كلية تجاه التجريد الخالص التوازنات البنائية والإشعاعات المنظورية والتفاعل الهندسى مع العضوى في تآلف نادر المثال وبذلك حققت الفنانة بهدوئها ورزانتها قمة رفعت عليها رايتها دون أي مشابهة مع غيرها. فنانة ذات رسالة حققتها بجدارة غير مسبوقة وبفرادة وأصالة موضع التقدير والإعجاب حققت بها مكانة وطنية مرموقة من خلال تجربة متصاعدة عميقة ومبدعة. ■

■■ «إليَّ يا أيُّها النومُ الرحيبُ العذبُ! إليَّ! أبعدْني، ابعدْني عن نفسِي المَغرورة، وعن كلِّ ما هو عقيم يتحكَّمُ في روحي فأبتسمُ أو أبكي. فإذا ما وَفَدْتَ، فَلْتَكُنْ يا نومُ كالموتِ عميقًا!»

باتريك ب. الكزاندر

النومُ هو أكثرُ عمليات الجسم غموضاً. فى النوم العميق ينقطعُ النائمُ عن العالم الحسِّى: لا يسمعُ، لا يشعرُ، لا يتذوقُ، لا يشمُ، ولا يَرى إذا فُتحت له عيناه! نقضى ثُلثَ حياتنا نائمين: إذا بَلغتَ من العمر ستين عاماً، فستكون وقد نمتَ منها عشرين عاما! ورغم ذلك فلم يَحظَ النوم من العلماء بالاهتمام الحقيقى إلا مؤخراً. كلُّ ما نعرفه عن النوم عرفناه خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

النوم ليس شيئاً نملأ به فراغَ الوقت بالخمول، إنه عمليةٌ ديناميةٌ، هو نشاطٌ نحتاجه ليس لنا أن نَرفضَه، عمليةٌ نشطةٌ تتضمن عملياتٍ فسيولوجيةً بالجسم ضروريةً. بعد النوم نُدرك أنَّ تغيرات قد حدثت لنا بالفعل، نشعر بالراحة وأننا قد غدونا أنشطَ. النومُ مطلوبٌ لبقائنا.

وَجْهُ حبيبتكَ الجميلُ يصبح أجملَ إذا تأملتَه وهى نائمة، يغدو طفلاً، يَبينُ منه الجوهر، وجوهرُ الإنسانِ هو الجمال. فى النوم تتوارى أدرانُ الحياة ويتألَّق الجوهر.

تناوله الكُتَّاب كثيراً هذا النوم، والشعراء منهم بخاصة. هو الموت الصغير عند الكثير منهم! هذا هنرى لونجفيلو Longfellow. W.H يقول: «أواه! لكم أكره تلك الجرعات الصغيرة من الموت». وهذا إيليا أبوماضى يكتب:

إنْ يكُ الموتُ هجوعاً يملأ النفس سلاما
وانعتاقاً لا اعتقالاً، وابتداءً لا ختاما
فلماذا أعشقُ النومَ ولا أهوى الحِمَاما
ولماذا تجزعُ الأرواح منْهُ
لست أدرى!

يرى علماءُ التطور أن دورات مراحل النوم قد وُجدت لأنَّ النوم قد يصبح خطراً بالنسبة للحيوان غالباً عمَّا يجرى حولَه، ومن الضرورى له أن يتأكد من سلامة موقعه ما بين آونةٍ وأخرى. والأغلبُ أن نجد فى الحيوانات الاجتماعية فرداً أو آخر يبقى طول الوقت قريباً من اليقظة حتى يمكنُه عند الضرورة أو يوقظَ الآخرين.

مراحل النوم

لتحديد مراحل النوم يعتمد العلماءُ الآن على مقاييس ثلاثة: الأولُ هو النشاطُ الموجيّ الكلىُّ للمخ كما تقيسه آلة تسجيل مُخطِّط كهربائية المخ (EEG) electroencephalogram، وهذه الآلة توفر ملخصاً للنشاط الكهربائى لأى منطقة من المخ. أما الثانى فهو درجة قوام العضلات، وتقيسه آلة تسجيل مُخطِّط كهربائية العضلات (EMG) electromyogram. والثالث هو نتائج آلة رصد حركات العين بمخطط كهربائية العين (EOG) electro-oculogram. ومُخطِّط كهربائية المخ هو أهم هذه المقاييس فى التمييز بين مراحل النوم المختلفة.

من الممكن أن تُقسَّمَ أنماطُ موجات المخ المختلفة فى اليقظة إلى ضربين: موجات بيتا beta، وترددها يبلغ ١٣ . ١٧ حلقة فى الثانية (ح/ث)، وموجات ألفا alpha وترددها يبلغ ٨ . ١٢ ح/ث. موجات بيتا ترتبط بالنشاط اليومى للمخ، وهى الأعلى تردداً والأدنى فى السعة، كما أن درجة اللا توافق بينها هى الأعلى مقارنة بغيرها من موجات المخ: موجات بيتا ليست متناغمةً تماماً، لأن النشاطَ اليومى للمخ يتضمن الكثير من الخبرات المعرفية والحسية والحركية المختلفة.

فى فترات الاسترخاء أثناء اليقظة يبدأ المخ فى توليد موجات ألفا الأبطأ والأكثر سعةً والأكثر تناغماً. الواضح أن الأنشطة التى تُعزِّزُ نشاط موجات ألفا (كالتأمل) لها مردودها الطيب على الصحة.

يبدأ نشاط المخ أثناء النوم فى منطقة الجسر pons بجذع المخ. يرسل الجسم إشارات إلى الثالامص وإلى قشرة المخ المسئولة عن عمليات التفكير، كما يرسل إشارات لكى تغلق نيورونات الحركة فى الحبل الشوكى، مما يسبب شللاً مؤقتاً يمنع الحركة.



النوم
ذلك الموت الصغير



أحمد مستجير



وَجْهُ حبيبتكَ الجميل يصبح أجملَ إذا تأملتَه وهى نائمة، يغدو طفلاً، يَبينُ منه الجوهر، وجوهرُ الإنسان هو الجمال. فى النوم تتوارى أدران الحياة ويتألَّق الجوهر



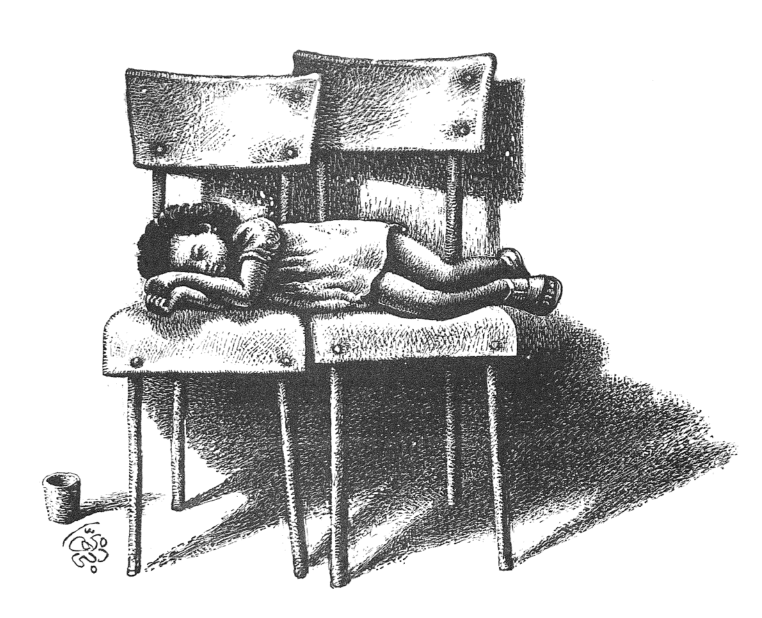
عندما تدخُلُ أولى مراحل النوم المسماة بمرحلة الوسن drowsiness، تبدأ الموجاتُ فى الابطاء فتتحول إلى موجات تسمى موجات ثيتا theta، وتردُّدها هو ٤ . ٧ ح/ث، وهى أكثرُ بطئاً من ألفا وأكثر سعةً. هذه المرحلة الأولى من مراحل النوم هى مرحلةٌ تمهيديةٌ بين اليقظة والنوم، وتستمر عادةً ما بين دقيقة وخمس دقائق، وقد تطولُ كثيراً فى حالة الأرق، وفيها يستعدُ الجسمُ للنوم، وتترهل عضلاتُه. يحدث كثيراً مع التحول نحو ترهل العضلات أن يشعر الفردُ بتقلصٍ مفاجئٍ فى عضلة الرِّجل ويحس بأنه يسقط فى هاوية.

مع تحول النائم إلى المرحلة الثانية، المرحلة التى تستغرق ٤٥ . ٦٠٪ من وقت النوم، تَظلُّ موجاتُ ثيتا نشطةً، وإنما تتخللها ظاهرتان تحدثان كلَّ دقيقة أو نحوها وتحددان خصائصَ المرحلة: مغزلُ النوم sleep spindle ويتألفُ من اضطرامات من موجات سريعة جداً (١٢ . ١٦ح/ث)، ومُعقَّدات ك complexes k، وهذه ازديادٌ مفاجئٌ فى تردد وسعة الموجات.

المرحلتان الأولى والثانية هما مرحلتا النوم الخفيف، والواقع أنك إذا أُوقظتَ خلالهما فلن تتذكر أنك كنت نائماً.

يتحول النائمُ بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والرابعة من النوم، مرحلتىْ موجات دلتا delta البطيئة (٣ح/ث)، أو مرحلتىْ نوم الموجة البطيئة، أو النوم العميق الذى يستمر ١٠ . ٢٠ دقيقة، وقد يمتد إلى ٣٠ دقيقة. والواقع أن ليس ثمة فاصل حقيقى بين هاتين المرحلتين سوى أن نسبةَ موجات دلتا فى المرحلة الثالثة تشكل ٢٠ . ٥٠٪ من مجموع الموجات، بينما تزيد النسبةُ عن ٥٠٪ فى المرحلة الرابعة. وأعمقُ النوم هو نومُ دلتا، ففيه تكون موجاتُ المخ أبعد ما تكون عن موجاته أثناء اليقظة، ومن ثَمَّ يصعبُ إيقاظُ النائم. فإذا ما أُوقظ فقد يتطلب الأمرُ بضعَ دقائق قبل أن يدرك ما يجرى حولَه! والعجيبُ أن نومَ دلتا هذا هو الوقتُ الذى يحدث به عادةُ المشى أثناء النوم، ورعبُ النوم، والكلامُ أثناء النوم. يشغلُ نومُ دلتا ما يصل إلى ٤٠ . ٥٠٪ من فترة نوم الأطفال، الأمرُ الذى يُفسِّر صعوبةَ إيقاظ الطفل.

بعد المرور فى هذه المراحل الأساسية الأربعة للنوم، والتى تُعرف باسم النوم اللاريمى، تأتى المرحلةُ الخامسة والأخيرةُ فى الدورة، وهى مرحلةٌ متفردةٌ تسمى مرحلةَ نوم الحركات العَيْنيَّة السريعة Rapid Eye Movement



(REM) أو نوم الرِّيم، وفيه تتحرك العينُ باندفاع يمكنُ رصدهُ. هى لا تتحرك على الدوام، وإنما تندفع إلى الخلف وإلى الأمام، أو إلى أعلى وأسفل، ثم أنها تتوقفُ فجأةً لتنطلقَ ثانيةً إلى الخلف وإلى الأمام. تتحرك العينان سوياً فى نفس الاتجاه كما يحدث أثناءَ اليقظة. يعتقد بعضُ العلماء أن حركةَ العينين هذه إنما تتعلق بصُوَرٍ يراها النائمُ فى حُلمِه، لكن السببَ فى حدوثها أو وظيفتَها، إن كانت لها وظيفةٌ، لا يزال مجهولاً.

تستغرقُ مرحلةُ الريم نحو ٢٠٪ من فترة النوم الطبيعى أثناء الليل، وتتميز أيضاً بفَقد فجائىّ لقَوام العضلات. والواقع أن العضلاتِ الهيكليةَ التى تُحرِّكُ أجسادَنا (كعضلات الذراعين والرِّجلَيْن) تكون مشلولةً فى نوم الريم (ولا هكذا يكون الوضع فى النوم اللاريمى). ينشأ هذا الشلل عن افراز حامض الجلايسين الأمينى glycine من جذع المخ على النيورونات الحركية. لكن هناك بالطبع عضلات هامة أخرى تستمر فى عملها، مثل عضلات القلب والحجاب الحاجز وعضلات العين، والعضلات الملساء كتلك الخاصة بالأمعاء والأوعية الدموية.

أهم ما يميز مرحلة نوم الرِّيم هذه هو أنها الأكثرُ ارتباطاً بالأحلام. عندما أيقظَ الباحثون البعضَ أثناء نوم الريم، وسألوهم عن أحلامهم وجدوا أن الغالبيةَ العظمى منهم يتذكرون الحُلُمَ، أما إذا أُوقظ الفردُ فى مرحلة نوم اللاريم فالعادة ألاَّ يتذكرَ أحلامَهُ. مرحلةُ نوم الريم مرحلةٌ تتميز بمخٍ نشطٍ فى جسمٍ مشلول. أنت تَحلُمُ وجسمُك لا يَنفِّذ أحلامَك، وإلا آذيتَ نفسَك أو آذيتَ غيرَك.

تستمر هذه المرحلة من النوم ١٠ - ٢٠ دقيقة، بعدها يعود النائمُ ثانيةً إلى المرحلة الثانية، وتكون دورةُ النوم قد انتهت. قد يمر الشخصُ بأربع أو خمس أو ست دورات نوم فى الليلة، يستغرق كل منها نحو ٩٠ دقيقة (وتكون ٥٠ دقيقة فقط فى المواليد). يكون النومُ العميق، نومُ دلتا، فى كل دورة أقلَّ منه فى الدورة التى تسبقه، حتى ينتهى بعد بضع دورات. بذا يقع معظمُ النومِ العميقِ فى النصف الأول من النوم، ويتزايد طولُ نوم الريم فى كل دورة فى النصف الثانى.

من المثير أن نذكر أن مرحلة نوم الريم المتفردةَ هذه، التى ترتبط بالأحلام، لم تُكتَشَفْ إلا فى عام ١٩٥٣، على يَدَىْ يوجين أسيرينسكى Eugene Aserinsky وأستاذه ناثانيل كلايتمان Nathaniel Kleitman. وقد فتح اكتشافُهما هذا عالماً جديداً لدراسة النوم، فقد كان العلماءُ قبلَه يظنون أن النومَ مجردُ رحلة نعاسٍ وسكونٍ وخمودٍ، يصمتُ فيها الجسمُ، رحلة لا تُهم كثيراً.

أولى دوراتِ النوم إذن تتميز بفتراتِ ريم قصيرة، وفتراتٍ طويلةٍ من النوم العميق. ثم ينقلب الأمرُ مع التوغل فى الليل، فتصبحُ الدوراتُ الأخيرةُ طويلةَ الريم قصيرةَ النوم العميق، حتى إذا ما اقترب الصباحُ كان معظمُ النوم فى المرحلتين الأولى والثانية ونوم الريم، وتصبح المرحلتان الثالثةُ والرابعةُ قصيرتين جداً. لكنَّ ما يجعلك تستيقظُ فى الصباح منتعشاً هو عددُ دوراتِ النوم التى مررتَ بها.

يحتاج المواليدُ إلى ١٦

ساعة نوم يومياً. وفى عمر ٦ شهور. ٣ سنوات يقل وقتُ النوم ليصبح فى المتوسط نحو١٤ ساعة. المراهقون يحتاجون إلى ٩ ساعات من النوم أثناء الليل، والنومُ بالنسبة لهم مهمٌ جداً، حيث أثناءه يُفرَزُ هرمونُ النمو بكميات كبيرة من الغدة النخامية. تصل الكميةُ إلى أقصاها بعد ساعة من النوم، ثم تبدأ بالتدريج فى الانخفاض. المراهقُ يحتاج النومَ لينضجَ جنسياً.

ومع تقدم العمر يقل طولُ فترة النوم بالليل. يحتاج الإنسانُ الناضج إلى ما بين ٧ و٨ ساعات من النوم فى الليلة. وتقول مذكراتُ بعضِ مَنْ كتبوا فى العصر الفيكتورى، قبل استخدام الإضاءة الكهربائية، إن البالغين كانوا ينامون ٩ . ١٠ ساعات فى الليلة!

صحيح أن هناك مَنْ يكفيه ٥ أو ١٠ ساعات من النوم، لكن دراسةً حديثة تقول إن مرضَ السكر يكون أكثرَ انتشاراً بين مَنْ ينامون أقل من ٦ ساعات أو أكثر من ٩ ساعات، مقارنةً بمن ينامون ٨.٧ ساعات. قلةُ النوم قد تكون نذيراً بمرض السكر. ثم إن هناك أبحاثاً كثيرةً تشير إلى وجود ارتباطٍ معنوىٍ بين السِّمْنَة وقلة ساعات النوم: احتمالُ السِّمْنَة بين من ينامون ٤ ساعات فى الليلة تكون أكثرَ بنسبة ٧٣٪ مقارنةً بمن ينامون ٨.٧ ساعات، أما مَنْ ينامون روتينياً ٦.٥ ساعات فيكون احتمالُ الزيادة ٢٣ . ٥٠٪. ثمة علاقةٌ بين قلةِ النوم ومستويات هرمون اللبتين leptin، الهرمون الذى ينظم الشهية. من ينامون روتينياً أقل من ٥ ساعات تُفرزُ أجسادُهم من اللبتين قدراً أقل بنسبة ١٥٪، يُتَرجَمُ إلى زيادة الاحساس بالجوع، ومن ثَمَّ النَّهم فى الأكل.

يتغير نمطُ النوم مع تقدم العمر كما قلنا، إذ ينخفض الوقتُ الذى يقضيه الفردُ فى أعمق مراحل النوم (المرحلتين الثالثة والرابعة من النوم اللاريمى). المولودُ يقضى نصفَ وقت نومه الكُلّى فى نوم ريمى، بل الحقيقةُ أنه يدلفُ مباشرة إلى نوم الريم عندما ينعس. وعلى عمر سنتين يشكل النومُ الريمى ٢٠ . ٢٥٪ من وقت النوم الكلى، ليظلَّ الأمرُ هكذا بَقيةَ الحياة. هناك أمراضٌ، كالألزهايمر والباركنسون، تتسبب فى تقليل طولِ فترة نوم الريم.

النومُ والتغيراتُ الفسيولوجيةُ

لكى يغلبنا النعاسُ لابد أن تنخفضَ حرارةُ الجسم، فالواقع أن حرارةَ الجسم ودورةَ النوم/ اليقظة مرتبطتان بإحكام، وهذا هو السببُ فى اضطراب النوم فى ليالى الصيف الحارة. آليةُ تدفق الدم التى تنقل الحرارة فى الجسم، تعملُ كأفضل ما يكون فيما بين ١٨ و٣٠ م، ولكنْ مع التقدم فى العمر يصبحُ المجالُ أضيقَ (٢٣ . ٢٥ م)، وهذا هو السببُ فى أن تنتشر أمراضُ النوم بشكل أوسع فى كبار السن.

فى النوم اللاريمى ينخفض نشاطُ المخ، ويبطؤ النبضُ، وينخفض ضغطُ الدم. ويبقى تدفقُ الدم إلى المخ كحالته فى اليقظة، كما يبقى معدلُ التنفس على حاله بينما تنخفضُ حرارةُ الجسم. أما فى النوم الريمى فيتزايد نشاطُ مناطق الحركة والإحساس بالمخ، ويزداد معدلُ النبض عنه فى النوم اللاريمى بنسبة قد تصل إلى ٣٠٪، ويزداد تدفقُ الدم إلى المخ بما يزيد عنه فى النوم اللاريمى بنسبة تتراوح ما بين ٥٠ و٢٠٠٪ (حَسَبَ مناطق المخ المختلفة)، ويرتفع معدلُ التنفس. ولكن قد يتخلله انقطاعُ النفس. كما تُكْتَمُ الكُحةُ، أما بالنسبة لحرارة الجسم فتقتربُ من حرارة الجو المحيط: فلا ارتجاف ولا عَرَق!

طول فترة النوم فى الحيوانات

يختلف طولُ فترة النوم الطبيعية بين أنواع الحيوانات اختلافاً بَيِّناً: فهو فى القطة والفأر ١٢ ساعة، وفى الأرنب ١١.٤ساعة، وفى الكلب ١٠.٦ ساعة، والشمبانزى ٩.٧ ساعة (كإنسان العصر الفيكتورى!)، وفى البقرة ٤ ساعات، وفى الأغنام ٣.٨ ساعة (تستطيع الماشيةُ والأغنامُ والفيلةُ أن تنام واقفة، لكنها فى هذا الوضع لا تدخل إلى نوم الريم، ولكى يحدثَ هذا لابد للحيوان أن يرقد. النوم والحيوان واقف ليس نوماً كاملاً)، وفى الفيل ٣.٥ ساعة، وفى الحمار٣.١ساعة، وفى الحصان ٢.٩ ساعة وفى الزرافة ١.٩ ساعة!

النــــومُ... لمــــاذا؟

تشير التجاربُ على الحيوانات إلى أن النومَ أمرٌ أساسىٌ للبقاء. خُذْ التجاربَ التى أُجريت على الجرذان. تعيش هذه الحيواناتُ عادةً سنتين أو ثلاثة، فإذا حُرِمَتْ من نوم الريم فإنها تحيا خمسةَ أشهر فقط، أما إذا حُرِمَتْ من النوم كُلِّيَّةً فلن تعيشَ إلا ثلاثة أسابيع. وحرمانُ الإنسان طويلاً من النوم يؤدى إلى البارانويا والهَلْوَسَة. ما هى وظيفةُ النوم حقاً؟

هل هى ترميمُ وتجديدُ أجهزة الجسم بعد ما بَذَلَتْهُ فى استهلاك الطاقة أثناء اليقظة؟ يبقى المخُ نشطاً أثناء النوم، لكن معدلَ الأيض يَقِلُ. سوى أننا لا نمتلك قرائنَ علميةً تقول إن ما يجرى فى النوم من ترميم وتجديد يزيد عما يتم فى أوقات الراحة فى اليقظة. ففيم يختلف النومُ عن أوقات راحتنا والاسترخاء فى النهار؟ نَعَمْ، ينخفضُ تخليقُ البروتين فى الجسم كلِّه، لكن هذا يرجعُ إلى أن فترةَ النوم هى فترةٌ نصوم فيها عن الأكل.

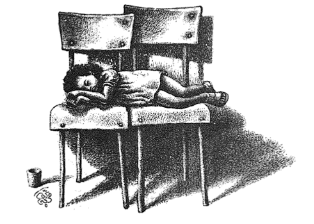
أَيَكُونُ النومُ وسيلةً للحفاظ على الطاقة؟ ترتكزُ هذه الفكرةُ على حقيقة أن الأيضَ ينخفض أثناء النوم. تُصيبُنا الأمراضُ المُعْدِيةُ بالنعاس. وقد يكون ذلك لأن ثَمَّة جزيئات تسمى السيتوكينات cytokines تُنَظِّمُ عملَ الجهاز المناعى (وهى من أقوى المواد التى تجلب النوم). ربما سمح النومُ للجسم بأن يحفظ الطاقةَ ومواردَ الجسم الأخرى، ليستخدمَها الجهاز المناعى فى مقاومة العدوى، إن كان ثمة.

أم يَكونُ النومُ لترسيخ الذاكرة؟ الفكرة هنا تقول إن النومَ يعزز التعلم والذاكرة، ويساعدُ فى نفس الوقت فى مَحْو الذكريات غير المطلوبة ونسيانها (ننام لننسى!). تغمرنا الخبراتُ والأفكار أثناء النهار، البعضُ منها يستحق أن يُحْفَظَ لنذكرَهُ، والبعضُ لا يلزم أن يُحفظ. ربما ساعدنا النومُ فى إعادة ترتيب كل الخبرات والأفكار ليُخَزِّنَ منها ما يلزم ويُهْمِلَ ما لا يهم. ثمة دراسةٌ أُجريت على الطيور المُغَرِّدَة ظهرتْ مؤخراً تقول إن النومَ قد يلعب دوراً هاماً فى التعلم. اتضح أن الطيورَ التى تستمع وهى نائمةٌ إلى تسجيل لأغنياتها، تضطرمُ نيوروناتُها بنمطٍ قد يكون مطابقاً لنمط الغناء، وإن لم تُصدر صوتاً. يعتقد الباحثون أن الطائرَ يحلم بالغناء، فيُعيد الأغنياتِ ويكررها، ويقوى النمطَ العصبىَ المطلوبَ ليصدح بالأغنية. يبدو أن النومَ مهم لتعلم الإنسان أيضاً. إن مَنْ ينعم بالنوم اللاريمى العميق فى النصف الأول من الليل، وبالنوم الريمى فى النصف الثانى تتحسن قدرتُه على التذكر، وهذا يقترحُ أن نومَ الليل الكامل يلعب دوراً فى التعلم:

تتزايد بالفعل الشواهدُ من الأبحاث على أن المخَ يستخدم وقتَ النوم فى توطيد الذكريات التى اكتُسبَتْ أثناءَ النهار. اختُبرَ ١٢ متطوعاً فى تجربة استمعوا فيها إلى كلمات تَعَمَّدَ الباحثون أن تكونَ صعبةَ الفهم. رأى المتطوعون الكلماتِ مكتوبةً فى البداية، ثم طُلِبَ منهم فيما بعد أن يتعرفوا عليها بالسماع فقط. اتضح أن القدرةَ على تَذَكُّر الكلمات الصحيحة تقلُ رويداً رويداً حتى نهاية اليوم. ثم أُعيدَ اختبارُ المتطوعين عقب ليلة نوم جيد، فتذكَّروا بعض الكلمات التى كانوا قد «نَسُوها» فى المساء السابق. «النومُ يُوطِّدُ الذكريات، ويحميها من التآكل». النومُ على ما يبدو «يسترجعُ» الذكريات. إذا انخفض الأداءُ بالتآكل، فبالنوم نستعيد ما فُقد. النومُ يُساعد فى «انضاج» بعض الذكريات، كما أنه «يُشَذِّبُ» أيضاً الذكرياتِ غيرَ المهمة. فى النوم اللاريمى يستعيد المخُ الذكريات بل وقد يُضَخِّمُها، وفى النوم الريمى يُقَدِّحُ زنادُ تعبير جينات معينة فتُخَزِّنُ وتُوَطِّدُ ما عولج فى النوم اللاريمى.

إذا انهمكتَ تتدرب على ممارسة ما، ثم وجدتَ أنك بعد التدريب لا تُتْقِنُها بالصورة التى تُرضيك، فستنسى القضيةَ، ثم تتعجبُ إذ تجد بعد فترة أنك تتقنها! شئ مَّا حدثَ وجعلكَ تُتْقِنُها. الغريب أن الأداءَ لا يتحسن مباشرةً بعد التدريب، وإنما بعد بضع ساعات أو حتى بعد بضعة أيام. وَجَدَ الباحثون أن النومَ ضرورىٌ بعد التدريب، لتحسين الأداء. مرورُ الوقتِ فى حد ذاته لا يكفى. النومُ فى الليلة التالية للتدريب هو الذى يُحَسِّنُ الأداء. النومُ هو الأمرُ المهم. النومُ بعد التعلم مباشرة يكون تأثيرُه. كما تقولُ الأبحاثُ. أفضلَ من النوم فى أى وقت آخر. «أَجِّلْ عَمَلَ اليوم إلى الغد» فيتحسَّنُ أداؤك!!

هل كان النومُ يحمى إنسان الغابة من الافتراس؟ السكونُ أثناء النوم يقلل من تَعَرُّضِ الفرد للمفترسات، سوى أنه يقللُ فى نفس الوقت من الاحساس بالعالم



الخارجى، ومن ثمَّ يزيد من احتمال السقوط ضحيةً للمفترسات!

هل يساعد النوم فى تنامى المخ؟ يبدو أن هذا التنامى يرتبط بنوم الريم الذى يكون طويلاً فى الجنين وفى الوليد، ومرحلة النوم هذه قد تتدخل كثيراً فى تكوين الاقترانات (التشابكات) العصبية بالمخ.

هل يسهم النوم فى تفريغ العواطف؟ ربما كان نوم الريم هو الذى يوفر التنفيس الآمن للعواطف، يحميه الشلل العضلى الذى يحدث أثناءه، فلا يسمح بتنفيذ ما نحلم به. ثم ان مناطق المخ التى تتحكم فى العواطف واتخاذ القرارات والتفاعلات الاجتماعية، يقل عملها أثناء النوم، الأمر الذى يحررنا من الضغوط التى تحدث فى اليقظة.

الساعة البيولوجية

هناك فى جسم الإنسان ساعة بيولوجية biological clock تنظم توقيت نومه، تجعلنا ننام فى الليل ونستيقظ فى النهار. تدور هذه الساعة فترة تبلغ نحو ٢٤ ساعة يومياً (تزيد نحو ٢٠،١٠ دقيقة) لذا تسمى الساعة النحويومية circadian، وهى توجد فى النواة فوق التصالبية superchiasmatic nucleus المستقرة فى الهيبوثالامس hypothalamus بالمخ. الساعة تركيب دقيق للغاية يتألف من عنقودين فى حجم رأس الدبوس، كلٌ يحتوى على نحو عشرة آلاف خلية عصبية (نيورون neuron) (من بين مائة بليون نيورون تؤلف المخ).

الساعة البيولوجية جهاز فسيولوجى مبرمج وراثياً يسمح للكائن الحى بأن يحيا متناغماً مع الإيقاعات الطبيعية المنتظمة. مثل دورة النهار/الليل، أو تغير فصول السنة. وأهم وظائفها هى تنظيم الجسم ليتوافق مع الايقاعات البيولوجية مثل دورة النوم/اليقظة. تتحكم الساعة أيضاً فى الدورات التناسلية لبعض الحيوانات، لقدرتها على تعقب التغيرات فى طول ضوء النهار وظلمة الليل، كما تلعب أيضاً دوراً فى البيات الشتوى لبعض الحيوانات وفى هجرة الطيور.

هناك نوعان من الايقاعات الطبيعية: نوع خارجى المنشأ، ويأتى مباشرة عن ايقاع خارجى بالبيئة، يولد ايقاعات فى الكائن ذاته. إذا أزيل المؤثر الخارجى توقفت. أما الايقاعات داخلية المنشأ فتأتى عن ساعة بيولوجية مكتفية بذاتها لا تعتمد على شئ خارج الجسم: التذبذب فى حرارة الجسم ايقاع داخلى يبقى حتى لو تغيرت الظروف الخارجية.

ولما كان للساعة النحويومية فى معظم الناس طول يوم طبيعى، فلابد أن يعاد ضبطها لتتوافق مع دورة الليل/النهار، أى الضوء/الظلام. الضوء هو الذى يزامن الساعة البيولوجية الداخلية مع الدورة البيئية. مستقبلات الضوء بالشبكية تنقل إلى النواة فوق التصالبية إشارات معينة، وهناك تتفاعل الإشارات مع بضعة جينات تعمل كضابط ايقاع.

تكتشف العين الضوء عن طريق عصيات الشبكية وخلاياها المخروطية التى تقوم بصياغة الصور المرئية. ظل العلماء لسنين طويلة يعتقدون أن الساعة النحويومية تضبط بمساعدة الرودوبسين rhodopsin. وهذا بروتين يكشف الضوء موجود فى العصيات والمخاريط بالشبكية، لكنهم عثروا مؤخراً على شواهد تشير إلى وجود جهاز خاص بالعين لكشف الضوء، ويعتقدون أن هذا الجهاز يقوم بتقدير الاشراق brightness للمساعدة فى ضبط ساعتنا الداخلية. هناك بروتين يسمى ميلانوبسين melanopsin يعتبر أساسياً لهذا الجهاز، ويرى العلماء أن نسبة محدودة من الخلايا الحساسة للضوء بالكتلة العصبية بالشبكية تحتوى على الميلانوبسين وتنقل الإشارات إلى الساعة الحاكمة بالمخ.

اقترحت إحدى الدراسات منذ بضع سنين أن تعريض ظهر الركبة إلى الضوء قد يعيد ضبط دورة النوم/اليقظة، لكن دراسة حديثة بينت أن هذا غير صحيح وأكدت أن الضوء لابد أن يمر خلال العين حتى يؤثر على ساعتنا الداخلية.

تتحكم الساعة النحويومية بالنواة فوق التصالبية فى إفراز الميلاتونين melatonin من الغدة الصنوبرية pineal: يرتفع مستوى الميلاتونين أثناء الليل وينخفض فى الفجر فى الأنواع الليلية والنهارية من الحيوانات، لذا يطلق عليه اسم «هرمون الظلام». تتحكم النواة هذه فى توقيت إفراز الميلاتونين، الذى يعود بدوره إلى النواة وينظم نشاطها. فى الثدييات مثلاً سنجد أن مستقبلات الميلاتونين بالمخ موجودة بالنواة فوق التصالبية، وقد أوضحت التجارب أن الحقن بالميلاتونين يتسبب فى تحولات بالإيقاعات النحويومية فى عدد من الأنواع الحيوانية مثل الجرذان والأغنام والطيور والبشر، وتكون الآثار أوضح إذا ما أعطى الميلاتونين فى غياب موجات الضوء. وعلى هذا سنجد أن حقن الأعمى بالميلاتونين يساعد فى ضبط ساعته البيولوجية.

عرف عن الساعة البيولوجية عام ١٩٥٠، عندما لاحظ العلماء أن طائر الزرزور يستخدم الشمس فى الهجرة، فثمة ساعة بيولوجية توجه الطائر مع تغير الشمس. وكان أول جين يكتشف لهذه الساعة هو الجين بيريود (بير per (period) فى ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)، وذلك فى عام ١٩٧١ (حدد التتابع الدناوى لهذا الجين عام ١٩٨٤). والحق أن الكثير مما نعرفه عن تنظيم الساعة البيولوجية قد جاء عن دراسات على هذه الذبابة. وبعد جين بير اكتشف جين تيمليس (تيم) timeless (tim)، واتضح أن الجينين يدوران مع الايقاع النحويومى. ينشط الجينان مبكراً فى الليل وينتجان الرنا المرسال m RNA الذى يرحل خارج نواة الخلية إلى السيتوبلازم حيث يترجم إلى بروتينين هما TIM و PER. يتراكم البروتينان فى السيتوبلازم، وعندما يصل تركيزهما إلى حد معين، يرتبطان سوياً ليتشكل مركب جديد يدخل إلى نواة الخلية. فى النواة يرتبط هذا المركب بالجينين بير وتيم، ليكبت النسخ منهما، فيتعطل نشاطهما ويوقف إنتاج البروتينين. هى إذن أنشوطة تغذية مرتدة سلبية. بعد فترة يتحلل المركب البروتينى ويبدأ الجينان فى النسخ مرة أخرى.

اكتشفت فى ذبابة الفاكهة جينات تسرع من ايقاعات الساعة النحويومية أو تبطئ منها أو تمحوها. كشف عن ثلاث طفرات فى جين اسمه كلوك clock: طفرة تنتج حشرات تختفى فيها الايقاعات النحويومية، وطفرة تكون فيها الدورة ١٩ ساعة، وطفرة يصل فيها طول الدورة إلى ٢٩ ساعة، بدلاً من الأربع وعشرين ساعة الطبيعية.

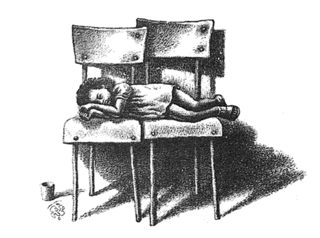
من المثير أن نذكر أن جينات شبيهة قد عثر عليها فى الثدييات، وتقول الدراسات إن الساعة بالثدييات تعمل تقريباً بنفس طريقتها فى ذبابة الفاكهة. عثر العلماء على أول جين فى الثدييات عام ١٩٨٨، بعد أن اكتشفوا حيوانات هامة لها دورة نحويومية طولها ٢٠ ساعة. وفى عام ١٩٩٧ اكتشف جين كلوك فى الفأر، وحدد موقعه وتمت سلسلة دناه. وفى عام ٢٠٠١ اكتشف العلماء أول جين بشرى للساعة البيولوجية أثناء دراستهم لمرض بشرى يغلب فيه النوم المريض مبكراً جداً ليستيقظ تلقائياً قبل الفجر بساعات.

الجين البشرى الطافر hPer2 مسئول عن نمط وراثى من النوم يسمى «متلازمة طور النوم المبكر العائلى» (FASPS). من تظهر به هذه المتلازمة يسمى «قبرة الصباح»، إذ يبدأ النعاس فى السابعة مساء ويستيقظ فى الثانية صباحاً. هناك طفرة أخرى هى hPer3 يصبح بها الفرد «بومة المساء»، إذ ينام متأخراً جداً فى الليل، ويجد صعوبة بالغة فى الاستيقاظ فى الصباح.

عندما تزال الساعة الحاكمة من الجرذان تفسد الدورة اليومية للنشاط والنوم، والمعتقد أنها تزامن الساعات «المحلية» فى الأعضاء والأنسجة المختلفة من الجسم، إما عن طريق الهرمونات أو بتغيير حرارة الجسم. ولقد عثر بالفعل على ساعات تشغلها الجينات مستقلة عن الساعة الحاكمة، فى الكبد والرئة والخصية والأنسجة الضامة والعضلات، ومثل هذه الساعات «المحلية» المستقلة توجد بذبابة الفاكهة فى قرون الاستشعار، فلهذه ايقاع نحويومى مستقل عن ساعة المخ الحاكمة. ذبذبة قرون الاستشعار ترتبط بحاسة الشم التى تكون أكثر حساسية فى الليل عنها فى النهار.

الشيخوخة قد تفسد تزامن الساعات «المحلية» عبر الجسم، وتزامنها مع ساعة المخ الحاكمة. تقول نتائج البحوث إن النشاط الكهربائى بالساعات البيولوجية الداخلية لكبار السن من الجرذان، لا يكون فى نفس انتظامه فى صغارها، وعلى هذا سنجد أن الجرذ العجوز يفعل ما يفعله كبار السن منا: يقيل أثناء النهار!

ربما ساعدت جينات



الساعة البيولوجية يوماً فى علاج السرطان. هناك ٨ جينات على الأقل من هذه الجينات تُنسِّق الوظائفَ الطبيعية فى الجسم، مثل تضاعف الخلايا (غير المحكوم فى السرطان) وانتحار الخلايا (الذى يُعطَّل فى خلايا الورم السرطانى). ظَهَر من البحوث أن إزالة الجين mPer2 من خلايا الفأر يجعلها سرطانية، ولا تنتحر. فإذا كانت جيناتُ الساعة البيولوجية تلعبُ بالفعل دوراً فى السرطان، فمن الممكن أن تُستهدَف لإنتاج أدويةٍ جديدةٍ توقِفُ هذا المرض.

شلل النوم

يحدث أحياناً أن تستيقظَ فجأةً فى أعماق الليل يخالجك الشعورُ بأن شرًّا ما يحيط بك. لا تستطيع التنفس. تحس بأن هناك مَنْ يضغطُ على صدرك ويحاول أن يخنقك. تُصابُ بالذعر عندما تكتشف أنك لا تستطيع أن تتحركَ.

تحسُّ بشلل النوم هذا إذا استيقظتَ لسببٍ أو لآخر فى مرحلة نوم الريم، يستيقظ مخُّك فى حالة نصف ريم، بينما جسدك لا يزال مسترخياً نصفَ مشلول. تقع فريسةً ما بين عالَم الواقع وعالَم هلوسة الأحلام، ثم لا تستطيع أن تصلَ إلى هذا ولا ذاك. «تكافح» كى تتحرر فلا تستطيع. يزداد خوفك وتشعر وكأن عجوزاً شمطاء تجلس على صدرك. وفى الوقت الحرج، وقبل أن تتمكنَ منك الشمطاء، يُفرز جسمُك دَفْقَةً من الأدرينالين تخرجه من الشلل.

تصيبُ هذه الحالةُ نحو ٢٥٪ من الناس، ويَخْبرُ الغالبيةُ العظمى من هؤلاء رعباً هائلاً قلّما يتحدثون عنه إذ لا يحبون مناقشته حتى لا يعتقدُ السامعُ أنهم قد أصيبوا بخللٍ عقلى!

تقول الأبحاثُ الطبية إن شللَ النوم ليس على وجه العموم مؤذياً، إنه لا يستغرق سوى بضع ثوان، وقد يطولُ ليصبح بضع دقائق، لكنَّ مَنْ يَخْبِرُهُ سيعتقدُ أنه قد استمر ساعات. تشير نتائجُ التجارب إلى أن احتمالَ حلول هذا الشلل بين مَنْ ينامون على ظهورهم يبلغ خمسةَ أضعاف احتمال ظهوره بين مَنْ ينامون فى أى وضع آخر. إذا تجنَّبْتَ النومَ على ظهرك قلَّ شلل النوم كثيراً. فإذا ما وَقَعْتَ فريسةً له فما عليك إلا أن تحركَ جزءاً من جسدك، رأسكَ مثلاً أو اصبعكَ أو أحدَ أصابع قدمك، أو حتى أن «تَبَرْبِش» بعينيك. هذا يكفى «كعلاج» طبىٍ فى الحقيقة، بل ويمكنك أن تقوم بهذا فى عقلك إذا لم تستطع أن تحركَ رأسك أو اصبعك. حاولْ فقط أن تتخيل أنك تحركُ رأسك أو اصبعك لتُبْقِى عقلَك نشطاً بما يكفى كى يدرك جسدُك الأمرَ فيتحرك لإيقاظك وينتهى الشللُ.

هناك عائلاتٌ يجرى فيها شللُ النوم هذا، الأمر الذى قد يشير إلى أنه وراثى، لكن الكثيرين يعتقدون أنه يأتى نتيجةً لمشاكل سيكولوجية أو بيئية.

الأحلام

فى الليلة التى ينام فيها جيداً، يقضى الفردُ نحو ساعتين وهو يحلم. قد تتذكر بعضَ الأحلام عندما تستيقظ إذا كانت ذاتَ طبيعة استثنائية شاذة، لكن هناك من الأحلام ما يعكس خبراتٍ واقعيةً. ورغم ذلك فإن أحلامَ نوم الريم عادةً ما تكون خبراتٍ جديدةً إبداعيةً، كالأعمال الروائية كلُّها كلماتٌ وأحداثٌ وأفكارٌ وإحساساتٌ خياليةٌ، وليست مجردَ سَرْدٍ لأحداثٍ واقعية. لا يبدو أن لمؤثرات ما قبل النوم أثراً كبيراً على محتوى الحلم. لكن المصدر الذى يُستَقَى منه الحُلْمُ لا يزال مجهولاً.

يعتقد معظمُ العلماء أن الأحلامَ تحدث لكل البشر بنفس التكرار تقريباً: وعلى هذا فإذا اعتقد البعضُ أنهم لا يحلمون أو أنهم قد حلموا مرةً واحدة فقط فى ليلة معينة، فإنما يكون هذا لأن تذكُّرهم للأحلام قد خَفَتَ أو تلاشى من الذاكرة.

يُفْتَحُ نومُ الريم ويُغْلَقُ عن طريق منطقة الجسر Pons بالمخ. أما ما ينظم الأحلامَ فمنطقتان بعيدتان عن الجسر (وتتحكمان فى وظائف عليا بالمخ)، من هنا يمكن أن يُفْصَلَ النومُ عن الحلم، كما يحدث أحياناً عند تعاطى مخدراتٍ معينة، أو عندما يحدث عطبٌ ما فى الجسر، فيفقد الفردُ نومَ الريم ولا يَفْقِد الحُلْمَ، أو عندما يحدث عطبٌ فى مناطق أمامية من المخ فيفقِدُ الفردُ الحُلْمَ ولا يتأثر نومُ الريم. أمكن باستخدام تقنيات التفريس scanning تحديدُ مناطق المخ التى تَنْشَط أثناء أحلام الريم، أما المناطقُ التى تكون خاملةً أثناء الحلم فتشمل تلك التى تنظمُ الذكاءَ والوعىَ والاستدلالَ المنطقىَّ. لا تزال أهميةُ الأحلام لصحة النائم مجهولةً، وكذا معنى الأحلام.

الجيت لاج

من بين النتائج السلبية للساعة البيولوجية هناك ما يصيب المسافرين عبر مناطق زمنية مختلفة، والذى نعرفه باسم الجيت لاج jet lag، والذى يَتَسَبَّبُ فى الإفراط فى النوم، وفقدان التركيز، وضعف التحكم الحركى، والاستجابة البطيئة للأحداث، والغثيان، وضيق الصدر. تحدث الجيت لاج عندما تَعْجَزُ ساعتُنا النحويومية عن التكيف مع التغير فى إلماعات الضوء التى يمر بها الشخص عندما يعبر بسرعة مناطقَ زمنية مختلفة. يقع الجسمُ عندئذ فى «لخبطة». الساعة البيولوجية تحمل الايقاعَ المُهيَّأ لمنطقة الزمن الأصلية، وهذا يختلف عن إلماعات الضوء فى المنطقة الزمنية الجديدة. هذا اللاتزامنُ يؤثر فى دورة النوم/اليقظة، وغيرها من الدورات: تخرج كلُّ دورات الجسم عن التوافق، ويتطلب الأمرُ بضعةَ أيام حتى يتم ضَبْطُ الساعة حسب المنطقة الزمنية الجديدة. الاختلافُ فى ساعات ضوء النهار سيعيدُ ضبطَ الساعة الداخلية.

السفرُ نحو الشرق يتسبب عادةً فى جيت لاج أقسى من السفر نحو الغرب، لأن السفرَ شرقاً يتطلب أن نقصرَ يومَنا، ويتطلبُ إشارات وقت تحدث أبكر مما تعودتْ عليه ساعتُنا البيولوجية. ساعتُنا النحويومية على ما يبدو تكون أقدرَ على التكيف مع يوم أطول منها على التكيف مع يوم أقصر. ربما وَجَدْنا هذا واضحاً عند بدء التحول إلى التوقيت الشتوى (فى بداية الخريف)، عندما يصبح طول اليوم الأول ٢٥ ساعة، ففيه يجد الجسمُ أن التحولَ أسهلُ منه عند التحول إلى التوقيت الصيفى (فى بداية الربيع) عندما يصبح طولُ اليوم الأول ٢٣ ساعة.

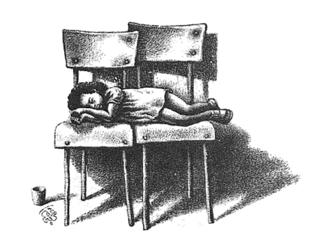
التثاؤب

نتثاءبُ عندما نصحو من النوم ونحتاج إلى الحركة، ونتثاءبُ عندما نستعدُ للنوم. يتثاءبُ الجنينُ فى بطن أمه وعمره ١١ أسبوعاً. يبدأ الوليدُ فى التثاؤب بعد ولادته ببضع دقائق. الرياضيون يتثاءبون عند بداية المباراة، المظليون يتثاءبون قبل القفز من الطائرة، الطلبةُ يتثاءبون قبل الامتحان، الموسيقيون يتثاءبون قبل بداية العزف. لكن مرضى الشيزوفرانيا نادراً ما يتثاءبون. التثاؤب، كالابتسام والضحك، يُعْدِى. لكنَّ الأطفال قبل سن الثانية لا يتثاءبون بالعدوى. الشمبانزى والقردةُ العليا تتثاءب مثلنا، والقططُ أيضاً.

كانت الفكرةُ الشائعة هى أننا نتثاءبُ لحاجة الجسم إلى الأكسجين أو بسبب زيادة نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الدم. أما السببُ فى أن التثاؤبَ يُعْدى فهو أن الموجودين فى نفس المكان يحتاجون هم أيضاً إلى الأكسجين. لكن بروفاين Provine سنة ١٩٨٧ أثبتَ أن هذا خطأٌ. إن صورةَ شخص يتثاءبُ قد تدفعك إلى التثاؤب، بل ويكفى حتى صوتُ شخص يتثاءب. يبدأ نحو نصف الكبار (٤٢ - ٥٠٪ منهم) فى التثاؤب مباشرةً عند مشاهدة أفلام فيديو عن التثاؤب. ولقد تتثاءب وأنت تقرأ هذا!!

التثاؤبُ عمليةٌ لا إرادية. وجد الباحثون سنة ٢٠٠٥ أن ثمة تعطيلاً واضحاً لمنطقة بالمخ حول الأميجدالة يزداد مع تهيؤ الفرد للتثاؤب بعد رؤية آخر يتثاءب. هذه المنطقةُ من المخ ترتبطُ بالتحليل اللاشعورى للتعبيرات العاطفية فى الوجه. لكنْ، لا أحدَ يعرف لماذا يتعطل نشاطُها مع عدوى التثاؤب.

يأتى التثاؤبُ استجابةً لمجالٍ واسع من المسببات: الاقتراب من النعاس، الاستيقاظ من النوم، الجوع، الضجر، الهلع، التعب، الاجهاد، ويكون أشدَّ وأقوى فى الصباح الباكر عنه فى الليل. يستمر التثاؤبُ فترةً تتراوح ما بين ٥ و١٠ ثوان، وهو فى الذكور أقوى منه فى الإناث وأطول. عند التثاؤب يَتَّسع الصدرُ، ويهبط الحجابُ الحاجزُ والحنجرةُ، ويرتفع جناحا الأنف ولَهاة الحلق، ويُسْحَبُ اللسانُ إلى أسفل إلى الخلف، وتُبعدُ الأوتارُ الصوتية، ويُفْتَحُ الفمُ على



اتساعه للشهيق العميق، وتُغلقُ الغددُ الدمعية للعين، ويزداد ضغطُ الدم ومعدلُ النبض. فإذا أطبقتَ فكَّيكَ ولم تفتحْ فمَكَ، فلن تجدَ التثاؤبَ مُشبِعاً! بَسطُ عضلات الفك والوجه أمرٌ ضروري للتمتع بالتثاؤب! في التثاؤب مُتعةٌ؟!

يرى بعضُ العلماء أن عدوى التثاؤب قد نشأتْ في وقت ما من تاريخنا التطوري، لأنه يخدم في تنسيق السلوك الاجتماعي للجماعة. مواعيد النوم والاستيقاظ على وجه الخصوص. ربما كان هذا جزءاً من ظاهرة عامة للإشارات اللاشعورية التي تُستخدم في توقيت السلوك الجماعي. عندما يتثاءبُ فردٌ فإنه ينقلُ إشارةً إلى الآخرين، فيتثاءبون ويستعد الجميعُ للنوم. مثلُ هذا التواقت قد يكون أساسياً لبقاء النوع، مثلما يبدأ سربُ الطيور في الطيران بمجرد أن يرتفع طيرٌ واحدٌ منطلقاً في الهواء، لأنه «فَرضاً» قد لاحظَ خطراً يقترب! إننا نتثاءبُ كي نَبقَى معاً، ونُواقتُ نشاطاتنا، نتثاءبُ كي يُخبرَ بعضُنا بعضاً بأن موعدَ النوم قد أزف، أو أن الوقتَ قد حان للاستيقاظ والبحث عن الطعام!

السائرون نياماً

السيرُ أثناء النوم somnambulism، أو السَّرْنَمَةُ، حالةٌ يختلط فيها النومُ باليقظة، يصحو فيها الفرد جزئياً ليمشي. يحدث هذا أساساً في الثُّلث الأول من الليل، بعد ساعة أو ساعتين من النوم، والطفلُ في مرحلة النوم العميق اللاريمي. ولا يحدثُ في مرحلة النوم الريمي. يبدو الطفلُ يقظانَ مرتبكاً عاجزاً عن معرفة ما يفعل: عيناه مفتوحتان بهما نظرةٌ زجاجيةٌ وعلى وجهه تعبيرٌ مَشدُوهٌ، يتجول بلا هدف في المنزل، ليقوم بأفعال تبدو مقصودةً، فلقد يتوجهُ إلى حجرة أخرى بالمنزل لينامَ فيها، أو يمضي إلى المطبخ ليأكل، أو قد يخرجُ إلى الشارع، بل وربما تَوجَّهَ إلى النافذة وفَتحَها وسَقطَ منها! ولقد يدخلُ في حديث مع الآخرين، إنما بكلام مشوش لا يُفْهَمُ له معنى. تستمر هذه الحالة ٥ . ٢٠ دقيقة، والعادةُ ألاّ يتذكرها الطفلُ عندما يستيقظ، ولا يجب في الحقيقة أن نُذكِّرهُ بها وإلا خاف من النوم فيما بعد، بل ولا يجب أيضاً أن نوقظَه وهو في هذه الحالة ولا أن نتحدثَ معه بصوت مرتفع، يكفي أن نصطحبَهُ بهدوء إلى فراشه، إذا سَمحَ هو بذلك.

لا أحدَ يعرفُ السببَ الحقيقي لسلوك الأطفال هذا، وإن كان في العادة «صفةً تجري في العائلة»، بمعنى أنه على الأغلب وراثي. تقول الدراساتُ على التوائم المتطابقة أنه إذا كان أحدُ التوأمين يسير نائماً، فالأغلبُ أن يكون الآخرُ كذلك أيضاً. هي صفةٌ يقدحُ زنادَها نومُ الطفل في مكانٍ غريب، وتراكم فترات قلة النوم، والحُمّى، ولكن يَندُر أن يرتبطَ هذا السلوك بالحالة السيكولوجية. ولقد رُصِدَ معامل تلازم مرتفع (+٠.٧٣) في الأطفال بين السَّرْنَمَةِ وبين التكلم أثناء النوم (بلغَ هذا المعامل +٠.٥٦ في كبار السن).

تصيبُ هذه الحالةُ الأطفالَ بخاصة، لاسيما بين عمري ٨ و١٢ عاماً. عندما تَصلُ نسبةُ مَنْ يعاني منها، مرةً واحدة على الأقل، إلى نحو ١٧٪، لكنها تختفي قبل البلوغ في معظم الحالات، وإن كانت قد تَحلُّ بالبعض بعد البلوغ. هناك نحو ٤٪ من البالغين يسيرون نياماً. أما السببُ في معظم حالات الأطفال فوراثي. إذا كنت مُسرنَماً فثمة احتمالٌ يبلغ ٤٥٪ في أن يُولدَ لك طفلٌ مثلُك، وإذا كنت وزوجتُك سوياً مُسرنَمَيْن فقد يرتفع الاحتمالُ إلى ٦٠٪!

أما ما يُسبِّبُ السرنمةَ في الكبار، فهناك بجانب الوراثة أحوالٌ تزيد من احتمال ظهورها، منها: الإجهادُ الجسدي والعاطفي، وانخفاضُ إفراز الغدة الدرقية، والصداعُ النصفي، وإصاباتُ الرأس، والتهابُ الدماغ، والحمى، وانقطاعُ النَّفَس أثناء النوم، وتعاطي بعض أدوية علاج الأمراض النفسية (كالليثيوم) أو أدوية علاج مرض باركنسون، ونقصُ المغنسيوم، وأيضاً السفرُ عبر مناطق زمنية مختلفة، أو النومُ في مكان غير مألوف. وقد اتضح أن نسبةً كبيرةً ممن يسيرون أثناء النوم من الكبار قد خَبَرُوا السرنمةَ وهم أطفال، نسبةٌ تبلغ ٢٥٪ في الرجال و١٨٪ في النساء. وتَأخُّرُ ظهور السرنمة في الكبار عادةً ما يعني أن وراءَها سبباً عضوياً.

في دراسة نُشرت سنة ٢٠٠٢ شملتْ ٧٤ «مريضاً» بالغاً ممن يسيرون نائمين (٥٨٪ منهم كانت الصفةُ قد ظهرتْ بهم وهم أطفال، وكان لنسبة ٢٤٪ من هؤلاء أقاربُ يسيرون نُوَّماً) اتضح أن أكثر من نصفهم يحمل صيغةً من جين (هو DQB1)، لا يوجد إلا في ربع عينةٍ من الأصحاء استُخدمت للمقارنة. هذا الجينُ هو واحدٌ من عائلة من الجينات تُنتج بروتينات اسمها هلا HLA تختص بتنظيم الجهاز المناعي. وقد اتضح أيضاً أن هذا الجين يرتبط بمرضٍ آخر من أمراض النوم، هو الخَدَر.

التَّعْسيلةُ (القَيْلُولَةُ)

التَّعْسِيلةُ (أو ضجعة الظهيرة) هي فترةٌ قصيرةٌ من النوم يأخذها الفردُ بعد وجبة منتصف اليوم، وتُعتَبرُ فترةً وجيزةً من الراحة الخفيفة أكثر منها نوماً جاداً. لا يعرفها الأطفالُ عادةً وكلهم يتعلمونها في نهاية المطاف. يحدث في منتصف النهار أن يقلَّ نشاطُ الجسم وتنخفضَ حرارتُه (في الرجال أوضح كثيراً من النساء)، الأمرُ الذي يتسبب في حالة وَسَنٍ تشبه ما يحدث لنا ليلاً في المرحلة الأولى من مراحل النوم. فيغلبُنا النعاس. وإشباعُ هذه الرغبة في النعاس يجعلنا نصحو ونحن نشعر بالراحة والنشاط.

التعسيلةُ تُعزِّزُ التعلمَ والذاكرةَ. أجريتْ تجربةٌ قورنت فيها مهاراتُ التعلم والذاكرة لمجموعتين من الناس خلال يوم واحد ومعه صباح اليوم التالي. حُرِمتْ مجموعةٌ من النوم تماماً طولَ النهار، فأخذ أداؤهم يتناقص حتى العصر والمساء. سُمحَ للمجموعة الأخرى أن يعسِّلوا لمدة ٦٠ . ٩٠ دقيقة في الساعة الثانية ظهراً، ثم فُحصت موجاتُ المخ في مرحلتي نوم الموجة البطيئة ونوم الريم. تقول النتائج إن مَنْ كان نومُهم يتضمن المرحلتين كانوا أفضلَ أداءً ممن لم يناموا، عندما اختُبروا في نهاية النهار، أما مَنْ لم يَصلْ منهم إلى نوم الريم فكان أداؤهم أقلَّ ممن مَرَّ بمرحلتي النوم. كان أداءُ مَنْ تَمكَّنَ من تعسيلة جيدة على نفس جودة أداء متطوعين في دراسات أخرى اختُبروا بعد نَوْمِ ليلتين نوماً جيداً. انتهى الباحثون إلى القول بأن التعسيلة تعادل نومَ ليلة كاملة بالنسبة للتعلم. إنها وسيلةٌ لتسديد جزء من «دين النوم»، وكلُّنا مَدين!

دَيْنُ النَّوم

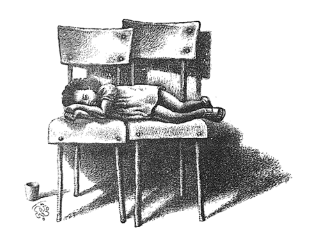
دَيْنُ النوم هو القَدْرُ من النوم الذي كان يلزم أن تأخذَه، ولم تأخذه. الحرمانُ من النوم يسبب الشعورَ بالإرهاق بالنهار، والخمولَ والقلقَ والكآبةَ وضيقَ الصدر وانخفاضَ قدرة المخ على التركيز أو التذكر، وضَعْفاً جسمانياً يصعب معه القيامُ بالمهام البسيطة، أما المهامُ الأصعبُ فتبدو لك مستحيلةً. استرخ، فإذا بدأتَ تشعر بأنك تَعِبٌ، أو أصابكَ الوَسَنُ وشعرتَ بالرغبة في النوم، فستكونُ هذه إشارةً بأن عليك دَيْناً!!

يمكن تقدير دَيْن النوم إذن بالسرعة التي يغلبُك فيها النومُ أثناء النهار. العطشُ الشديد يجعلك تشربُ كوبَ الماء، إذا تَوفَّر، في لمحة. مَنْ يحمل دَيْناً من النوم ثقيلاً ينعس على الفور إذا أُتيحت الفرصةُ أثناء النهار. ٩٠٪ من الناس يعتقدون أن وجبةَ الغذاء الثقيلةَ ظهراً هي السببُ في الوَسَن الذي يستحثُ النعاسَ في الظهيرة. وهذا خطأٌ فادح. إذا لم يكنْ لديك مِنْ دَيْن النوم الكثيرُ فلن تُحسَّ بالحاجة إلى النوم بعد الوجبة في منتصف النهار. البعضُ يتصور أن الرتابةَ ودفءَ الحجرة والكحوليات كلَّها تسبب النعاسَ، وهذا أيضاً خطأٌ بَيِّن. هذه العواملُ جميعاً لا تسبب النعاسَ، إنما هو حجمُ دَيْن النوم! يحاول البعضُ منا، جَهْلاً، أن يجدوا في شُرْبِ القهوة بديلاً عن النوم نهاراً. وهذا أمرٌ لا طائل وراءه، ولا يُسدِّدُ دَيْنَ النوم. لا سبيلَ إلى تسديد الدَيْن إلا بساعات نوم إضافية.

الأَرَقُ (السُّهَادُ)

الأَرَقُ هو ألاَّ تتمكنَ من أن تنالَ ما تحتاجه من النوم المريح أثناء الليل، أن تَجِدَ صعوبةً في الولوج إلى النوم، أو أن تستيقظَ كثيراً أثناء النوم ثم يصعبُ عليك أن تنامَ ثانية، أو أن تستيقظَ مبكراً جداً في الصباح.

الكثيرون منا يعانون كلَّ ليلةٍ من الأرق على مستوى ما: في كل ليلةٍ يعاني من الأرق ١٠



. ١٥٪ من الناس. الأرق يصيب النساء أكثر مما يصيب الرجال، لاسيما الحوامل منهن. ربما بسبب التغيرات التى تحدث فى الهرمونات والحاجة إلى التبول وحركة الجنين داخل البطن، بل وشكل الجسم الذى قد يغير من وضعة النوم.

والحصول على ما يكفى من النوم أمر أساسى للصحة والسلامة. فللأرق آثاره السلبية على المزاج، ويسبب زيادة دين النوم، مما يتدخل سلبياً فى النشاط اليومى للشخص وفى علاقاته مع الآخرين وأدائه فى العمل. ولقد يتسبب أيضاً فى مخاطر جسدية، ربما كان أخطرها النعاس أثناء قيادة السيارة.

يحدث «الأرق العابر» بين الفينة والفينة، وهو قصير لا يستمر طويلاً. بضع ليال متقطعة فقط خلال أقل من أربعة أسابيع، وعادة ما يكون السبب ظرفاً طارئاً مؤقتاً، مشكلة عاطفية مثلاً أو واقعة مؤلمة، أو يوماً مرهقاً فى العمل، أو ضجة حدثت أثناء النوم، أو خطأ حل بالساعة البيولوجية بسبب الجيت لاج، أو أثراً جانبياً لتعاطى أدوية الكحة أو البرد.

أما «الأرق المزمن» فيستمر ثلاث أو أربع ليال فى الأسبوع، لمدة شهر أو أكثر، والعادة أن يكون نتيجة لعوامل مركبة، فأسبابه فى الواقع متعددة منها الإصابة بالربو والتهاب المفاصل، والاكتئاب العميق، وتعاطى أدوية ضغط الدم والكافايين (فى الشاى والقهوة والكاكاو والكولا) والنيكوتين والكحول، والقلق الشديد، وانقطاع النفس، وانقطاع الطمث فى النساء. وقد لوحظت فى أصحاب الأرق المزمن مستويات غير طبيعية من بعض كيماويات الجسم، مثل الميلاتونين الذى تنخفض نسبته فى الكثير من الحالات، ومثل الكورتيزول cortisol، هرمون الاجهاد، الذى ترتفع نسبته وهو المعروف بتقليله لنوم الريم.

هناك أيضاً حالة وراثية نادرة من الأرق يمكن أن تغدو فى النهاية قاتلة، تسمى الأرق العائلى المميت.

الغطيط (الشخير)

ليس ثمة ما هو أسوأ من صوت شخص يغط فى نومه بجوارك وأنت تحاول أن تنام! الغطيط مشكلة شائعة للغاية، «تصيب» الصغير كما الكبير: ٢٠٪ من الرجال فى عمر ٣٠ . ٣٥ عاماً يغطون أثناء النوم بضع ليال فى الأسبوع، مقابل ٥٪ من النساء فى هذا العمر. وعلى عمر ٦٠ سنة تصبح النسبة ٦٠٪ بين الرجال و٤٠٪ بين النساء. يقولون إن الغطيط كان مفيداً لأجدادنا القدامى، إذ كان يخيف المفترسات أثناء الليل ويبعدها عن أسلافنا وهم نيام. ولكنه أصبح اليوم سبباً من بين أسباب الطلاق! من بين كبار المشهورين بالغطيط سنجد أبراهام لينكولن، فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل وبنيتوموسولينى. ومثلنا يغط فى النوم الكلب والقطة والفيل والغوريلا والخنزير.

يحدث الشخير عندما لا يستطيع النائم أن يمرر الهواء بحرية خلال أنفه وفمه. يصدر الصوت عن أوركسترا من ذبذبات كثيفة للهاة وسقف الحلق إذ الهواء يندفع خلال مسلك هوائى ضيق ليصل إلى الرئتين. يشترك فى العزف أيضاً اللسان واللوز والزوائد الأنفية إن كانت متضخمة. فى اليقظة تبقى العضلات الحلق مفتوحا، فإذا ما نام الفرد ارتخت عضلات الحلق واسترخت إلى الداخل فيضيق الحلق، ومع ازدياد ضيق مسلك الهواء تزداد حدة الغطيط. ومع التنفس يبدأ الحلق فى التذبذب، وتسبب الذبذبات صوت الشخير. فإذا كان ثمة انسداد بالأنف، تنفس النائم عن طريق الفم، وفتح الفم يدفع اللسان إلى الخلف، وهذا يضغط على مؤخرة الحلق لينطلق أيضاً عزف الغطيط. بجانب انسداد المسالك الأنفية الهوائية هناك أسباب عديدة أخرى للغطيط منها الحساسية الفصلية، واحتقان الأنف المزمن، والتواء الحاجز الأنفى، وتضخم اللوزتين والزوائد الأنفية، والسمنة، والتدخين وشرب الكحوليات قبل النوم. والعادة ألا يكتشف الشخص أنه يغط فى النوم، وإنما يخبره بذلك الآخرون ممن أزعجهم شخيره وقض نومهم. قد يغط البعض وهم جلوس إذا ناموا. كنت مرة فى جلسة نام رئيسها البدين وبدأ فى غطيط غريب مزعج، أيقظته، فصحا وأكد لى أنه لم يكن نائماً، فقلت إنها أول مرة أرى فيها شخصاً يشخر وهو مستيقظ!!

قد يتسبب الشخير فى الاجهاد والتعب أثناء النهار، ويبدو أنه يسهم فى خطر ازدياد ضغط الدم، والسكتة الدماغية.

من بين طرق معالجة الغطيط أن تنام ورأسك على مخدة مرتفعة، أو ترفع رأس السرير بضع بوصات وأن تغير وضعتك فى النوم فلا تنام على ظهرك، وأن تتجنب الوجبات الثقيلة قبل النوم، وأن تتأكد من عدم تضخم اللوزتين والزوائد الأنفية واللهاة، وأن يعمل السمان على تخفيض وزن أجسامهم.

انقطاع النفس

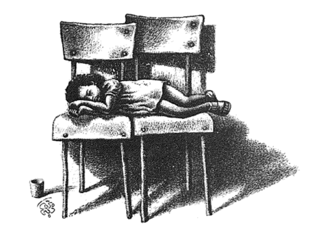
من بين الأمراض التى قد يتسبب فيها الشخير، مرض خطير من أمراض النوم هو انقطاع النفس apnea الذى يصيب نحو ٤٪ من البشر، وفيه يتوقف النائم بالفعل عن التنفس لفترة قصيرة (١٠ . ٣٠ ثانية) لعدد من المرات يتراوح بين ٣٠ و٣٠٠ مرة فى الليلة الواحدة. عندئذ يستيقظ النائم لاهثاً يطلب الهواء، ثم ينام ثانية. فإذا ما استيقظ فى الصباح لم يتذكر ما حدث له، لكنه يحس بصداع مؤلم يلازمه طول اليوم فيبدو مرهقاً منهكاً، بل ولقد يجد صعوبة فى أن يبقى مستيقظاً حتى أثناء محادثاته مع الآخرين. اكتشف مؤخراً أن لدى مرضى القلب الذين يعانون من انقطاع النفس مستويات مرتفعة للغاية من حامض الهوموسيستاين الأمينى الذى يفرزه الجسم. مثل هذه المستويات المرتفعة قد تثير الأوعية الدموية وتؤدى إلى انسداد الشرايين. اتضح أيضاً أن من يعانون من انخفاض إفرازات الغدة الدرقية معرضون أكثر للشخير وانقطاع النفس، فالعادة أن يكون هؤلاء من السمان، ولأن اللسان لديهم عادة ما يكون ضخماً، ومع احتمال أن تصطحبه أيضاً ترسيبات دهنية فى الممر الهوائى الأعلى، فإن احتمال حدوث انقطاع النفس عادة ما يكون فيهم كبيراً.

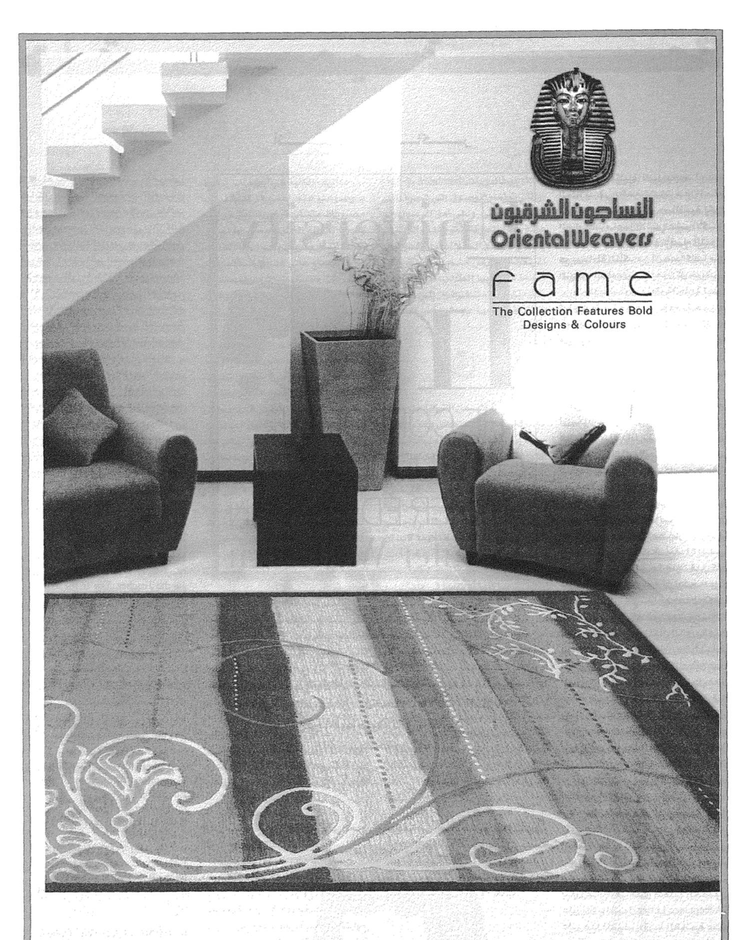
ثمة علة أخرى من علل النوم نادرة للغاية، هى الخدار narcolepsy، تصيب نحو نصف فى المائة من الناس، وفيها يسقط الفرد فجأة نائماً فى أوقات غريبة وبشكل متكرر عبر النهار. هذه أيضاً علة خطرة موهنة.

الكوابيس ورعب الليل

الكابوس nightmare حلم يحدث فى النوم الريمى يحس فيه الشخص بخوف وفزع رهيب، وكرب وقلق فظيع فيستيقظ هلعاً. جزئياً على الأقل. تحدث هذه الظاهرة نمطياً فى الجزء الأخير من الليل، فى الصباح الباكر، وعادة ما توقظ النائم الذى يمكنه دائماً أن يتذكر فحوى الحلم. قد تكون معظم الكوابيس مجرد رد فعل لضغوط الحياة. فإذا تكرر نفس الكابوس عدداً من المرات أصبح مرضاً قد يفسد حياة الفرد الاجتماعية والوظيفية. تبدأ الكوابيس، عادة قبل عمر ١٠ سنوات، وتعتبر أمراً طبيعياً فى الطفولة، وهى أكثر شيوعاً فى البنات عنها فى الصبيان. وقد تستمر الكوابيس حتى سن البلوغ وعندئذ فكثيراً ما تكون مرتبطة بمشاكل خارجية ونفسية. ورغم ذلك فإن ٥٪ من الكبار يخبرون الكوابيس بين الفينة والفينة، النساء أكثر من الرجال. تعاطى وجبات الطعام الثقيلة مباشرة قبل النوم قد يرفع أيض الجسم والمخ، ويسبب الكوابيس. على أن هناك نسبة تبلغ ١٪ من الكبار يعانون من الكوابيس المتكررة. يبدو أن الوقوع فريسة الكوابيس أمر يجرى فى العائلات.

أما رعب الليل night terror فيحدث أكثر ما يحدث فى الصبيان قبل البلوغ، وإن كان يصيب البنات والبالغين أيضاً. هو ظاهرة شائعة فى الأطفال بين عمر ٣ و٥ سنوات، وأقل كثيراً بعد ذلك. يحدث رعب الليل والطفل لا يزال فى مرحلة النوم العميق اللاريمى فى الثلث الأول من الليل بعد ساعة أو ساعتين من نومه. يجلس الطفل فى سريره ويبدأ وهو نائم فى صراخ مذعور لمدة دقيقة أو دقيقتين، وقد يستمر خمس دقائق، جسده يتصبب عرقاً ونبضه قد تزايد وعيناه مفتوحتان. لكنه لا يصل إلى اليقظة الكاملة، كما يصعب تهدئته، ثم يعود إلى النوم ثانية ولا يتذكر الواقعة عندما يستيقظ فى الصباح. ■





النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
fame
The Collection Features Bold
Designs & Colours

حقيقة

أنـــــدروهـــاكـــر

■■ لم يعد التعليم العالى الأمريكى كما كان «محمية الصفوة ذات الامتياز» مع وجود أكثر من سبعة ملايين طالب جامعى ملحقين الآن بحوالى ٢٦٠٠ كلية تمنح درجات البكالوريوس ودرجات عليا. في عام ٢٠٠٢ - آخر السنوات المتاحة للإحصاء نال ١,٢٩١,٩٠٠ طالب دبلومات و٩٥٨,٦٠٦ أتموا برامج التخرج الجامعي. العدد الأخير يستحق الانتباه حيث إنه يخبرنا أن نصف من أتموا الجامعة تقريباً يؤمنون أن درجة واحدة لم تعد كافية لما يريدون أن يفعلوه أو يكونوه.

دراسة أخرى وجدت أنه بين الكبار من عمر ٣٠ إلى ٣٤، فإن ٤١٪ فقط التحقوا بالمرحلة الثانوية دون أن يذهبوا للجامعة. وفوق ذلك فإن هؤلاء المتخرجين من المرحلة الثانوية يمثلون جزءاً متضائلاً من تعداد الطلاب. وهناك نسبة ٣٢٪ أخرى حصلوا على درجة البكالوريوس على الأقل، بينما أمضى ٢٧٪ وقتهم في الحرم الجامعى دون إتمام الدراسة.

ورغم ذلك فإن الادعاء الذي يقول إن تقريباً ستة من كل عشرة أمريكيين في بداية الثلاثينيات لديهم نوع ما من الخبرة الجامعية، هذا الادعاء يحتاج إلى إمعان أكثر للنظر. وهذه الخبرة يمكن أن تتراوح من السيمنارات المصغرة في الفلسفة بجامعة «كولجيت» إلى محاضرات إدارة الفنادق بولاية ميسورى. بعض الكليات بها مناهج مركزية صارمة: الطلاب في كل الأقسام لابد أن يختاروا مقررات من قائمة ضخمة من أجل تجميع الـ ١٢٨ نقطة (Credit) المطلوبة للبكالوريوس. وجامعة «ريد» تحدد عدد قبولها عند ١٣١٢ طالباً، بينما جامعة ولاية متشيجان يكون عدد الطلاب الملتحقين ٣٤,٦١٧ طالباً.

University Inc. THE CORPORATE CORRUPTION OF HIGHER EDUCATION Jennifer Washburn



الناس يرسلون أبنائهم إلى هارفارد. قبل كل شيء. لأنهم يريدونهم أن «ينجحوا». والإشارة المبكرة إلى نجاحهم سوف تكون الكلية التى سيلتحقون بها



[١]

في الواقع، هناك أماكن مفتوحة لأى شخص يريد أن يحصل على درجة بكالوريوس ويمكنه تحمل تكاليفها، والكثير من الكليات تعمل بجهد لجذب الطلاب. في دراسة نشرت هذا العام استنتج جيمس فالوز أن: «بالنسبة لكل الجامعات ماعدا الاثني عشر الأكثر ثراء»، من الأجزاء المهمة لأقسام القبول هو ببساطة التأكد من أن عدداً كافياً من الزبائن الدافعين سيتقدمون كل خريف».

مجلة برنستون - منظمة تجارية ليس لها روابط بالجامعة - تقوم بتجميع معلومات عما تسميه «أفضل ٣٥٧ كلية» في الولايات المتحدة. وهي تقرر أن هناك كليات حسنة السمعة رغم أنها أقل شهرة مثل Crachoin, Duquesn تقبل على الأقل ٨٥٪ من الذين يملأون الاستمارات. ولكن بالنسبة للأسر الأمريكية لا يهم أن يكون هناك الكثير من الفرص. فالواقع أن أعداداً متزايدة من الآباء يستثمرون المال والجهد لضمان أن أبناءهم يتم قبولهم في كلية معروفة ومرغوبة.

كتب «روس دوثات» بصراحة عن هذه الجهود في يومياته كطالب فى هارفارد في كتابه: «حقوق الامتياز: هارفارد وتعليم الطبقة الحاكمة». ويقول: الناس يرسلون أبناءهم إلى هارفارد. قبل كل شيء. لأنهم يريدونهم أن «ينجحوا». والإشارة المبكرة إلى نجاحهم سوف تكون الكلية التي سيلتحقون بها. وعندما يسأل الأصدقاء عن المكان الذى يذهب إليه الأبناء، يريد الآباء أن يعطوا إجابة تجلب ابتسامة مهنئة؛ ومع ذلك فإن عدد المدارس التي تستحضر رد الفعل هذا صغير نسبياً. وحقيقى أن الناس قد يتذكرون سماعهم عن. مثلاً. جامعات Carleton, Grinnell؟ ولكن لايبدو أنهم يرونها بين جامعات الطبقة الاولي. وكما كتب «دوثات»، فإن الآباء الطموحين لا يرغبون في أن ينظر إليهم على أن لديهم أبناء إنجازهم أقل من الأفضل.

ومن ملاحظاتى الشخصية، ربما يكون هناك ١٥ كلية تقع في قوائم الآباء الطموحين. وهناك بعض المؤشرات التي يتم استخدامها عن طريق الآباء بصورة مشتركة لتبرير تصنيفاتهم. الأولى. بدون غرابة. هي مدى صعوبة الحصول على إذن بالقبول Acceptance Letter. على هذا المقياس، تبدأ القائمة عند هارفارد وبرنستون، واللتين تقبلان فقط ١٠٪ من المتقدمين، ثم تهبط إلى «ديوك Duke»، والتي تغلق عند ربع المتقدمين. وبجمعها معاً استقبل موظفو الالتحاق بهذه الكليات ١٧١,٨٢٤ متقدماً العام

1 - Privilege: Harvard and the Education of the Ruling Class
by Ross Gregory Douthat
Hyperion, 288 pp., $24.95

1 - the Teacher, You're the m'I Student: A Semester in the University Classroom
by Patrick Allitt
University of Pennsylvania Press, 244 pp., $19.95 (paper)

3 - What the Best College Teachers Do
by Ken Bain
Harvard University Press, 207 pp., $21.95

4 - University, Inc.: The Corporate Corruption of American Higher Education
by Jennifer Washburn
Basic Books, 326 pp., $26.00

5 - The Best 357 Colleges: 2005 Edition
by the Princeton Review
Random House, 802 pp., $21.95 (paper)

6 - Profiles of American Colleges: 2005
Barron's Educational Series, 1,669 pp., $26.95 (paper)

ترجمة: أحمد إسماعيل

الماضي، وكانت نسبة القبول الكلية حوالي ١٥٪. وفي الواقع فإن أرقاماً مثل هذه تكون معارف عامة، يتم تسجيلها في الأدلة المعروفة في الكثير من المدارس الثانوية. وعلي ذلك فإن الـ ١٨،٦٢٨ طالباً الذين يملأون استمارات جامعة ستانفورد يعرفون مقدماً أن واحداً من كل ثمانية طلاب سيتم قبوله. وحتى مع إعطاء هذه المعلومات فإن الآلاف يرغبون في المحاولة. ومن جانبها فإن الكليات لا تعوق عمليات ملء الاستمارات، حيث إن معدلات الرفض المرتفعة ترفع من ترتيبها في قائمة us News & world Report وغيره من التصنيفات.

وبالتأكيد فإن مجموع ١٧١،٨٢٤ يحتوي علي التكرارات الفرعية. ففي هذه السن المليئة باللهفة، من غير الغريب بالنسبة لخريج المرحلة الثانوية أن يتقدم إلي عشر كليات أو أكثر. هذا التكرار يكون مضيعة للوقت ومكلفاً بالنسبة لكل من الطلاب ومكاتب التنسيق. علي سبيل المثال الكثير من الكليات تطلب كتابة مقالات في استماراتها علي أمل أنها سوف تكشف عن وضوح التفكير أو الابتكارية أو بعض الصفات الأخرى؟ كلها لابد أن يتم كتابتها وقراءتها. (من الموضوعات الدائمة: «اذكر أسماء خمسة كتب سوف تختارها لتقضى معك ستة أشهر على جزيرة معزولة»). وكل عام يكون هناك ١٠،٠٠٠ استمارة مقدمة إلي أعلى ١٢ كلية تنال أكثر من إذن بالقبول.

وهذا ينتج مقياساً آخراً للهيبة لمكانة الكلية: كم عدد هؤلاء الذين تقوم الكليات بدعوتهم ويلتحقون بها فعلاً. هنا تربع هارفارد المقدمة، مع ٧٨٪ يختارون الالتحاق بها. والمثير هنا أنه حتى في كليات Amherst, Duke, Williams، فإن أقل من نصف من يتم دعوتهم يقبلون الالتحاق، مما يعنى أن هذه الكليات لابد أن تقبل ما يساوى فصلين لتملأ فصلاً واحداً. (الكثير غيرها يعتبرون أنفسهم محظوظين إذا ما قبل ثلث من يختارونهم الالتحاق بها).

هناك طريق ثالثة لتصنيف الكليات هي عن طريق أداء الطالب علي اختبار SAT المثير للجدل لأعلى عشر كليات، هناك في الواقع فروقاً صغيرة نسبياً، من ١٥٩٠ في هارفارد إلى ١٥٠٠ في «براون Brawn». هذه الأرقام يتم أيضاً عرضها على نحو منتشر وتخدم كمعايير للكليات الأخرى. مثل «نورث ويسترن North western» (١٩٨٠) و«ايمـوري Emory» (١٤٦٠) و«فاندربلت Vanderbilt» (١٤٣٠) والتي تطمح للوصول إلى شهرة على النطاق القومى. وعلى أمل الوصول إلي عتبة ١٥٠٠ الفارقة، تقوم تلك الكليات بمحاولة ضم الطلاب ذوى الدرجات المرتفعة، وعرض منحاً دراسية حتى عندما لا يطلبها الطالب. قامت «فاندر بلت» بإرسال متطوعين إلي المدارس الثانوية التي بها عدد كبير من الطلاب اليهود.



إن وضع الكثير من التركيز على أرقام SAT قد يبدو غير منطقى وغير عادل، حيث إن اختبارات SAT تعتمد أساساً على التفكير السريع للاختيار من إجابات متعددة والذى قد يتجاهل الصفات الأخرى للذكاء، وبعد كل شيء يطلب من المتقدم تقديم سجلات دراسية وشهادات وقوائم أنشطة، ذلك بجانب المقال. ومع ذلك لنأخذ مثلاً ما لابد أن يحدث في كلية مثل «ييل Yale»، حيث جاءت ١٧،٧٣٥ استمارة العام السابق. بعد أن تم فتحها كلها ووضعها في ملفات مع درجات الطالب في اختبار SAT مكتوبة علي الغلاف، يتم قراءتها بترتيب تنازلى. ومن الواضح أن العوامل الأخرى سوف يتم أخذها في الاعتبار، وبعض المتقدمين ذوى الدرجات المرتفعة في اختبار SAT لمن يتم تضمينهم في الاختبار النهائى، ولكن تنظيم عملية القبول بناءً علي القدرة علي تحصيل درجات اختبارات SAT يعنى أن الكثير من الصفات الأخرى للمتقدمين قد يتم تجاهلها. ومع ذلك إذا كان الفرد يواجه ١٧،٧٣٥ ملفاً، فأى الطرق ستكون أفضل للبدء بها؟

تكاليف الكلية هي أيضاً أمر يرتبط بموضوعنا هنا. أعلى ١٢ كلية لديها مصروفات متشابهة رغم الفروق في المنح وأجور العمالة المحلية. وحتى إذا لم يكن هناك اتفاق صريح، يبدو أن هناك نوعاً من الإجماع علي عدم التنافس في السعر. إن حقيبة سندات هارفارد البالغة ٢٣ مليون دولار يمكن أن تسمح لها بأن تفرض رسوماً أقل بكثير من بقية الجامعات، ولكن هارفارد يمكن أن ترد بأنها تريد أن تأخذ الرسم كاملاً من الآباء الذين يستطيعون الدفع، وبعد ذلك تستخدم جزءاً من الفائض لمساعدة الطلاب الأقل من قدرة الدفع بقليل. وحسب الإحصاء الأخير فإن حوالى نصف طلاب هارفارد ينالون مساعدة. ولكن نجد في الواقع أن العوز ينظر إليه بكرم زائد والآن يتم منح المساعدة لطلاب من أسر دخلها من ستة أرقام. ومع ذلك فإن الميزانيات في كل الكليات الاثنى عشر ما عدا MIT تتوقع أن يتم دفع رسم التعليم كاملاً عن طريق «نصف المتقدمين على الأقل». والنتيجة هي أن الطلاب الذين يستطيع آباؤهم دفع الرسم كاملاً سيكون لديهم ميزات إضافية.

وما يقوله «دوثات» عن هارفارد ينطبق على معظم الكليات الأخرى في هذه القائمة. ويقول إن زملاءه في فصل ٢٠٠٢ كانوا «مجموعة ذات امتيازات ظاهرة، مختارين من طبقات المجتمع الصاعدة لأعلى وتباركهم محافظهم المالية العميقة التي يمولها آباؤهم». وهو يقدر أن ٧٠٪ من رفاقه أتوا من أسر دخلها يفوق ١٠٠،٠٠٠ دولار سنوياً، والكثير منها أكبر من ذلك بكثير. والقصة التقليدية تقول إن: «تعليم طبقة الجامعة مفتوح للشباب ذوى القدرة والموهبة بغض النظر عن الدخل أو الأصل. ويقول «دوثات» إن هذا نادراً ما يحدث في الواقع. «الاستحقاق الموضوعى هو القشرة الأيديولوجية، ولكن التطابق الاجتماعى والاقتصادى هو الواقع الأيديولوجى».

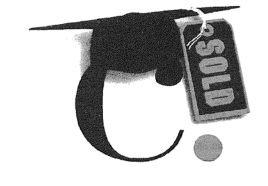
والعنوان الرئيسى لكتاب «دوثات» يفسر كيف وصل معظم زملائه بالفصل إلى قمة المقبولين. والمدارس التحضيرية التي أرسلها إليهم آباؤهم علمتهم كيف يخدعون اختبارات القبول وأعطتهم إحساساً واعياً بكيفية عمل التنسيق الجامعى. ويخبرنا «دوثات» أنهم عندما يدخلون الكلية يقومون بتطبيق تلك المهارات «لتجنب العمل الأكاديمى» و«المناورة للحصول على الحد الأقصى من GPA (متوسط الدرجات) مقابل الحد الأدنى من الجهد». هذه اللهجة تقول عن «دوثات» وأصدقائه أكثر مما تقول عن طلاب هارفارد ككل. فكل الذين قابلتهم ذكروا مقررات وجدوا أنها تتحداهم عقلياً، والتي جعلتهم يقومون بعمل أكثر مما كان مطلوباً.

لقد شهدت العقود القليلة الأخيرة تغيرات في الالتحاق بالكليات الاثنى عشرة العليا. والأكثر وضوحاً كان وصول طلاب من أصل آسيوى. وبينما يشكلون أقل من ٤٪ من تعداد الطلاب في سن الجامعة، فإنهم يحتلون الآن ٣٥٪ من الطلاب في MIT ويليها ٢٧٪ في «ستانفورد Stanford»، و٢٠٪ في كولومبيا Columbia وبن Bnn»، بجانب ١٨٪ في هارفارد Harfard. ومعظم هؤلاء الطلاب تم قبولهم عن جدارة، ونسبة كبيرة منهم تخصصوا في العلوم أو الرياضيات. وفوق ذلك فإن القليلين منهم يستفيدون من وجودهم في مجموعة «الوصايا iegaly» أو تم قبولهم لمكانهم في فرق الاسكواش وكرة الماء.

[٢]

كل الكتب المعروضة هنا تعبر عن مأساة مشابهة: عدد أكبر من اللازم من الأساتذة. ربما معظمهم. يقومون بعمل ضعيف الجودة داخل قاعة التدريس. ويميل الطلاب إلي الموافقة على ذلك. وقد قدمت مجلة برنستون إلي عدد من الطلاب في ٣٥٧ جامعة جملة: «أساتذتى ينفخون الحياة في المادة»، وسألتهم تقدير أساتذتهم على ما إذا كانوا كذلك أم لا. وقد كانت





أعلى نسبة رضا في الكليات التي تبقى على عدد الملتحقين صغيراً، وليس بها برامج تخرج، وليست بالضرورة معروفة ومشهورة. وأقل الدرجات في الدراسة ذهبت إلي التعليم الجامعي بالجامعات البحثية الكبيرة المشهورة. والجامعات التي حصلت على الدرجات المرتفعة احتوت كلها على ١٢.٣٨٨ طالباً فقط، بينما الدرجات المنخفضة عبرت عن شعور ١٥٠،٥٣٢ طالباً جامعياً.

قام باتريك اليف، أستاذ التاريخ الأمريكي بجامعة ايمورى Emory. بنشر مذكرات يومية عن كيف قام بتدريس مقررة في التاريخ الأمريكي. الجزء الأكبر من كتاب «أنا المعلم، أنت الطالب» يصف المواد التي يقوم بتدريسها وكيف يقوم بتقديمها. («اليوم سألقى محاضرة عن الزراعة»). وبينما كان لديه ٣٩ طالباً فقط، فإن صوته هو ما كان يسمعه غالباً. وعندما يسأل أسئلة، فإنه غالباً ما يحصل علي إجابات مقتضبة، والتي يصنفها بصورة عامة على أنها ضعيفة، إن لم تكن تافهة. ولقد حصلنا على بعض الأفكار عن حساسيته العقلية من امتحانه النهائي، والذي اقتصر لدرجة كبيرة علي التواريخ والمواقع والأسماء، زائد سؤال يطلب إجابة من فقرة واحدة. وبعد ذلك قام بذكر بعض الأخطاء الشنيعة لطلابه في التاريخ. ورغم ذلك فإنه في النهاية أعطى الجميع في الفصل تقديرات B أو أعلى.

وفي فصل ختامي اشتكى «اليت» من أن ربع طلابه على الأقل ليس لديهم استعداد لدراسة التاريخ، ولا تقدير للروابط بين الأحداث، ولا شعور بكيف يتغير موقف تاريخي ما عبر الوقت، وهم لا يريدون القيام بالعمل الشاق الضروري، إنهم يتعجلون في القراءة، ولا يمكنهم الكتابة حتى لحماية أرواحهم.

هذا. إذا ما كنا سنصدق «اليت». هو الموقف في «ايمورى Emory»، والتي تم تصنيفها العشرين بين «أفضل ١٢٩ جامعة وطنية»، فوق «بيركيلي وجورج تاون George Tawn, Berkelay وNYU». وطلابها يحصلون علي درجات قوية في اختبار SAT، ومن المفترض أنهم عملوا بجهد في المرحلة الثانوية. ولكن اليت رغم ذلك يتساءل عن كيف يستطيع استثارة طلابه للاهتمام أكثر بالمواد التي كان يقوم بتدريسها. وما يجعل المعلم يستنتج أن طلابه «ليس لديهم استعداداً» لتعلم التاريخ يبدو أنه يخنق فرصهم لتعليم الماضى الذى أنتجهم.

«كين باين Ken Bain». الذى أدار مركز NYU لتعليم التفوق. يقدم لنا ٣٣ أستاذاً والذين نالوا عاماً بعد عام تقديرات مرتفعة من طلابهم. كل الرجال والنساء الذين قابلهم. في جامعات تتراوح من ستانفورد Stanford إلي نورس وسترن Norhwestern إلى «كلية صغيرة في أوكلاهوما» بدون اسم. مخلصين بعمق للتعليم الجامعي. وفي معظم كتاب «ما الذى يفعله أفضل أساتذة الجامعة» يقوم الأساتذة بوصف المداخل والأساليب التي يستخدمونها في قاعات المحاضرات. بعضهم لديه أهداف مرتفعة: «أريد أن يشعر الطلاب كما لو أنهم اخترعوا حساب المثلثات». وغيرهم يتحدثون عن معتقداتهم الأساسية: (ليس هناك شيء يسمى «أسئلة غبية» في محاضرة». ومع أنني سمعت عدداً من الأكاديميين يتحدثون عن عملهم، وأنني التقيت بالكثير من طلابهم، فإنني أميل إلي الحذر من مدح الذات. وقد وجدت دراسة حديثة أن ٢٤٪ فقط من الأساتذة الذين تم انتخابهم اعترفوا أن مقرراتهم تطلبت الكثير من الحفظ، بينما ٦٤٪ من طلابهم شعروا أن الوضع كان كذلك.

وعرض «باين» كان سيتحسن إذا ما صاحبه فيلم مصور على اسطوانة كمبيوتر، ولو حتى فقط لإثبات الادعاء أن هناك أساتذة غير عاديين. وسيكون من المفيد رؤيتهم أثناء الممارسة، وما إذا كانوا يدرسون لمجموعات كبيرة، أو مجموعات متوسطة الحجم، أم يشرفون علي سيمنار ما. علي سبيل المثال تذكرنا أحد أساتذة «باين» أن: «الطلاب لديهم مستويات مختلفة ولن يفهموا في نفس الوقت». وهي تقترح أنه من الممكن داخل محاضرة واحدة إعطاء هؤلاء الطلاب الذين يقعون في الربع الأدنى مجموعة من الأفكار ليتفكروا فيها، وفي نفس الوقت التوضيح لطلاب الربع الأعلى أن هناك ألغازاً أكثر تعقيداً يمكن حلها. وعندما يحدث ذلك، فإن كلاً من طلاب تقديرات A و C سيكون عندهم القدرة علي تعلم شيئاً ما، وربما حتى يتفقون أن المقرر كان يستحق الدراسة. ومن وجهة النظر هذه، لا يمكننا حقاً معرفة ما الذى تعلمه الطلاب، ولكن هذا -المعلمة تبدو أكثر خيالية من معظم الأساتذة الآخرين.



ونتيجة لذلك فإن عدداً قليلاً من الجامعات تقوم بتصميم مناهج محورية رئيسية من أجل طلابها. إن هناك استثناءات مثل كولومبيا وشيكاجو Columbia, Chicago والتي تشجع علي المنافسة المستمرة لأعضاء هيئة التدريس عما يجب أن يتعلمه الشخص المثقف. الكليات الأخرى أقل اشتراطاً. علي سبيل المثال هارفارد تشترط أن يلتحق كل الطلاب بمقرر في «الاستدلال الكمى Quantitahive Rleasonins». وللوهلة الأولى يبدو ذلك مبشراً، ومن المهام. مثلاً. معرفة كيف يتم استخدام النماذج الحسابية للتنبؤ. مثلاً. بارتفاع درجة



حرارة الكرة الأرضية أو تكاليف الرعاية الصحية المستقبلية، ومع ذلك فمن الممكن تحقيق شرط هارفارد بأخذ أياً من المقررات القياسية التسعة عشر الموجودة بالفعل في القائمة، والتي تتضمن ثوابت مثل حساب المثلثات متعدد المتغيرات والجبر الخطى Maltivariable Colculus, Linear alaebra.

والجامعات البحثية تبذل هي أيضاً القليل من الجهد لحث أساتذتها الكبار للتدريس لطلاب السنوات الأولى والثانية. وإذا لم يرغبوا في ذلك. كما يحدث غالباً. فمن غير المحتمل أنهم سيجيدون القيام بالأمر.

[٣]

إن غلاف كتاب جينيفر واشبورن Jennifer Washborn: «الفساد الجامعى للتعليم العالى الأمريكى» يعرض قلنسوة جامعية عليها علامة «تم بيعه Sold». وكتابها قيم لكثرة تفاصيله، ولكن الصورة العامة مألوفة. الشركات الصيدلانية تقوم بتمويل أبحاث كليات الصيدلة، ويمكنها منع انتشار النتائج التي تزيد مبيعاتها. والفرق الرياضية بالكليات لهم الآن نفس قيمة الامتيازات العلمية، مع تشجيع اللاعبين علي أخذ مقررات قليلة المطالب يقوم بتدريسها أساتذة متساهلون. وتقوم الكليات بتسويق نفسها عن طريق الشعارات الصاخبة الألوان، وتحاول إغواء الطلاب بتقديم حمامات جاكوزى ضخمة الأحجام وحوائط تسلق شاهقة. وأنا أوافق بالتأكيد أن هناك فساداً واتجاراً في الحياة الجامعية. ولكنى لست شديد التأكد من أن الجامعات لو كانت تبيع نفسها. أو يتم بيعها. فإنها تفعل ذلك للأسباب التي تعرضها.

على سبيل المثال هي تقول إن اعتناق الممارسات المالية «يقوم أيضاً بتغيير ما يتم تعليمه»، مستشهدة بجامعة حكومية تم فيها إلغاء برامج تخرج غير مربحة فى «الأدب الإغريقى واللغة الألمانية واللغة الفرنسية والعديد من الفروع الإنسانية الأخرى». وقد أخبرها رئيس هذه الجامعة أن مواد مثل هذه هي «حشو لا تحتاجينه». عند سماع هذا الرد لأول وهلة، فإنه يبدو صادماً. وللإنصاف فإن الكتاب ربما يكون قد أشار إلي أن أعضاء هيئة التدريس في هذه المجالات يستمرون في التدريس؛ في الواقع تستمر جامعة «جورج ماسون George Mason» في عرض ٢٩ مقرراً في هذه المجالات، تتضمن «عصر جوته» و«الأدب الفرنسى في العصور الوسطى» و«المسرح الهزلى الإغريقى والرومانى». وفي نفس الوقت فإنها ربما قد تساءلت لماذا قام. مع عدد طلاب ١٧.١٠٢. عدد قليل جداً باختيار التخصص في العلوم الإنسانية. الإجابة التقليدية هي أن الطلاب الآن يريدون أوراق اعتماد عملية، مثل شهادة في الأعمال أو علوم الحاسب. ومع ذلك فمن الممكن أيضاً أنه لم يحاول عدد كاف من الأساتذة جعل موادهم مثيرة لمدى أوسع من الطلاب. وهذا يمكن فعله بدون خيانة الأخلاق التربوية، أو تضخيم الصفوف، أو اللجوء إلي الاستعراضات المسرحية. والمطلوب هو تعهد جاد بالتعليم الجامعي، وهي سمة لا توجد دائماً في الجامعات البحثية والجامعات التي تطمح لتلك المكانة.

والأنشطة التجارية التي تصفها «واشبورن» تشتق غالباً من الحقيقة التي تقول إن الجامعات أصبحت

إمبراطوريات بحثية هائلة تحتاج إلي ضخ مستمر للسيولة المالية لاحتمال نفقات موظفيها ومكانتها العالية. والإحصائيات الجديدة من «المركز الوطني للإحصائيات التربوية»، توضح أن الموظفين الذين ليسوا أساتذة مدرسين يشكلون ٧١٪ من الإنفاق الكلي بجامعة ستانفورد، و٧٣٪ في كولومبيا و٨٣٪ في هارفارد. الكثير من هؤلاء الأفراد يقومون بالبحث. ولكن هناك أيضًا استشاريين أو رافعي الميزانية أو حراسًا أو محامين أو أفراد أمن أو موظفي القبول أو مدربين.

وكليات الطب بهذه الجامعات توفر أدلة ناطقة. وباعتبارها ببساطة كليات لتدريب الأطباء، فإن معظمها تكون حقًا صغيرة جدًا. على سبيل المثال كلية الطب في «جونز هوبكنز John HopKins» بها ٤٨٢ طالبًا فقط، أقل من عدد الطلاب بالصف الأول بكلية الطب في جامعة ويليامز. ورغم هذا الرقم الضئيل فإن جامعتها تنال ٣٦٤ مليون دولار في الميزانية الحكومية للبحث، حتى لو كانت هذه النفقات تمتلك علاقة هامشية فقط بالتعليم الطبي؛ وبالإضافة إلي الأموال الحكومية، فإن الكلية تنال منحًا من شركات ومؤسسات وجمعيات خيرية. وعلي مستوى الدولة فإن كليات الطب والمستشفيات الجامعية بها ١١٢,٠٠٠ طالب ومقيم. ورغم ذلك هناك ١٣٧,٠٠٠ أستاذًا في هذه الكلية، أي أستاذ على الأقل لكل طالب. إن معظم هؤلاء الأساتذة يقومون بالقليل أو لا شيء من التدريس، ولكن العمل على الأبحاث ينفق عليها المنح والعقود التي تمولها الحكومة أو شركات ومؤسسات خاصة.

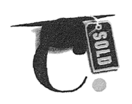
«موراي سبربر Muray Sperber»، أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أنديانا ومؤلف العديد من الكتب عن الألعاب الرياضية بالجامعات. افترض أن الجامعات توسع من تيسيراتها البحثية، وتسمح لها بأن تكون كيانات كاملة الاستقلال، مع إداراتها وميزانياتها وأسمائها الجديدة الخاصة. شركة Rand ومؤسسة Brookings، وSRI الدولية تقوم بكل الأبحاث المختصة بدون روابط أكاديمية مباشرة. وفي الواقع بدأت SRI كفرع من جامعة ستانفورد، ولكنها استقلت منذ عام ١٩٧٠. ورأى «سبربر» هو أن منظمات مثل تلك المنظمات يمكن أن تتعاقد مع شركات الأعمال والجيش وحتى الوكالات السرية بدون القلق بخصوص أي تأثيرات على القيم الأكاديمية.

إن نقص الاهتمام بالتعليم ينشأ داخل المؤسسات نفسها. ومنذ عام ١٩٨٠ فإن متوسط رسوم التعليم في الكليات الخاصة زادت أكثر من الضعف، وارتفعت من ١٠,٩٥٤ دولارًا إلي ٢٣,٥٠٥ بدولارات، وحيث إن المتقدمين يبدون راغبين في الدفع، فإن نسب الالتحاق لم تنخفض. وتطلب جامعة بوسطن ٢٣,٩٠٦ دولار وجامعة سوثرن كاليفورنيا ٢٨,٨٢٧ دولار. مثلها مثل أكثر الكليات شهرة. ولكن كم من هذه الأموال يتم صرفها على التدريس الجامعي؟ هل سيكون كل طالب قادرًا على المشاركة في سيمنار ما كل فصل دراسي؟

وما يمكن عرضه هو أن الكثير من أموال رسوم الالتحاق يتم تخصيصها لتوسيع الطبقات العليا من أعضاء هيئة التدريس، سواء في الإعداد وفي الراتب الذي ينالونه. وخلال السنوات العشرين الأخيرة، قائمة هارفارد من الأساتذة الدائمين زادت من ٥٣٣ إلى ٧٧٧، وكولومبيا من ٤٦٢ إلي ٥٨٩ وديوك من ٢٨٤ إلى ٣٩٩، بينما أعداد الطلاب الملتحقين ظلت كما هي بصورة أساسية ولقد تزايدت أجور الأساتذة الدائمين بصورة واضحة. على مستوى الدولة. في ١١٥ جامعة. يأخذ الأساتذة الدائمون متوسط أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دولار سنويًا، بما فيها كليات صغيرة مثل هاميلتون وكولبي. وفي الواقع هناك ٤١ مؤسسة حكومية تدفع للأساتذة الدائمين ١٠٠,٠٠٠ دولار، رغم التخفيضات في التمويل الحكومي. وبينما تتزايد الأجور في بعض الكليات الحكومية التي تقع تحت قسم الكليات العليا في التصنيف، فإن الأساتذة الدائمين فيها ما يزالون ينالون الحصة الأكبر من ميزانيات مؤسساتهم.

كما تفرض الأمور فهناك مقياس لمكانة الجامعة هو مدى صغر حجم التدريس الذي يطلب من أساتذتها. ورغم أن هناك المزيد من المقاعد المدفوعة توجد عند القمة، فهناك عدد أكبر من طلاب الجامعة يتم الآن تعليمهم عن طريق مساعدين خريجين وملحقين وهيئة تدريس مؤقتين والذين لن يتم أبدًا ترقيتهم. والبعض يمكن أيضًا أن يتحملوا أعباء كاملة مقابل ثلث مرتب الأساتذة الذين لا يقومون حتى بالتدريس. ولسوء الحظ فإن هذا التوفير هو ما يجعل الأجور ذات الأرقام الستة ممكنة.

قسم الرياضيات في برنستون قد يكون مثالاً شديد الوضوح، ولكنه يعطي لمحة عن الأولويات الأكاديمية. إن به هيئة تدريس من ٥٦ ضمن فئة الأساتذة، والذين يشرفون على ٥٥ خريجًا و٣٠ طالبًا متخصصين في الرياضيات. وبحسبة رياضية بسيطة نعرف أنه حتى إذا ما تم إضافة هذه المقررات إلى الطلاب الذين لا يتخصصون في الرياضيات، فإن بعض الأساتذة لن يدخلوا قاعة محاضرات لمدة فصل دراسي كامل. وبلا شك فإنهم سيقولون إنهم مشغولون في البحث. ولكن حتى الكليات القديرة بها أعضاء قاموا بصورة واضحة بوقف النشر منذ استقبالهم الأوقاف المالية.



وبينما تملك المنظمات الأخرى مثل الشركات عددًا أقل من الأشخاص عند قمة التنظيم الهرمي، فإن فئات الكبار في الجامعات تفوق في عددها تلك الموجودة في الطبقات الأدنى، غالبًا بفارق كبير، ويحصلون على نسبة كبيرة من الإنفاق الكلي. وفي مجموعة الكليات الأخيرة المذكورة يزيد الأساتذة الدائمون عن الأساتذة المساعدين بنسب أكبر مما كانوا عليه منذ عشرين سنة. وقانونيًا يستطيع الأساتذة الدائمون عندما يرغبون البقاء بأجور كاملة طالما يريدون ذلك. في عام ١٩٨٣ سجلت كلية جامعة فورت كارولينا أن ٣٤٪ فقط من أعضاء هيئة التدريس المنتظمين بها كانوا تحت سن الأربعين. وعام ٢٠٠٣ انخفضت النسبة إلى ١٨٪ ومن بين ٢٢ أستاذًا في أحد أقسام الاقتصاد، واحد فقط كان تحت الأربعين. هذا التيار يبدو مسببًا للقلق على الأقل مثل عقود الشراكة في كليات الطب.

إن عددًا صغيرًا جدًا من طلابنا الجامعيين يحصلون على التعليم الذي يريدونه ويستحقونه. وأسهل رد هو أنهم ليس لديهم من يلومونه إلا أنفسهم، حيث إننا نسمع عادة عن توجهاتهم المهنية وميلهم إلى الحفلات، وإلي إشارات مثل قول دوثات Diwthat إنهم يكرسون أقل كم من الجهد لدراساتهم. أو في شكاوى الأساتذة من تبلد الطالب، والحضور المتراخي، واللامبالاة تجاه الواجبات.

ومع ذلك فإن ملاحظتي الخاصة هي أن شباب سن الجامعة يمتلكون مخزونًا من الفضول العقلي، وسوف يستجيبون عندما يتم استثارة عقولهم. وهذا في الواقع يحدث في الكثير من كليات الفنون الحرة المستقلة Liberal Asts، حيث يكون التعهد الأول لأساتذتها هو تعليم الطلاب. ولقد قمت بزيارة العديد من تلك الكليات ورأيت كيف يتم تشجيع الطلاب لاستخدام عقولهم، بما فيهم هؤلاء الطلاب الذين ربما قد التحقوا في البداية للألعاب الرياضية أو الأنشطة الأخرى الأكاديمية. وبينما قد لا يكون أعضاء هيئة التدريس منهمكين في الكثير من الأبحاث، فإنهم يعملون معًا للوصول إلى منهج كامل. وفوق ذلك ليس عندي شك أن الطلاب الـ ٣٢٢,٧٩١ الموجودين الآن بهذه الكليات لا يختلفون في القدرة الكامنة عن الملايين الذين يتم تجاهلهم في الجامعات العظمى. وأنا مقتنع أيضًا أنه رغم الفروق في المصروفات وأجور الأساتذة، فإن التعليم الجيد يمكن تقديمه في كلية مثل «كو Coe» في ايوا، و«واتيمان Whitman» في واشنطن، و«فوكس Knox» في اليونز تماما كما يوجد كليات عريضة السمعة مثل ويليامز وسوارثمور Williams, Swarthmore.

إن الطالب الذي يتخصص الآن بصورة أساسية في المشروبات الخالية من الكحول بجامعة اريزونا يمكن أن يقدم رسالته عن موليير في كلية لويس وكلارك Lewis and Clark College، بجامعة اوريجون. وعدد كبير من الأساتذة يعرفون كيف يقدمون أفضل تعليم جامعي. والسؤال هو ما إذا كانوا سيقومون أبدا بالوصول إلى العدد الأكبر من الطلاب الذين يجب أن يتعلموا منهم. التيارات الحديثة في التعليم العالي تقترح أن بشائر حدوث هذا الأمر ليست جيدة. ■

بـــل هـكـــــــــــــــــذا

د. محمـــد صـــالح الجـــابرى



بأكثر من كونها ـ بحكم طبيعتها ـ نافذة لوجهات النظر، نود أن نؤكد أن «وجهات نظر» ليست طرفاً في هذا الجدل الدائر ـ في حقيقة الأمر ـ بين أطراف مشاركة أو ذات علاقة مباشرة بموسوعة لها من الأهمية ما نقدره. وما نعتقد معه أن طرح رؤى مختلفة وإن تباينت زاوية النظر قد يكون له فائدة عند من يعنيه الأمر مشاركًا أو باحثًا أو قارئًا.

ونأمل أن نكون بنشر هذا المقال (الرد) الثانى، قد أتحنا الفرصة كاملة ـ وكافية ـ أمام كل أولئك (مشاركين أو باحثين أو قراء) فى الاطلاع على وجهات النظر المختلفة بشأن الطريقة التى تم بها إعداد الموسوعة المهمة التى تشرف على إصدارها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

المحـــرر

















تحت عنوان «ما هكذا تورد الموسوعات» نشرت مجلة «وجهات نظر» مشكورة فى عددها الصادر فى شهر ديسمبر ٢٠٠٥ مقالاً للأستاذ محمد فؤاد الذاكرى، وهو باحث فى تاريخ الطب العربى من مدينة حلب، ومن محررى (موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) إن لم نقل من بين أبرز محرريها، قياسا لما حرر من مداخل فى مجال تخصصه.

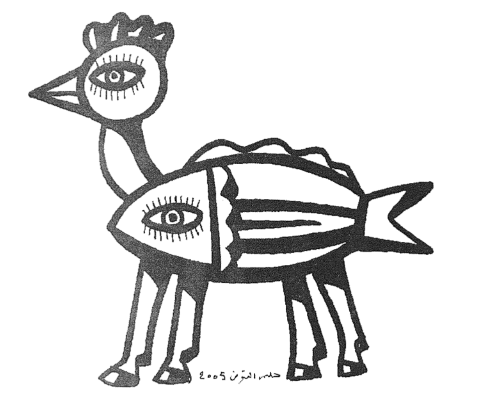
ولئن استأثر نصف مقاله المشار إليه بتذكير القارئ بالتراث العربى المخطوط، وأهميته ومميزاته، ومظان وجوده، وما نشر من مصادر ومراجع وأعمال ببليوغرافية حول هذا التراث، والدراسات العربية والأجنبية التى يمكن للقارئ الاستفادة منها لإدراك مكانة هذا التراث، مستنداً فى هذه المعلومات بصورة أساسية إلى كتيّب قامت بتحريره اللجنة العلمية للموسوعة، وضمنته القواعد الفنية للكتابة للموسوعة، وقائمة أوّليّة بالمصادر والمراجع التى يمكن لأى باحث أن يرجع إليها للإفادة منها فى بحثه، متوخّية من ذلك تيسير عمل الخبراء، ورسم منهجية متكاملة تساعد فى وحدة التحرير والتنميط المطلوب فى إعداد الموسوعات، وقد عمّمت هذا الكتيّب على جميع الباحثين ومن ضمنهم الدكتور الذاكرى، فإنّ الكاتب لم ينسب هذا الجزء من مقاله إلى المصدر الذى استلهم منه تلكم الفقرة الاستعراضية التى لو لم يكن الغرض من إيرادها تضخيم معارفه لَمَا كان المقال بحد ذاته بحاجة إليها، لأن الإفاضة فى إيراد المصادر والمراجع وكتب الأعلام والطبقات والفهارس، وتذكير اللجنة العلمية بذلك مما يصدق عليه المثل القائل «كجالب التمر إلى هَجَر»، ولا أخال إلاّ أن الكاتب الدكتور الذاكرى يعلم علم اليقين أنّ بعض أعضاء اللجنة العلمية للموسوعة هم من قام بترجمة بعض هذه المراجع مثل بروكلمان وفؤاد سزكين عن أصولهما الألمانية، حيث قام بتعريب المرجعين السالف ذكرهما الأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى، الباحث المصرى المعروف، كما قام الأستاذ الدكتور أكمل الدين بن إحسان أوغلى - الذى قبل أن ينتخب أمينا عاما لمنظمة المؤتمر الإسلامى- كان مديرا عاما لمركز اسطمبول للتاريخ والأبحاث والفنون الإسلامية، بالإشراف والتقديم لمعظم فهارس المخطوطات والدراسات التراثية التى صدرت عن ذلكم المركز، والتى كشفت عن جل المخطوطات العلمية فى مكتبات تركيا. وتعدّ هذه المكتبات من أغنى مكتبات العالم فى مجال التراث العلمى العربى الإسلامى.

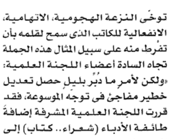
ولإزالة اللبس الذى يُشتمّ من مقال الدكتور فؤاد الذاكرى واشتباهه فى أن أعضاء اللجنة العلمية للموسوعة جلُّهم بعيد عن ملامسة التراث العلمى العربى، ومعرفتهم المباشرة به، والاطلاع عليه فإن الموقف يقتضى تذكير سيادته وطمأنة قراء الموسوعة بأن اللجنة العلمية التى تشرف على إصدار الموسوعة ومتابعة إنجازها - وهى بالمناسبة تقوم بذلك تطوعًا محضًا وتفضلاً اختياريا- إنّما هم نخبة من العلماء الأفاضل من الأقطار العربية والبلاد الإسلامية، أُورِد أسماءهم للإحاطة والعلم دونما ترتيب أو تراتب، ومن بينهم الأستاذ الدكتور هشام نشابة أحد أعمدة جمعية المقاصد الإسلامية اللبنانية، ورئيس مركز الدراسات الفلسطينية ببيروت، ومن كبار رجال التربية والعلم فى لبنان، ومحاضر فى مجال التراث الحضارى العربى الإسلامى فى جلّ جامعات أمريكا. والأستاذ الدكتور الناقد الشهير صلاح فضل أحد الأساتذة المرموقين فى الجامعات المصرية، وهو يرأس اللجنة العلمية لهذه الموسوعة. على أن هذه اللجنة العلمية تضم فى عضويتها بالإضافة لمن سبق ذكرهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمان الطيب الأنصارى عالم التاريخ والآثارى المعروف والأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز، ورئيس تحرير الكتاب الضخم الذى يصدر حاليا عن المنظمة العربية تحت مسمّى (المرجع فى تاريخ الأمة العربية)، والأستاذ الدكتور على عقلة عرسان الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب وهو كاتب وشاعر ومسرحى فضلاً عن المنصب القومى الذى يحتلّه، والأستاذ الدكتور إبراهيم بن مراد أحد أساتذة جامعة تونس، ورئيس الجمعية العربية المعجمية، وصاحب التآليف المتعددة فى مصطلحات علم الطب عند العرب وغيرهم.

وإضافة إلى هؤلاء من البلاد العربية تضم اللجنة فى عضويتها العالم الهندى المعروف محمد أسلم إصلاحى، رئيس الدائرة الثقافية لأفريقيا والعالم العربى فى جامعة جواهرلال نهرو بالهند، والأستاذ الدكتور محمد على آذرشب الأستاذ بجامعة طهران، ومترجم العديد من الإبداعات العربية إلى اللغة الفارسية. فإذا كان الأستاذ محمد فؤاد الذاكرى قد طالع هذه الأسماء المرموقة فى الصفحة الأولى من الموسوعة، وفاته أن يدرك أهمية كلّ عضو من هؤلاء الأعضاء وتخصصه وتضلعه فى مجاله، فضلاً عن تضلّع الجميع بقدر مشترك فى معرفة تراث الأمة العربية الإسلامية فقد يكون هذا التوضيح وهذا التعريف بتخصّص كلٍ منهم كفيلاً بتصويب ما انتابه من وهم، وما ورد فى مقاله من تشكيك فى صلة أعضاء اللجنة العلمية بالتراث الحضارى العربى الإسلامى.

والأنكى من كل ما سبق ذكره هو

تـــورد «المـــوســـوعـــات»!





توخّى النزعة الهجومية، الاتهامية، الانفعالية للكاتب الذى سمح لقلمه بأن تفرط منه على سبيل المثال هذه الجملة تجاه السادة أعضاء اللجنة العلمية: «ولكن لأمر ما دُبِّر بليل حصل تعديل خطير مفاجئ فى توجه الموسوعة، فقد قررت اللجنة العلمية المشرفة إضافة طائفة الأدباء (شعراء.. كتاب) إلى الموسوعة، وهذا القرار لم يكن له ما يبرره، وأدخل الموسوعة فى متاهات فى غنى عنها».



والتعديل «الخطير» الذى يعنيه الكاتب هو أن اللجنة العلمية (المتآمرة) حسب رأيه قررت إضافة أعلام الأدباء إلى أعلام العلماء، أى أنها فى نظره صبت الزيت على النار، وارتكبت جريمة علمية قد تتطلب لجنة تحقيق دولية فى رأيه، فالعلم والأدب لديه نقيضان لبعضهما وعدوان لدودان قد يؤدى اقتراب أحدهما من الآخر إلى انفجار كونى أو حرب عالمية!.

ولعلم سيادته فإن اللجنة العلمية لا تجتمع فى الليل على الإطلاق مثلما توهم، وكل اجتماعاتها تحصل فى رابعة النهار وفى أماكن عامة، ولا أحد من أعضائها معروف عنه المشاركة فى أية مؤامرة أو أى انقلاب على الإطلاق. وكل ما فى الأمر أن اللجنة اتخذت هذا القرار فى كامل وعيها وبإرادتها الذاتية المحضة. وكان القرار بالإجماع وفى غاية البساطة. فالعلماء والأدباء فى رأى اللجنة يكمل كلٌ منهما الآخر، والفارق بين العالم والأديب كالفارق بين أغصان الشجرة الواحدة المسماة شجرة المعرفة، وأن العالم يكتب فى مجال العلوم الذى يتخصص فيه، والأديب يكتب فى الميدان الذى يتخصص فيه، وبينهما قاعدة مشتركة هى أن كلاً منهما يبدع ويصنع الفكر والحضارة، وكان رأى اللجنة أن مفهوم العالم فى الحضارة العربية الإسلامية هو الذى يلم بمعظم معارف عصره، وأنَّ ما من عالم قديم إلاّ وله جوانب متعددة من علوم عصره، فالطبيب: نحوى وشاعر ومؤرخ أحيانا، وعالم الفلك: مفسر، ومترسل، وطبيب وموسيقار وغير ذلك، فالنزعة الشمولية كانت سمة علماء الحضارة العربية الإسلامية، ولو أخذنا بخاطر الدكتور الذاكرى وفصلنا موسوعة الأعلام إلى موسوعات صغيرة لتكرر ذكر العلَم الواحد فى أكثر من موسوعة واحدة من هذه الموسوعات الصغيرة، مرة باعتباره طبيبا، وثانية باعتباره شاعراً وثالثة باعتباره مفسراً ورابعة باعتباره فيلسوفاً وموسيقاراً إلى ما هنالك.

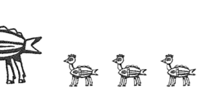
وكان من رأى اللجنة كذلك وهو ما لم يرق للدكتور فؤاد أن اقتصار الموسوعة على التعريف بأعلام العلماء فى مرحلة من المراحل قد يوحى بأن هناك انقطاعاً وضموراً وتوقفاً فى الحضارة العربية الإسلامية، بينما الواقع يؤكد تواصل هذه الحضارة واطراد عطائها، جيلاً فجيلاً وعصراً فعصراً فى حالات مد وجزر كشأن الحضارات جميعها.

إن من الأهداف الأساسية لـ(موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) هو وضع سجل متكامل حافل بمختلف أوجه الإبداع فى الحضارة العربية الإسلامية ورجالاتها وأعلامها منذ فجر التاريخ وحتى نهاية القرن العشرين، يكون دليلاً ساطعاً لأبنائنا فى التعرف على إسهام أجدادهم وآبائهم فى إغناء التراث الإنسانى. أفهل كان من السداد لو توخينا رأى الدكتور الذاكرى على سبيل المثال الآخر وعمدنا إلى فصل علماء كل إقليم على حدة، أو أمعنا فى العسف، وصنفت اللجنة أعلام العلماء والأدباء بحسب كل قومية من القوميات أو مذهب من المذاهب، أو طائفة من الطوائف، أو دين من الأديان، وهكذا دواليك، تطبيقاً لنظرية الفصل بين الأدب والعلم، وما ينجز عنها من سلسلة من الفواصل اللاحقة.

لقد كان منطلق اللجنة العلمية - وهو منطلق مستوحى من أهداف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى تتولى الإشراف على إعداد وإصدار الموسوعة بتوجيه من مراجعها الدستورية القومية- أن تكون هذه الموسوعة موسوعة شاملة جامعة لكلّ المنتسبين والمنضوين تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية من كل الملل والنحل والطوائف والأديان والأقاليم شريطة أن يكونوا قد كتبوا باللغة العربية التى كانت لقرون عدة، لغة الفكر والحضارة والتعبير والكتابة والإبداع فى عدة أصقاع من المعمورة، مما يدل على سماحة هذه الحضارة ورحابة صدرها وبُعد نظرها وشُموليتها.

المؤاخذة الأخرى التى أخذ بها الدكتور محمد فؤاد الذاكرى فى مقاله الموسوعة قوله بأنه كان من المفترض صدورها فى خمسة مجلدات فقط، وإذا بها قد تصل إلى خمسين مجلداً، وهذا فى رأيه تضخم نجم عن تسلل الأدباء والشعراء إلى الموسوعة، وعما أسماه «مؤامرة» على العلماء لأن خمسة مجلدات كانت كفيلة باستيعاب تراجم العلماء وحدهم. وطبقاً لما جاء فى مقاله فإنّ هذه الزيادة فى عدد المجلدات من شأنها أن تُربك القارئ، وتشتّت ذهنه، وتقطع حبل تفكيره فى المتابعة والمواصلة. ولو أمعن





يوسف الشريف

أم كلثوم فى السودان

حين عايشت السيدة أم كلثوم عن قرب على مدى أسبوع كامل عندما دعتنى إلى رفقتها خلال رحلتها الغنائية فى السودان فى إطار مشروعها القومى لجمع الأموال العربية الخاصة بإعادة بناء الجيش المصرى إثر نكسة ١٩٦٧ قلت لها ونحن فى طريقنا جواً إلى الخرطوم: إن أهل السودان لا يحبون أغانى الهجر والصد والفراق ولا يطيقون الاستسلام طويلاً للأحزان والنكد والخصام، لأنهم يعشقون المرح والغناء والرقص وأفراح الحب ونشوة اللقاء.

وقلت للسيدة أم كلثوم كذلك إن أهلنا فى السودان ينتشون طرباً للغناء، وغالبًا ما يمارسون أسلوب «الشيل» أى ترديد الغناء والتصفيق وراء المطرب وأن وجدانهم مزيج بين العربية والأفريقية.. و.. وهكذا حين وقفت أم كلثوم على المسرح القومى فى أم درمان اعتمدت أسلوبًا جديداً وغير مسبوق فى غنائها، إذ برغم أن أغنياتها طويلة زمنيًا وبطيئة الإيقاع إلا أنها نجحت بذكائها وحضورها الطاغى وحسها المرهف فى السيطرة على مشاعر المستمعين وجذبهم إلى تذوق أنغام سلم الموسيقى العربية الخماسى البطىء، وأعفت السودانيين من ممارسة عادة «الشيل» عبر ترديد كوبليهات أغانيها وراءها، وقنعوا باستعادة إيقاعاتها السريعة الراقصة.. بل إنها كانت غاية فى السعادة والترحيب بجمهور المستمعين فى الترسو عندما اهتزت أجسامهم طربًا ونشوة ورقصاً.



الأستاذ الذاكرى النظر مليا لكان أحرى به أن يشيد بهذا الانفتاح الواعى وهذا الاستيعاب المبارك، وأن يطلب إلى اللجنة أن تشرع قدر الإمكان هذا السجل الحضارى على مصراعيه ليكون فرصة مناسبة لإنصاف آلاف العلماء والأدباء والكتّاب ممن لم تسنح الظروف بوضع تراجم لهم، والتعريف بجهودهم وإبداعاتهم، وإدراجهم فى موسوعة واحدة تتيح للباحثين والعلماء والطلبة وسائر القراء بمختلف مستوياتهم معلّمة تُغنى عن المراجع والمصادر المتناثرة والمشتتة فى جهات مختلفة، بعضها لا يزال مخطوطا بعيدا عن التناول، وبعضها الآخر مطبوعا فى دور نشر قد لا تصل إليها اليد بيسر وسهولة، وأكثرها تجاوزه الزمن وعفى عليه الدهر، وتقادم به العهد.



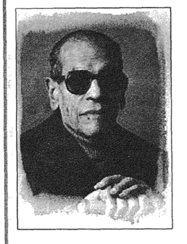
ولإفادة الأستاذ الذاكرى ولعلمه، فإن هذه الموسوعة التى تُعد أول موسوعة متخصصة فى الأعلام فى مجالى العلوم والآداب دون المجالات الأخرى تكتب من أول حرف فيها وحتى آخر حرف من قبل العلماء والأساتذة والخبراء العرب والمسلمين من الجامعيين المتخصصين فى جميع مجالات العلوم بأسلوب عصرى، يضاهى الموسوعات العالمية المعروفة، ويشترك فى تحريرها نحو ألفى أستاذ، ٩٩٪ منهم من الجامعيين، وتتعاون فى التوجيه والترشيح والمتابعة أكثر من ١٠٠ جامعة فى الدول العربية والدول الإسلامية. كما تعد هذه الموسوعة أسرع موسوعة من حيث الإنجاز، فقد شُرع فى الإعداد الفعلى لها سنة ٢٠٠٢، وأعطيت إشارة تنفيذ طباعة أولى مجلداتها أواخر سنة ٢٠٠٤. وفى غضون سنة واحدة صدر منها إلى اليوم ١١ مجلدا فى نحو ١٠٠٠٠ صفحة، ستتبعها سائر المجلدات الأخرى وفق الطريقة الألفبائية فى تتابع مطّرد، يسمح للقارئ باقتنائها منجّمة، المجلد تلو المجلد تيسيراً لحصوله عليها خلال مراحل مما يتيح إمكانية انتشارها على أوسع نطاق، سيما أن كل مجلد من المجلدات يختص بحرف من الحروف على حدة، وتفضّلت الدار التى تتولى نشرها بأن جعلت أثمانها أكثر من ميسورة، بالتفاهم مع المنظمة العربية التى تسعى إلى أن تجد هذه الموسوعة طريقها إلى كل مكتبة خاصة أو عامة، وبأثمان معقولة للغاية، نشراً للمعرفة، وتأكيداً لأهداف المنظمة فى توفير مراجع قومية، مما لا تتمكّن الدول العربية بحكم ظروفها من القيام به.

ما يسوء فى المقال المذكور أن كاتبه حاول الاستنقاص من مداخل بعض زملائه، وبعض تلك المداخل مما كان كتبه هو نفسه، لكن لأمر ما ارتأت اللجنة العلمية إدراج مدخل غيره مما قد يكون أثار «حفيظته»، فى حين يعلم الدكتور الذاكرى أن اللجنة أجازت العشرات مما كتب، وكان لها رأى إيجابى فيما يتولى تحريره من مداخل. والحقيقة أن اللجنة وأسرة تحرير الموسوعة تحاولان قدر الإمكان عدم التدخّل فيما يكتبه الأساتذة المختصون وهم مسؤولون مسؤولية كاملة عمّا يكتبون، إلاّ عند الضرورة القصوى لمواءمة الصيغ التحريرية، واستبعاد ما لا يكون من صميم المداخل، واللجنة تعلم أن كلّ مدخل من المداخل مهما حاول التكثيف والضغط إنما يبقى مشروعا للإضافة والإثراء والتوسّع، وقابلية التعليق عليه ونقده مثلما فعل الدكتور الذاكرى مع بعض النماذج التى أوردها وعلق عليها بالإضافات التى أوردها فى مقاله والتى لم تكن غائبة عن أصحاب المدخل ولا على اللجنة التى لم تر ضرورة لإدخال الإضافات التى لا تعد من صميم العمل المطلوب.

والخلاصة أن ما من عمل فى حجم (موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) التى كان صدورها حدثًا ثقافيا عربيا وإسلاميًا أشادت به الأوساط الثقافية والعلمية، والصحافة والجامعات، والمكتبات الدولية فى عدد من العواصم العالمية، إلاّ وهو عمل لا يخلو من الهنات والملاحظات، بل إن اللجنة العلمية المشرفة، والمسؤولين فى الإدارة العامة للمنظمة وفى مقدمتهم مديرها العام وهو المشرف بنفسه على الموسوعة كانت تتحسّب لمثل هذه الملاحظة، فوجهت نداء حاراً فى المقدمة التى قدّمت بها لهذا العمل إلى كل العلماء فى هذه الأمة لإثراء هذه الموسوعة بآرائهم وتوجيهاتهم، وتصويب ما يحتاج فى مداخلها إلى تصويب، شريطة أن لا يكون الهدف من ذلك استنقاص جهود الناس، والتشكيك فى علمهم وعملهم، وتسقّط أخطائهم، فالكمال لله وحده، و«فوق كل ذى علم عليم». ■

حـــــول «أولاد حـــــارتـــنا»

أحـمـد كـمـال أبـو المجد



متى تجد «أولاد حارتنا»؛ رواية نجيب محفوظ الأكثر إثارة للجدل، طريقها إلى أيدى القراء؟

كما أن للسؤال ـ ربما ـ أكثر من إجابة، فللسائلين أيضًا ـ على اختلاف مواقعهم، وربما حساباتهم أو زوايا رؤيتهم ـ أكثر من غرض.

وأيًا ما كان أمر تباين الإجابات أو مواقع السائلين، تبقى الرواية «النوبلية» هى الأكثر إثارة للجدل فى تاريخ الرواية العربية الحديثة. كما تبقى «مواسم» الجدل حولها جديرة بالملاحظة.

قبل أحد عشر عامًا، وبالتحديد فى ١٩٩٤ عندما تعرض الأديب الكبير لاعتداء لم يكن يتوقعه أحد، زاره دكتور كمال أبو المجد. ويومها دار حوار بين الحاضرين اقترح فيه محفوظ بعد أن أكد «حرصه على أن تقع كتاباته فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معه فى الرأى..» أن يكتب أبو المجد شهادة عما دار من حوار.. وعن الرواية. وهنا نص الشهادة التى ستصبح مقدمة للرواية حين تصدرها «دار الشروق».

وجهات نظر

■■ الشهادة التي توشك ـ أيها القارئ ـ أن تتابع سطورها القليلة، سبق نشرها «مقالة» في «الأهرام» يوم ٢٩ديسمبر ١٩٩٤، أي منذ أكثر من عشر سنوات، طرأت فيها على حياتنا الثقافية والسياسية أمور جسام، ازدادت فيها تجاربنا الفردية والجماعية ثراء وتنوعاً، وأحاطت بنا على مر شهورها وأيامها، أحداث وتطورات كبرى، داخل مصر، وعلى امتداد عالمنا العربي وامتداد الدنيا كلها.. تغيرت بسببها نظرتنا إلى كثير من أمورنا الخاصة وأوضاعنا العامة.. ووقف بسببها كثير منا من نفسه وأمته موقف المراجعة والتأمل، والمجاهرة بالنقد لما يستحق النقد من أوضاعنا، كما ارتفعت نبرة المطالبة بالإصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي، وانقدحت. بسبب ذلك كله ـ شرارة حوار بدأ ثم تصاعد، ولا يزال دائراً بين جماعات الكتاب والمفكرين والباحثين ممن يطلق الناس عليهم «النخبة المثقفة» التي تفكر للمجتمع كله، وتطرح بين يديه قضاياه وهمومه، وتشتغل معه بطموحاته وتطلعاته وآماله في الغد القريب والمستقبل البعيد..

لذلك، حين عرضت على دار الشروق أن تجعل « هذه الشهادة » مقدمة لرواية « أولاد حارتنا » لكاتبنا الفذ الكبير «نجيب محفوظ» لم أتردد في قبول هذا الاقتراح ولكنى رأيت من الضروري أن أعيد قراءة هذه الشهادة، وأن أعيد قراءة «أولاد حارتنا» مرة أخرى، حتى أستوثق من أن ما سطره القلم عام ١٩٩٤ لا يزال ـ عند صاحبه على الأقل ـ صالحا عام ٢٠٠٦.. وأن ما شهدت به في شأن هذه الرواية التي أحدثت في حياتنا الثقافية دوياً ظلت أصداؤه تتردد سنوات طويلة لازال موضع إيماني واقتناعي.. فلما فعلت ذلك، بدا لي أن ليس عندي ما أضيفه أو أغيره من سطور هذه الشهادة.. إذ الأمر ـ في نهايته ـ يدور حول قضيتين لم يتحول فكرى ولم يتغير في شأنهما:

أولاهما : أن من أصول النقد الأدبي التمييز الواجب بين الكتاب الذي يعرض فيه الكاتب فكرته ويحدد مواقفه، ملتزماً ـ في ذلك ـ بالحقائق التاريخية، والوقائع الثابتة، دون افتئات عليها، ودون مداراة لما يراه في شأنها.. وبين الرواية التي قد يلجأ صاحبها إلى الرمز والاشارة، وقد يدخل فيها الخيال إلى جانب الحقيقة العلمية، ولا بأس عليه في شيء من ذلك، فقد كانت الرواية ـ قديما وحديثاً ـ صيغة من صيغ التعبير الأدبي، تختلف عن «الكتاب» والالتزام الصارم الذي يفرضه على مؤلفه.. وفى إطار «أولاد حارتنا» فإنني فهمت شخصية «عرفة» بأنها رمز للعلم المجرد.. وليست رمزاً لعالم بعينه، كما فهمت شخصية «الجبلاوي» على أنها تعبير رمزي عن «الدين» وليست بحال من الأحوال تشخيصا رمزيا للخالق سبحانه وهو أمر يتنزه عنه الأستاذ «نجيب محفوظ» ولا يقتضيه أي اعتبار أدبي فضلا عن أن يستسيغه أو يقبله.

القضية الثانية: حرية التعبير والموقف منها، ذلك أنه مع التسليم بأن الحريات جميعها إنما تمارس في جماعة منظمة، ولذلك لا يتأبى منها على التنظيم والتعبير إلا حرية واحدة هي حرية «الفكر والاعتقاد» بحسبانهما أمراً داخلياً يسأل عنه صاحبه أمام خالقه، دون تدخل من أحد، حاكماً كان ذلك الأحد أو محكوما.. أما حين يتحول الفكر إلى تعبير يذيعه صاحبه وينشره في الجماعة، فإن المجتمع يسترد حقه في تنظيم ذلك التعبير دون أن يصل ذلك التنظيم إلى حد إهدار أصل الحق ومصادرة جوهر الحرية، ذلك أن الهدف من إجازة هذا التنظيم إنما هو حماية حقوق وحريات أخرى فردية أو جماعية قد يمسها ويعتدي عليها إطلاق حرية الفرد في التعبير، وتمنعها على التنظيم والتقييد، ويبقى مع ذلك صحيحاً أن الأصل هو الحرية، وأن التقييد استثناء تمليه الضرورة، والضرورة إنما تقدر بقدرها، ومن شأن الاستثناء ألا يقاس عليه أو يتوسع فيه.

وأهم من هذا كله.. أن الشهادة التي قدمتها ليست رأياً لي، وإنما هي تفسير كاتب «أولاد حارتنا» لما كتبه، وبيان واضح لا يحتمل التأويل لموقفه من القضايا الكبرى التي أثارتها تلك الرواية.. وهى ـ على كل حال ـ آخر ما صدر عن نجيب محفوظ، أمد الله في عمره، حول القراءة الصحيحة «لأولاد حارتنا» باعتبارها «رواية» للخيال والرمز فيها دور كبير.. وليست «كتاباً» يقرأ قراءة حرفية للتعرف على موقف مؤلفه من القضايا التي يطرحها بعيداً عن الرمز والخيال..

وأدعو الله تعالى أن تتسع عقولنا وقلوبنا لمزيد من حرية الكتاب والأدباء وسائر المفكرين في التعبير عن آرائهم، وإطلاق مواهبهم، بالصيغ الأدبية التي يختارونها، دون حجر أو وصاية أو مسارعة إلى الاتهام وإساءة الظن.. حتى لا «تكتم الشهادة» بيننا وتموت، وحتى لا تتجمد الأفكار على أطراف الألسنة والأقلام.. فتحرم الجماعة من زاد ثقافي وعلمي تحتاج إليه، وهى تشق طريقها للانبعاث والنهضة وسط زحام حضاري وثقافي لا سابقة له في التاريخ. ■

فـى زيــــارة نجــيب محفــوظ

■ حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير نجيب محفوظ، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ محمد سلماوى، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبنى إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه، وسط شواغله الثقافية، تأخر فى ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبيه ومقدريه.. وإذا بالأستاذ سلماوى يتصل بى ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعداً فى الخامسة من مساء اليوم التالى، وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس إبراهيم المعلم، الذى تربطه ووالده بالأستاذ نجيب محفوظ علاقات ود قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم أحمد فراج.

وعلى باب نجيب محفوظ استقبلتنا بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ نجيب محفوظ فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحدا منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهنئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لى.. على غير ترتيب ولا إعداد.. أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتنى أقول: يا أستاذ نجيب، الجالسون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك ورواياتك شيئا بين فن الأدب وفن التصوير، وذلك بما نسجته فى وصف القاهرة وحياة أهلها، ونماذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان ملىء بالتفاصيل، حتى ليكاد القارئ يسمع فيه أصوات الناس ويرى وجوههم، ويتابع حركتهم فى شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها، ويكاد.. دون أن يشعر.. يدخل طرفا فى علاقات بعضهم ببعض.. وكم من مرة تعرف بعضنا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قرأه عنك فى وصفها وتصوير حياة أهلها.. وأضفت: ثم إنك يا أستاذ نجيب تظل.. فى خواطرنا.. قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتبا وأديبا مصريا خالصا، لم تدجن كتاباته وآراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربى الأصيل..

وبدا من قسمات وجه الأستاذ نجيب محفوظ وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته وأنه يرتاح إليه.. فشجعنى ذلك على أن أتقدم فى الحوار خطوة أخرى، فقلت: ويبقى أن نسألك عن رأى عبرت عنه منذ أسابيع قليلة حين بعثت برسالة وجيزة إلى الندوة التى نظمتها الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»، فقد قلت للمشاركين فى الندوة: إن أى مشروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم.. ولقد وصلت رسالتك.. على قصرها.. واضحة وصريحة ومستقيمة ولا تحتمل التأويل، ولكن يبقى.. ونحن معك نسمع لك وننقل عنك.. أن تزيد هذا الأمر تفصيلا، نحتاج جميعا إليه وسط المبارزات الكلامية التى يجرى فيها.. ما يستحق الحزن والأسف.. من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها..

وفى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق نجيب محفوظ يقول: وهل فى تلك الرسالة جديد؟.. إن أهل مصر الذين أدركناهم، وعشنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشون بالإسلام، ويمارسون قيمه العليا.. دون ضجيج ولا كلام كثير.. وكانت أصالتهم تعنى هذا كله.. ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم.. ولكنى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لا يمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب.. إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين: الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا.

وأحب أن أقول: إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية. ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداثها.. أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلاً فى «الجبلاوى»، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى «عرفة» أن يديروا حياتهم على أرضهم (التى هى حارتنا).. اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم.. فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى».

وأضاف: إن مشكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية»، وقرأها بعض الناس «كتابا»، والرواية تركيب أدبى فيه الحقيقة وفيه الرمز، وفيه الواقع وفيه الخيال.. ولا بأس بهذا أبدا.. ولا يجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية..

وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة»، فهو مثلا يتحدث عن الحاكم، ويطلق عليه وصف «الأسد»، ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان.. منتهيا بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان.. وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى.. أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته..

قلت: الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز. ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال ويبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته.. معبراً عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه.. هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة»، التى ترمز للمجتمع الإنسانى، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة»، الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم الهادية والموجهة لأهل الحارة.

وتابع الأستاذ نجيب حديثه الأول قائلاً:

إننى حريص دائمًا على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى الرأى، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و«الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر، (ولا يزال هذا موقفى إلى الآن).

قلت: إننى أتمنى.. يا أستاذ نجيب.. أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل، ليعرفوه منك بدلا من أن يعرفوه من خلال شروح الآخرين، وائذن لى أن أقول إنى كنت واحداً من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثتنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من كتاباتك القديمة والجديدة، وكانت تعبيراً دقيقًا عن منهج جيلنا وجيل آبائنا فى فهم الإسلام، فقد كانوا.. وكنا معهم.. نتنفس الإسلام تنفسا ونحيا به فى هدوء واطمئنان، دون أن نملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه.

وحين أوشكت الزيارة أن تتحول بهذا الحوار العفوى إلى ندوة، تدخل الأستاذ أحمد فراج قائلاً فى حماسة: كم كنت أتمنى أن يسمع الناس.. كل الناس.. هذا الحوار الهادئ حول هذه القضايا الساخنة. وأرجو أن يأذن لى الأستاذ نجيب محفوظ بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى فى ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر.. توضع بها النقاط على الحروف، ويعرف الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأى الأستاذ نجيب محفوظ الذى عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إنى شاكر ومقدر هذا الاهتمام، ولكنى أشفق على نفسى من فتح باب الأحاديث التليفزيونية.. وأنا لا أزال فى نقاهة لا تحتمل مثل هذا المجهود.. ولكنى.. بدلا من هذا.. أقترح أن يكتب الدكتور كمال أبو المجد هذا الحوار الذى دار كما دار.. وسأكون راضيًا عن ذلك كل الرضا..

وفى إطار هذه الرغبة الموثقة بإذن صريح من الأستاذ نجيب محفوظ وبشهادة ثلاثة من ضيوفه الكرام.. ولدت فكرة هذا المقال.. الذى هو عندى شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويتسرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرج كثيراً من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام.. كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرءوا فى أدب نجيب محفوظ ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مانحين أنفسهم قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلاً عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها عليه الله.

أدعو الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلاً عطاءه الأدبى الذى يغنى العقل والوجدان، وواهباً ما بقى من عمره المديد.. بإذن الله.. لتجلية الأمرين العظيمين اللذين أشار إليهما فى رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذى به هداية الناس وراحة النفوس، والذى يفىء ألوانا من المحبة والسماحة ودفء العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذى تحيا به العقول، والذى هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل التى تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة فى ساحته التى تتشكل معالمها الجديدة يوما بعد يوم. ■

نشر بجريدة الأهرام
فى ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

خرافة التقدم والتأخر

جلال أمين
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٧٥صفحة



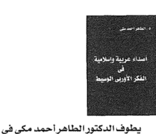
هل يمكن وصف بلد ما بأنه متقدم، ونعت آخر بأنه متخلف استناداً إلى معايير النمو الاقتصادى وحدها؟ هذا هو الطرح الذى يرفضه المؤلف مؤكداً على أن فكرة التقدم والتخلف فى حد ذاتها حديثة نسبياً، وأنها تنطوى على قدر من المراوغة شأن كثير من الأفكار التى شاعت فى العصر الحديث مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والإرهاب. يؤكد المؤلف فى هذا الإطار على الخطأ القاتل الذى يقع فيه الاقتصاديون فى عصر «التكنولوجيا» حين يتناولون الثقافة الوطنية لأمة من الأمم، والتى قد توصف بمعايير التنمية الاقتصادية بأنها متخلفة، إذ هم يسحبون الوصف ذاته على ثقافة تلك الأمة لتصبح هى أيضاً متخلفة. وتتالت «النعوت» والهجمات من نوع تحرير الاقتصاد وإعادة الهيكلة والخصخصة وتمكين المجتمع المدنى، وجميعها يصب فى هدف واحد هو إضعاف الدولة، وإنهاء دورها فى الحفاظ على الثقافة الوطنية، وفى الوقت الذى اجتهد الاقتصاديون فى البرهنة على ما تحقق فى دول العالم النامى بفعل هذه السياسات من تقدم، وتجاهلوا تماماً عملية مسخ الهوية الثقافية والحضارية لتلك الشعوب، والتى تمت على نطاق واسع.

وفى التسعينيات برز مفهوم «التنمية البشرية»، الذى استند إلى ثلاثة مؤشرات هى متوسط الدخل والعمر المتوقع وحالة التعليم، وعلى الرغم من أن هذا التصنيف جاء أوسع وأرحب فى التعامل مع التنمية بمعناها الشامل، إلا أنه ظل اقتصادياً بحتاً لا يتعامل مع الجوانب الثقافية والحضارية، وفى العام ٢٠٠٢، ظهر عن الهيئة نفسها «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» تقرير يحمل مسمى أكثر دهشة هو «التنمية العربية الإنسانية». وقدم لنا ثلاثة مؤشرات أخرى هى الحرية أو الديمقراطية، والمعرفة، وتمكين المرأة، وبدأ التقرير يقيس مدى تقدم الدول العربية قياساً ببعضها البعض وبدول غربية أخرى وفقاً لهذه المؤشرات وهى مؤشرات لا تصلح معايير للحكم كونها فضفاضة ومراوغة، كما أنها ليست متلازمة بالضرورة، أى أنك قد تحصل على الحرية لكنك لن تحصل على المعرفة، إذا أدت هذه الحرية مثلاً إلى سيطرة الدهماء على مقاليد الأمور، وقد ينتعش الإنتاج الأدبى والفكرى فى ظل قيود سياسية وأجواء تسلطية، بما يعنى أن الديمقراطية والمعرفة ليسا متلازمين بالضرورة، فضلاً عن أن الدول التى تبدو ديمقراطية تمارس أقصى حالات الاستبداد خارج حدودها، وحين تدعى أنها تحارب التطرف، فإنها تشايعه وتؤازره تحقيقاً لمآرب سياسية محددة، بالإضافة إلى ما تمثله المصالح التجارية من تهديدات للحرية وللأنساق المعرفية معاً. بهذه الرؤية النقدية يناقش المؤلف إشكالية التقدم والتخلف، ويبرهن على فسادها.

■

أصداء عربية وإسلامية فى الفكر الأوروبى الوسيط

الطاهر أحمد مكى
القاهرة: دار الهانى للنشر، ٢٠٠٥، ٣٨٦صفحة



يطوف الدكتور الطاهر أحمد مكى فى الفكر الأوروبى الوسيط، وينقب فى إبداعاته كاشفاً عن الأثر العربى والإسلامى فى هذا الفكر. أول لقاء بين المسلمين والفكر اليونانى يراه المؤلف مع فتح المسلمين لمصر، إذ كانت مدرسة الإسكندرية قائمة، وربما كانت هى المدرسة الوحيدة التى كان يجرى التعليم فيها باللغة اليونانية فى البلاد التى فتحها المسلمون، وفى هذا الإطار يدرس المؤلف ما أنجزه عالم فى الفلسفة هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك، وهو دمشقى الأصل، استوطن مصر حتى صار من أعيانها وأفاضل علمائها، وقد ألف كتباً كثيرة فى المنطق والطب والوصايا والأمثال والتاريخ، وقد ضاعت كلها ولم يبق منها سوى كتابه «مختار الحكم ومحاسن الكلم» وقد عرض له المؤلف.

وفى دراسة أخرى يتناول المؤلف قصة الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية فى المجالات الأدبية والإنسانية. ويشير إلى نشأة مدرسة المترجمين، وهى ليست مدرسة بالمعنى الكامل وإنما هى مجموعة من الدارسين واصلوا فى طليطلة وفى عديد من مكتباتها عملهم فى مجال الترجمة من التراث العربى.

وفى فصل تال، يدرس المؤلف الأصول العربية لفلسفة رايموند وليو ويستعرض فى هذا الإطار دراسة للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا.

يتضمن الكتاب أيضاً دراسات عن ألفاظ موسيقية ذات أصل عربى والأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية، ودراسة عن حى بن يقظان وفلاسفة الإسلام.

■

البرنامج النووى الإيرانى

أحمد إبراهيم محمود
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ٢٩٥صفحة



حظى البرنامج النووى الإيرانى دائماً باهتمام واسع من جانب الحكومات الإيرانية المتعاقبة، فى العهدين الإمبراطورى والجمهورى، وخصصت له موارد مالية ضخمة وجهود سياسية كبيرة، كما ووجه البرنامج بضغوط خارجية حادة لمنع إيران من مواصلة هذا النشاط، ومع ذلك استمرت الحكومات الإيرانية فى دعم هذا المشروع، وقاومت بإصرار الضغوط الدولية لتنفيذ أهداف البرنامج وعددت مصادر تمويله مادياً وفنياً، وهو ما عزز الشكوك فى الأهداف العسكرية لهذا البرنامج، وانتقلت هذه الشكوك إلى مرحلة الاتهامات العملية بدءاً من العام ٢٠٠٢ حين تم اكتشاف قيام إيران سراً بإنشاء محطتين، إحداهما لتخصيب اليورانيوم والثانية لإنتاج الماء الثقيل، وهو ما سبب أزمة عنيفة بين إيران والعديد من القوى الغربية وخصوصاً الولايات المتحدة التى استخدمت ما فعلته إيران للضغط عليها وعرقلة برنامجها النووى، وعلى الرغم من أن اتفاق باريس كان يمثل محاولة جيدة لتسوية الأزمة بموجب صفقة توقف إيران بمقتضاها أنشطتها النووية مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية وتكنولوجية وتجارية، إلا أن إيران رفضت المقايضة وعادت بالأزمة من جديد إلى نقطة الصفر خصوصاً مع تولى الرئيس أحمدى نجاد مقاليد الحكم فى أغسطس ٢٠٠٥، وتبدو احتمالات التصعيد والتسوية فيما يتعلق بهذه الأزمة مفتوحة فى كافة الاتجاهات، بما فى ذلك نقل الملف النووى الإيرانى إلى مجلس الأمن بما يعنيه ذلك من فرض عقوبات دولية على إيران، وربما ضرب الولايات المتحدة لمنشآت إيران النووية. والكتاب يتناول المسألة النووية الإيرانية منذ البدايات وحتى تداعياتها الأخيرة المنذرة بالخطر على إيران والعالم.

■

تاريخ نظريات الاتصال

أرمان وميشال ماتلار
ترجمة: نصر الدين العياض والصادق رابح
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ٢٥٤صفحة



يعرض الكتاب بتكثيف ودقة للنظريات الكبرى التى تناولت الاتصال الاجتماعى، وهذا الاتصال متعدد الأبعاد هو موضوع اختصاصات مختلفة ومساهمات متعددة فى التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والانثروبولوجيا وغيرها من العلوم، والمؤلفان أكاديميان وباحثان فى علوم الاتصال لهما دراسات مهمة فى هذا المجال، وميزة هذه النوعية من الدراسات فى عالم اليوم، ينبه إليها المترجمان حيث يؤكدان على أن نظريات الاتصال تشكل المدخل الصحيح لمناقشة الثقافة العربية، لأنها تسلح كل دارس بأدوات لإعادة النظر فيما يظنه مسلمات ويوجه النظر إلى المسكوت عنه فى الثقافة العربية والواقع العربى إجمالاً. يشتمل الكتاب على سبعة فصول وخاتمة وثبت بالمصطلحات العلمية المستخدمة فيه.

■

البحث عن مصر

مختار شعيب
القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٥، ٣١٠صفحات



هذا اجتهاد آخر فى مسألة التغيير والإصلاح المنشودين فى مصر، ويتضمن

عدداً كبيراً من الدراسات موزعة على عدة فصول، أولها يتضمن رؤى حول التغيير والإصلاح ومعايير نجاح هذا التغيير، ورؤى التيارات السياسية المختلفة لكيفية تحقيقه وسيناريوهات المستقبل وفق هذه الرؤى. ثم يطرح المؤلف فى الفصل الثانى التحديات المطروحة على مائدة الإصلاح ومنها الإصلاح السياسى والديمقراطى والإصلاح الاقتصادى، وحل مشكلات تهميش الشباب، ثم تحديات التعليم والبحث والتحديث، وكذلك مواجهة العشوائيات والمشكلة السكانية وتفشى الفساد فى مؤسسات الدولة، بالإضافة إلى التحديات الخارجية وأهمها العولمة والهيمنة الأمريكية والإرهاب والخطر الإسرائيلى. والمسألة الأساسية التى يلح عليها المؤلف فى كتابه هى ضرورة أن تتاح الفرصة للشباب كى يقدم تصوراته وأفكاره لمواجهة تلك التحديات، لأنها تصيب أول ما تصيب هذا الجيل صاحب المصلحة الأكيدة فى التغيير.

بوتين.. من الشيشان إلى الكرملين

سامى عمارة

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٩٥صفحة



كان فلاديمير بوتين يردد دوماً أنه لم يحلم طوال حياته بأن يكون رئيساً للدولة الروسية، وحين استدعاه يلتسن، لم يفاجأ بوتين باستقالته من منصب رئيس روسيا، على الرغم من أن أحداً لم يرغمه عليها، لكنه كان فى حالة من الوجوم حين اختاره يلتسن ليكون خليفته، وهو الذى كان منتهى حلمه الالتحاق بجهاز المخابرات الروسى KGB.

عاش بوتين طفولة صعبة، لكنها متشابهة مع كثير من أقرانه فى تلك المرحلة، وبسبب حجمه الضئيل، كان عليه أن يختار رياضة تساعده على عراكه مع الصبية من سنه، بدأ بالملاكمة، لكنه سرعان ما عدل عنها إلى الجودو، ولم يتجه إلى الكاراتيه لأن تعليمها كان يتم على أساس تجارى، أى ان ممارسيها كانوا يدفعون مقابل تعليمها، وهو ما لم تكن تقدر عليه عائلته.

لايتوقف المؤلف كثيراً عند مرحلة الطفولة التى لم يكن فيها الكثير مما يحكى، وانتقل إلى رفيقة حياة بوتين، لودميلا التى تروى كثيراً عن بداية تعارفهما الذى جاء صدفة فى مدينة لينينجراد، وكيف أنها لم تعرف بطبيعة عمله فى جهاز المخابرات إلا بعد عام ونصف من بدء علاقتهما، وبالصدفة أيضاً، وهى تصفه بأنه صموت وانطوائى، وعزت ذلك إلى طبيعة مدينة لينينجراد المناخية.

تواصلت مسيرة بوتين بعد ذلك وجاءته الفرصة حين عمل على حشد كبار رجال الدولة وراء رغبته فى المواجهة المسلحة فى الشيشان، وبعدها كان عليه أن يثبت جدارته فى مواجهة «الأوليجاركيا»، أو أصحاب الحظوة والثروة الجدد فى روسيا، والتى بدأت باكرا حين تولى رئاسة الحكومة، ودخل فى مواجهات حاسمة مع بعض هذه المؤسسات وهؤلاء الرجال الذين كان يعرف الكثير عن مواطن ضعفهم وثرواتهم وخصوماتهم استناداً إلى خبرته السابقة كرجل مخابرات، وبدا تحالف المال والإعلام هو الأخطر فى مواجهة بوتين، وخصوصاً أن بعض تلك الدوائر يسيطر عليها رجال مال يهود من أمثال الملياردير جوسينسكى، والذى استخدم القبض عليه من قبل السلطات الروسية استخداماً سياسياً، ووجدتها أمريكا فرصة للضغط على روسيا، ولم تكن المعركة مع المليونير اليهودى سوى جزء من صراع أوسع وأبعد تأثيراً مع دوائر المال والنفوذ الساطعة حديثاً فى سماء روسيا والتى تربطها علاقات وثيقة بالمافيا العالمية، وقد صرح الرئيس بوتين مرة بأن حجم ما يتسرب من أموال إلى خارج روسيا (عمليات غسيل) يبلغ نحو مليارى دولار شهرياً!

ولم تكن هذه معركة بوتين الوحيدة، ثمة معركة أخرى لا تقل ضراوة مع المحافظين ورؤساء الجمهوريات ذات الحكم الذاتى، وكذا مواجهة مشاعر المهانة التى اجتاحت الروس واجتاحته شخصياً بعدما انسحبت بلاده من الساحة الدولية وتقوقعت داخل حدودها مسيرة بوتين والتحديات التى واجهها ومازال، لا يسردها المؤلف من كتابات آخرين فحسب، وإنما أيضاً من مقابلات شخصية مع مسئولين روس فى أجهزة الدولة.

طرق متقاطعة

سيد البحراوى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٥، ٩١صفحة



أكثر من ٤٠ نصاً بعضها بالغ القصر، حتى أن بعض القصص لا تزيد عدد كلماتها على ٥٠ كلمة. وهى فى مجملها تقتنص لحظات إنسانية وشعورية بالغة الرهافة، يعبر عنها المؤلف بتكثيف واقتصاد لغوى شديدين، وعادية، بعض المواقف قد توحى بأنها ليس ثمة ما يغرى فى التعاطى معها إبداعياً، لكن المؤلف يخدش بذكاء هذا الاعتياد السلبى على التلقى.. ويذكرنا بأن ثمة ما يستحق التوقف عنده حتى فيما نظن أنه مألوف وآنى.

من أجواء المجموعة: (رمانتان) فى حديقتى شجرة رمان.. أحيانًا تثمر رمانات صغيرة. انتظر نضجها، لكن فى اللحظة الأخيرة أجد آخرين قد قطفوها.

فى المرة الأخيرة تابعت ثمرتيها الصغيرتين بشغف وعناية. استمرتا أكثر من شهر قبل أن تنضجا.. وذات ليلة زارتنى حبيبتى.. بعد غياب طويل.. قطفت واحدة وقدمتها لها.. قالت: لم تنضج بعد.. لكنها جميلة.. سآخذها. انتظرت عدة أيام حتى تلونت الثانية ببعض الحمرة فقطفتها وفتحتها لآكلها. كانت صغيرة وكذلك حباتها، كانت ما تزال نيئة. لكنها كانت مزًا فاستطعمت نصفها، وألقيت بالنصف الباقى إلى أرض الحديقة. قلت تستفيد منها سماداً.

أحمد الشقيرى.. بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله

عدد من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٠٤صفحات



بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين على رحيل أحمد الشقيرى عقد مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى أحمد الشقيرى ومعهد البحوث والدراسات العربية، ندوة فى القاهرة خلال الفترة من ١٤ ـ ١٥ مايو ٢٠٠٥ فى محاولة لتسليط الضوء على واحد من كبار السياسيين العرب الذين لعبوا دوراً كبيراً عبر عقود من الزمن.

يضم الكتاب بين دفتيه وقائع هذه الندوة فى محاورها الأربعة:

يتناول المحور الأول «أحمد الشقيرى الإنسان والمفكر والمناضل السياسى»، كاشفاً الأبعاد الإنسانية والفكرية والنضالية لشخصيته، وعلى دور أحمد الشقيرى المفكر والمناضل مع بدايات خروجه إلى العمل السياسى النضالى على الساحة الفلسطينية.

ويركز المحور الثانى «أحمد الشقيرى القومى العربى الوحدوى» على الجوانب النظرية من فكره وآرائه فى القضية القومية ومركزية الوحدة العربية، كما يتطرق إلى الجانب التطبيقى من إسهاماته فى قضية الوحدة وحركة التحرر العربية.

وفى المحور الثالث: «جدل الوطنى الفلسطينى والقومى العربى عند أحمد الشقيرى». أما المحور الرابع فيلقى الضوء على التطورات التى تلت انسحابه من المسرح السياسى للقضية الفلسطينية، وكذلك على ما آلت إليه هذه القضية بعد انقضاء ربع قرن على رحيله، مقدماً التصورات الممكنة لمستقبلها فى ورقة عمل.

الشهيد فؤاد الركابى

هارون محمد

القاهرة: المركز العربى الدولى للإعلام، ٢٠٠٥، ٥٨٥ صفحة



يعد فؤاد الركابى واحداً من رموز العمل القومى والناصرى، الذين امتد تأثيرهم خارج حدود القطرية ولأجيال عديدة لاحقة. والركابى الذى ولد بمدينة الناصرية الواقعة على نهر الفرات بالعراق عام ١٩٣١، كان منذ دراسته بكلية الهندسة واحداً من الوجوه السياسية الشابة حيث انخرط فى العمل السياسى مبكراً وأدى أدواراً مهمة فى قيادة التيار القومى الوحدوى فى الخمسينيات والستينيات من خلال انتمائه لحزب البعث، وقد اختير وهو فى السابعة والعشرين من عمره وزيراً للإعمار فى العراق فى العام ٥٨، وعلى الرغم من أنه أمضى شهوراً قليلة فى عمله، إلا أنه ترك بصمات واضحة مازالت شواهدها قائمة إلى اليوم، وقد استقال فى فبراير ١٩٥٩ حين وجد أن عبد الكريم قاسم يحيد عن أهداف الثورة العراقية، وبعدها بقليل صدرت أوامر بإلقاء القبض عليه، فاضطر إلى الفرار إلى سوريا إلى أن صدر ضده حكم غيابى بالإعدام فى مارس ١٩٦٠، لكنه عاد إلى بلاده من جديد فى أعقاب حركة ١٨ نوفمبر ١٩٦٣، ليتولى من أكتوبر ١٩٦٤ إلى يوليو ١٩٦٥ مسئولية وزارة البلديات ليواصل عطاءه لبلاده، دون أن ينسى دوره السياسى، حيث نشط فى توحيد التيار القومى الناصرى، وخاض معارك سياسية ضد السلطة الحاكمة فى السنوات ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨، وعندما حدث انقلاب يوليو ١٩٦٨، كان الركابى أول من استهدفه الانقلابيون، وطلب منه صدام حسين أن يتوقف عن أنشطته السياسية ولما فشل فى مسعاه أوعز إلى رجاله باختطافه، ولما انكشفت الخطة اعتقل بعدها بشهور وأودع سجن بعقوبة، وأمضى عاماً كاملاً فى زنازين معتقل قصر النهاية، إلى أن قتله أحد أعوان صدام بسكين فى السجن عام ١٩٧١.

والكتاب يحكى سيرة الركابى منذ الميلاد وحتى النهاية.

مصر التى فى خاطرى

صلاح الدين إبراهيم
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٥،
١٦٨صفحة



مجموعة من الدراسات والمقالات لمؤلف عمل لفترة طويلة فى الدبلوماسية المصرية سفيراً لمصر فى عدة دول، وتتضمن حصيلة رؤيته لهموم الواقع المصرى وآماله على مدى السنوات العشر الماضية، وقد قسمها إلى ثلاث مجموعات: أولاها الآمال والأحلام، وثانيتها: وقفة مع النفس والضمير فى مواجهة مشاكلنا، وثالثها: مقترحات ووسائل التغلب على هذه المشكلات. والدراسات تنطلق فى مجملها من إيمان راسخ بأهمية الدور المصرى وضرورة تفعيله ليس فى المنطقة العربية أو منطقة الشرق الأوسط فحسب وإنما فى العالم كله، لاستعادة التأثير الحضارى المصرى والتفاعل مع ما يجرى فى العالم، يطرح المؤلف تساؤلات من نوع: كيف أصبحنا فقراء، لماذا تخلفنا عن غيرنا، ماذا نفعل فى محنة التربية والتعليم، أين مصر من النظام الدولى الجديد. مستقبل الوطن بين الاستقرار والإصلاح، ماذا بعد خطوة تعديل الدستور، حتى نواجه أنفسنا.

وهو إذ يطرح تساؤلاته يؤكد على ضرورة الإسراع برسم خريطة المستقبل، فلم تعد الأوضاع الدولية قادرة على مساعدة من لا يتحرك فى سبيل مسايرة العصر ومسايرة التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يميز واقعنا المعاصر.

■

المسلمون فى الصين

عبدالعزيز حمدى
القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٥، ١٨٠صفحة



أبرز حقيقة عن الصين هى أنها سكان قبل أن تكون أى شىء آخر، أرضاً أو تاريخاً أو حتى جنساً أو أيديولوجية. هذا ما قاله عنها الدكتور جمال حمدان، فهذه المنطقة من العالم تضم أكبر تجمع سكانى على وجه الكرة الأرضية، أكثر من مليار و٢٠٠ مليون نسمة يعيشون فى ربوعها، ينتظمون فى أكثر من ٥٦ قومية. وبين هذه الكتلة السكانية الضخمة يدين نحو ١٠٠ مليون شخص بالإسلام وهم بدورهم موزعون بين ١٠ قوميات.

والكتاب الذى يبدأ بالحديث عن تاريخ العبادات والديانات فى الصين، ينصب بشكل رئيسى على هذه الكتلة المسلمة وقومياتها المختلفة، بادئاً بأواسط القرن السابع الميلادى الذى يؤرخ به لدخول الإسلام إلى الصين فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، الذى أرسل مبعوثاً إلى إمبراطور الصين ليحيطه علماً بالإسلام والمسلمين فى الجزيرة العربية، غير أن أسطورة أخرى تذهب إلى أن الإسلام دخل الصين على عهد سيدنا محمد الذى أرسل سعد بن أبى وقاص إلى هناك ليعرف أهل الصين بالإسلام، إلا أنه يكاد أن يكون هناك اتفاق على أن دخول الإسلام إلى الصين مر بمرحلتين: المرحلة الأولى كانت مرحلة تعريف وامتدت من عام ٦١٨ وحتى ١٢٧٩ ميلادية، ثم مرحلة انتشار الإسلام على نطاق واسع وكان ذلك فى عهد أسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨).

والمؤلف الذى عمل لأكثر من سبعة عشر عاماً باحثاً ومترجماً فى الصين للقوميات العشر الرئيسية التى ينتشر بينها الإسلام، وهو إذ يتعرض لها يتوقف كثيراً عند ثقافاتها وأساطيرها وعاداتها وأزيائها، كما يكشف فى مواضع أخرى عن المخاطر التى واجهها ويواجهها الإسلام هناك، وخصوصاً فى مرحلة الثورة الثقافية التى قادها ماوتسى تونغ.

■

فى نقد الحاجة إلى الإصلاح

محمد عابد الجابرى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٤٨صفحة



يركز هذا الكتاب على قضية الإصلاح من حيث هى قضية الساعة فى الفكر العربى بمختلف تياراته، بما فى ذلك «الفكر الرسمى» فى الوطن العربى، فيجدد فيها النظر على ضوء الظروف والملابسات التى تطرح بها اليوم.

فمن المضامين الثورية للحقيقة القائمة اليوم، والتى تعجز أقلام وألسنة كثيرين عن التعبير عنها، كون الإصلاح الذى تريد الإدارة الأمريكية إقامته فى الشرق الأوسط أو قيامه فيه - لا فرق - قد بدأ بالإفساد، ليس فقط إفساد ما كان موجوداً من صلاح قائم أو منتظر، بل أيضاً بإرباك وطمس الطريق إلى الإصلاح الحقيقى، من ثم تعتيم الرؤية التى تنشد الإصلاح. وهذا يطرح ليس اتخاذ موقف مبتسر إشهارى «مع» أو «ضد» قضية الإصلاح، كما هو الشأن حالياً، بل القيام بما ندعوه هنا: «نقد الحاجة إلى الإصلاح».

وعبارة «نقد الحاجة إلى الإصلاح» تعنى برأى المؤلف النظر إلى الإصلاح لا من حيث هو دعوة آتية من خارج، ولا من حيث هو شعار بادرت إلى رفعه قوى داخلية، بل من حيث هو «حاجة». فإذا حددنا أولاً الحاجة أو الحاجات التى تبرر جعل الإصلاح مطلباً فى العالم العربى والإسلامى، أمكن حينئذ تحديد الأهداف منه، ثم تعيين الوسائل القمينة بتحقيق هذه الأهداف. وبما أن الأمر يتعلق بـ «مفهوم» يحدد الرؤية والمنهج، كما يتحددان به، فإنه لابد من الاتفاق أولاً على مضمون هذا المفهوم، سواء فى مرجعيتنا العربية الإسلامية أو فى المرجعية الأوروبية. إن تحديد مضمون مفهوم «الإصلاح» فى المرجعيتين سيمكننا من معرفة ما إذا كنا نعنى شيئاً واحداً عندما نتكلم عن «الإصلاح»، أو أن الرافضين للمبادرة الأمريكية يفهمون من الإصلاح غير ما يفهمه منه أنصارها والداعون إلى نوع من التعامل معها.

■

مؤسسات المجتمع المدنى

أمانى قنديل
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ١٥٠صفحة



تتزايد أهمية الدراسات عن مؤسسات المجتمع المدنى فى ظل الدور الذى صارت تلعبه هذه المؤسسات فى السنوات الأخيرة فى دول العالم النامى، وقد شهدت المنطقة العربية فى عقد التسعينيات والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين اهتماماً بهذه المؤسسات، وإن كان فقر المعلومات عن هذه المؤسسات بحكم تركيبة السلطة فى المجتمعات العربية يؤثر على إنجاز دراسات موضوعية يمكن الاعتماد على نتائجها فى البلاد العربية.

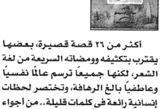
وهذه الدراسة تتناول فعالية مؤسسة المجتمع المدنى فى البلاد العربية فى ضوء المتاح من المعلومات حولها، وتلاحظ المؤلفة بعد تحليل لفاعلية مؤسسات المجتمع المدنى فى مصر مثلاً، أن هناك تطورات مهمة لحقت بأدوار الجمعيات الأهلية بعضها إيجابى، لكن بشكل عام، فإن أغلبية أدوار هذه الجمعيات قد اتجهت نحو التسكين والتدخل اللاحق فى الأزمات والقضايا، وهى أدوار وإن كانت مهمة إلا أنها لا تسهم فى عملية التغيير والإصلاح المنشودة، وفى إطار التطلع للمستقبل تقترح المؤلفة ضرورة أن تتبنى هذه الجمعيات توجهاً تنموياً شاملاً من شأنه أن يأخذ فى الاعتبار القيم والثقافة السائدة، بما يؤكد مفهوم التمكين ويوفر القدرات للمواطن ليتحول إلى مواطن منتج، ويحقق الالتحام بين الجمعيات الأهلية والسياسة العامة فى المجتمع. وترى الدراسة أيضاً ضرورة توفير ضمانات بيئة سياسية وقانونية مهيأة لدور أكثر فعالية لهذه المؤسسات، وأن تتوفر بيئة ثقافية واجتماعية تحترم المبادرات التطوعية التى تنطلق من الأفراد والجماعات.

الكتاب الذى يتألف من ٦ فصول هى: هل يمكن قياس فعالية المجتمع المدنى، فاعلية المنظمات الأهلية فى إطر السياسات العامة، الفاعلية فى تمكين المرأة، فاعلية التطوع، فاعلية الشراكة فى مواجهة تحديات التنمية البشرية، فاعلية المنظمات الدفاعية والحقوقية، يقوم أيضاً بدراسات تطبيقية على عدد من مؤسسات المجتمع المدنى التى تعنى بعضها بالمرأة وتمكينها اقتصادياً وحقوقياً فى عدة دول عربية مثل مصر والجزائر وسوريا والسودان والمغرب ولبنان، وكذلك تلك المعنية بمجالات حقوق الإنسان فى غير بلد عربى.

■

رسالة حب أخيرة

سوسن بسيسو
القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٥، ٩٦صفحة



أكثر من ٢٦ قصة قصيرة، بعضها يقترب بتكثيفه وومضاته السريعة من لغة الشعر، لكنها جميعاً ترسم عالماً نفسياً وعاطفياً بالغ الرهافة، وتختصر لحظات إنسانية رائعة فى كلمات قليلة.. من أجواء المجموعة:

ليس كل ضاحك مبتهجاً، وليس كل دامع حزيناً، وليس حكيماً دائماً من يرتدى ثوب الواعظ، ففى داخل كل إنسان جانب خفى لا يراه أحد، وصادق مع نفسه من يراه، وقمة الصدق أن يراه الآخرون، ولكن يظل الغموض دائماً القشرة الخارجية التى تحمى الإنسان أحياناً من ضعف النفوس البشرية والقناع الذى يرتديه حتى لا يعرف أحد حقيقته، وبعض الناس يلبس هذا القناع أمام نفسه.

■

أول النهـــار

سعد القرش

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٣٠٢ صفحات



على مدى نحو ١٠٠ عام وفى أجواء يمتزج فيها التاريخ بالأساطير تدور أحداث الرواية، التى يسعى المؤلف من خلالها إلى إبراز قوة المصرى على النهوض من كبواته والصمود أمام المصائب.

تبدأ الرواية باستعادة الحاج عمران لنبوءة عمرها خمسون عاماً قالتها غجرية لحليمة التى كانت دون العاشرة وقتها وتحرص على حمل الصغير عمران تتعهده وتلعب به فى حوارى «أوزير» دون أن -تعرف أنها ابنة خادم فى الدار وأن عمران هو سيدها القادم وهى مكلفة بمهمة إنقاذه قبل أن يتم عامه الأول.

قالت لها غجرية وهى تقرأ طالع الولد.. أنت أهله يا حليمة. لم تفهم البنت ولم ترد كما لم تستوعب خبر هلاك أهل الدار جميعاً، قالت الغجرية: إن هذا الولد من عائلة مشئومة تحل بها كارثة كل خمسين عاماً.

على هذا النحو من التمازج بين الأسطورى والواقعى والتاريخى تدور أحداث الرواية التى تستحضر أزمنة المماليك وصراع أمرائهم على السلطة وضحايا هذا الصراع من المصريين وصولاً إلى زمن الحملة الفرنسية، غير أن التاريخ يبقى فى الخلفية البعيدة للرواية التى عنيت أكثر بالبشر فى تفاصيل حياتهم اليومية والأساطير والحقائق التى توجه حركتهم.

■

الفكر السياسى الإسلامى

محمود أيوب الشناوى

القاهرة: مركز الكتاب، ٢٠٠٥، ٤٤٥صفحة



تأصيل لأفكار عديدة فى مجالات الفكر السياسى الإسلامى، إذ لم يكتف المؤلف بالمقارنة بين الفكر السياسى العربى والفكر السياسى عند اليونان، بل أضاف إلى ذلك الحديث عن الفكر السياسى السابق على ظهور الإسلام عند العرب.

ويلاحظ المؤلف أن الفكر السياسى العربى جاء مختلفاً تماماً عن النماذج السياسية الحضارية السابقة عليه، فبينما كانت الأطر التى تربط شعوب هذه الحضارات تتصل بشخص الحاكم كما هو الحال فى نموذج دولة الإسكندر، فإنها فى الإسلام هى القناة الدينية والتماسك المعنوى.

ويلاحظ المؤلف أن الفكر السياسى الإسلامى لم يحقق ازدهاره إلا فى وقت الأزمات السياسية، أى المراحل التى امتازت بضعف وعدم فاعلية النظم السياسية، بما يعنى أن الفكر السياسى الإسلامى فى تقاليده العربية، يقوم على أساس ربط الفكر بالواقع.

ويشير المؤلف كذلك إلى العلاقة الوثيقة بين النقل والعقل فى هذا الفكر، وهما علاقة ترتفع فى كثير من الأحيان لتصير علاقة دياليكتية -ثابتة، بين الدين بوصفه تنظيماً لعلاقة غيبية على أساس الالتزام المعنوى، والسياسة بوصفها تنظيماً لعلاقة مدنية، ومن ناحية ثانية يؤكد المؤلف على أن الفكر السياسى الإسلامى يتمركز حول ظاهرة القيادة أو السلطة، ويجعل من مفهوم الخلافة منطلقه الوحيد فى بناء وتصور الحقيقة السياسية.

هذه هى بعض نتائج الدراسة المهمة التى قدمها المؤلف بادئاً بالفكر السياسى السابق على ظهور الإسلام، ثم الصورة التاريخية للواقع السياسى للقرنين الثامن والتاسع الهجرى، مروراً بالقرون التالية، قبل أن يناقش أسس الفكر السياسى فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين وموقع العقل والنقل فيه، وكذلك ماهية هذا الفكر، والنموذج التاريخى لمفهوم السلطة بعد رسول الله، ثم دراسة لمفاهيم السلطة ومصدرها لدى مفكرى السياسة الإسلاميين، وأخيراً الإجابة عن سؤال: هل هناك سلطة دينية وسلطة زمنية فى الفكر السياسى الإسلامى؟

■

رهان الحداثة ومابعد الحداثة

عصام عبد الله

القاهرة : الدار المصرية السعودية ٢٠٠٦، ١١٩صفحة



يتتبع المؤلف مسيرة الفيلسوف الألمانى هابرماس انطلاقا من أهميته بوصفه أكبر الفلاسفة الألمان المعاصرين، وبوصفه كما يراه المؤلف «أهم فيلسوف فى أوروبا والغرب كله»، وانطلاقا كذلك مما تمثله ألمانيا فى الفكر الأوروبى المعاصر، وخصوصا مع التحولات السياسية الكبرى التى شهدتها أوروبا وتحقيق ألمانيا لوحدتها السياسية وتزعمها صدارة الصورة فى أوروبا.

ويشير المؤلف إلى ثلاث مراحل مرت بها الفلسفة النقدية لهابرماس، بدأت الأولى بنقد شامل للفكر الوضعى الذى ساد فى الغرب مع تطور النظام الرأسمالى والإنجازات التى تحققت فى العلوم الطبيعية والتكنولوجيا، وفى المرحلة الثانية سعى إلى بناء نظرية اجتماعية تؤسس لحركة تنوير جديدة تستفيد من هذه المنجزات لتحقيق قيم العدل والحرية والمساواة، وتبدأ المرحلة الثالثة منذ العام ١٩٨٥ بنقد الحداثة التاريخية، وتأكيده على اختلال التوازن بين القيم المعنوية والقيم المادية، وهو الاختلال الذى أدى إلى تحويل عقلانية التنوير إلى حالة مرضية.

ويلخص المؤلف أهم الأفكار الفلسفية عند هابرماس عبر ترتيبه للأشياء ترتيبا ثلاثيا من أشكال المعرفة إلى مراحل التطور الاجتماعى وتمييزه بين ثلاثة أشكال للنظرية يراها جميعا ضرورية للتطور البشرى، وهى تقوم بدورها على ثلاث مصالح معرفية، أى تطوير المعرفة لتحقيق مصلحة معينة، وهو يتجاوز الأفكار القائلة بأن العمل هو ما يميز البشر عن الحيوانات، ويؤكد على أن اللغة بوصفها وعاء للتواصل مسألة ذات أهمية كبرى، وإلى جانب هاتين القدرتين، أى العمل الذى يؤدى إلى ظهور المصلحة التقنية المتمثلة فى السيطرة على الطبيعة واستغلالها لمصلحتنا، واللغة التى تؤدى إلى ظهور ما يسميه هابرماس بـ «المصلحة العملية»، وهى المسئولة عن التفاعل البشرى، يبرز نوع ثالث من المصلحة يسميه «الانعتاق والتحرر»، وهى التى تخلص عملية التفاعل والتواصل من العناصر التى تشوهها.

وهذا النوع الأخير من المصالح هو الذى يؤدى إلى ظهور العلوم النقدية التى تعنى بالقدرة على التفكير والإدراك الواعى للفعل، وغايتها هى الكشف عن التشويه القائم فى التفاعل والتواصل وإصلاحه، وهو ما يسهم فى دعم ما يسميه بالفعل التواصلى الذى يرمى إلى الوصول إلى الفهم والتفاهم عبر المشاركين فى عملية التواصل.

وقد تصدى هابرماس لواحدة من أعقد المشكلات ذات التأثير على حرية الإنسان واختياراته فى العصر الحديث وهى تلك المتعلقة بالهندسة الوراثية وخريطة الجينات، وهو يرى أنه حين يتم تطبيق التكنولوجيا الحيوية على طبيعتنا الجينية وتتحكم فى الأساس الذى يعمل من خلاله العقل البشرى، فإن رؤيتنا لأنفسنا سوف تتغير تغيرا كاملا وسيتأثر بالضرورة الإدراك الباطنى المميز لكل شخص القائم على الاقتناع التام بأن الفرد هو هو الذى يبنى أفكاره على أساس من المنطق، فإذا تهدم هذا المعنى وتم التحكم فيه عن بعد، فإن المؤسسات الديمقراطية سوف تنهار أيضاً... «فمنذ عهد جان جاك روسو، يتميز المواطن الديمقراطى عن الآخرين بأنه قادر على إدراك أنه ليس فقط المستهدف من القوانين، ولكنه أيضا مصدر هذه القوانين».

فالطفل الذى سيتشكل جنينيا قبل مولده حسب رغبة الأهل، سوف يحمل مسئولية أفعاله حين يكبر لأنه من الأساس تم تحديد حريته وتوجيه اختياراته.

على هذا النحو تمضى مناقشة المؤلف لفلسفة هابرماس ومتابعة آرائه فى العديد من القضايا المعاصرة.

■

القضية الفلسطينية.. إلى أين؟

زكريا حسين

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٥، ٣٢٨صفحة



يستهدف هذا الكتاب إعداد تسجيل وثائقى للصراع العربى الإسرائيلى فى الفترة من ١٩١٧ وحتى ٢٠٠٤، ويطرح سؤال الحاضر والمستقبل: هل تريد إسرائيل السلام؟ ويجد فى المؤتمر الإسرائيلى الثالث للأمن القومى (ديسمبر ٢٠٠٢) ومؤتمر دور القوات البرية فى القرن الحادى والعشرين (نوفمبر ٢٠٠٢) إجابة للسؤال، إذ خرج المؤتمران بنتيجة مؤداها أن إسرائيل تحاصرها ثلاثة احتمالات، أولها احتمال تجدد القتال بين إسرائيل وجيرانها القريبين، وثانيها أن دولاً مثل باكستان وإيران ربما تطلق على إسرائيل أسلحة الدمار الشامل، وثالثها حدوث انتفاضة أو مقاومة مسلحة داخلية، وانتهى المؤتمران بعد تحليل عناصر القوة والضعف لدى إسرائيل والقوى المحيطة بها، إلى أن أقصى ما يمكن أن تقدمه إسرائيل هو مشروع أمنى، وأن احتمالات تفاوضها مع الجانب الفلسطينى أو السورى غير واردة فى الفكر الإسرائيلى، وأن أقصى ما يمكن أن تقدمه هو الأمن مقابل الأمن، ويرجح المؤلف أن العقد القادم سيشهد ترسيخا للاحتلال الإسرائيلى فى هضبة الجولان وتصفية كاملة للقضية الفلسطينية وحصرها فى المشروع الأمنى المقترح المسمى الانسحاب أحادى الجانب.

■

كتابات فى النقد

عبداللطيف عبد الحليم
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥،
٣٥٥ صفحة



يرى المؤلف أن الشعر مازال ديوان العرب، وأن أزمته تتفاقم لأن البعض يريد لها ذلك، وأن علاج هذه الأزمة لن يكون إلا بالتعليم الجيد والوقوف على التراث الحقيقى للأمة، ومواجهة عملية المحاربة الشرسة التى يواجهها الشعر، والتى تستهدف - كما يقول - اللغة العربية وتطعنها فى الصميم.

بين أسئلة الكتاب أيضًا الجامعة المصرية إلى أين؟ ويبدو من إجابة المؤلف أنه لا يراها فى أحسن حال.. «إذ فرغت الجامعة من رسالتها إلى حد بعيد، وغدا القائمون عليها أو أغلبهم من أهل الثقة لا الكفاءة، وأصبحت الوظائف القيادية بالتعيين لمن يرضى عنهم، وأغلبهم يريق ماء وجهه فى سبيل الحصول على المنصب».

ولا يخفى المؤلف شماتته فى الحداثة ونقادها فى دراسته عن شعر الحداثة فى مصر، ويرى أن السحر انقلب على الساحر، وكما أدان دعاة الشعر الحر أصحاب الشعر الكلاسيكى، ووجهوا بإدانة دامغة من دعاة قصيدة النثر، ونقادهم الآن فى حيرة بالغة.. «كانوا يسبحون بآلاء أصحاب الشعر الحر ويقولون دعوهم فترة من الزمن حتى تنضج تجربتهم، وها قد نضجت وولدت نسلاً غير شرعى لا يعترف بها(...) المستقبل القريب هو للشعر الأصيل».

يتضمن الكتاب أيضًا دراسات مهمة فى النقد التطبيقى عن ابن الرومى والمعرى والجارم وطه حسين والعقاد (والمؤلف من تلامذته الأصفياء) وتوفيق الحكيم وفاروق شوشة ومحمود شاكر (المحقق الذى اشتهر بأبى فهر)، وقراءات فاحصة أيضًا فى الدراسات الإسبانية وترجمات القرآن الكريم إلى هذه اللغة، ودراسة عن الشعراء العمانيين، ومقالات فى السرقات الأدبية ومدرسة العقاد فى الأدب المقارن والنحو الواضح وشفافية الشعر وأخلاقيات العمل الإعلامى.

■

مقـــام عـــراق

تميم البرغوثى
القاهرة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى،
٢٠٠٥، ٨٠ صفحة



كتب المؤلف هذه القصائد فى الأردن التى غادر إليها مضطرًا من مصر، وفى عمان كان عليه أن يرقب سقوط بغداد، المدوى فى أيدى الأمريكان وقوات التحالف.. «فكانت هذه القصيدة محاولة لأخذ صورة فوتوغرافية مكثفة لتاريخ كامل أحسست به يسحب من تحت قدمى يوم سقطت بغداد».

وهذا الديوان القصيدة، يتضمن مقاطع بالفصحى وأخرى بالعامية العراقية، كما أن فيها مقاطع نثرية كاملة وأخرى من «الأبوذيات»، وهى مواويل منتشرة فى العراق والشام.

من أجواء القصيدة: مأتم فى البلاد/ سرادقه الليل/ فيه النجوم تحاول مرهقة أن تنام/ والظلام/ مثل عنقاء سوداء فى عشها تستضيف الحمام/ مأتم فى البلاد سرادقه الليل والذكر يتلى على الحاضرين/ حسينية ليس تبكى الإمام/ النبى على بابها والحسين وباقى الأئمة/ يستقبلون المعزين دون سلام/ وتحسبهم فى سرادقها ولدوا واقفين.

■

دوريــات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،
ديسمبر ٢٠٠٥



يستهل العدد بافتتاحية بعنوان: «أى سلام؟»، كتبها سليم الحص.

ثم «مبادرة لتحرير العراق»، كما شرحها خير الدين حسيب فى مقابلة على إحدى الفضائيات والتى تناولت بنود المبادرة التى حددت رؤية القوى الوطنية العراقية للخطوات الواقعية والعملية لتحقيق هدفين: هدف تسعى لتحقيقه المقاومة والقوى الرافضة للاحتلال، وهو الانسحاب الكلى الشامل لقوات الاحتلال، وهدف تسعى لتحقيقه الولايات المتحدة وهو هدف الخروج من مستنقع العجز وتجنب كارثة هزيمة نهائية فى العراق.

وفى العدد أيضًا «الأمن العالمى فى عام ٢٠٠٥ ودروس العراق»، لأليسون بايلز، مديرة معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى.

وفى هذا العدد حوار مع محمود أمين العالم بعنوان «تجربتى السياسية قدمت لى معنى آخر لوجودى»، أجراه معه عبد الإله بلقزيز، ومراجعة نقدية لكتاب روبرت فيسك الأخير، وهى بعنوان «سيرة حياة الشرق الأوسط واغتياله المتكرر من أجل الحضارة»، كتبها سمير كرم.

■

صوت داهش

مجلة ثقافية فصلية تصدر من نيويورك بالإنجليزية والعربية منذ أحد عشر عامًا



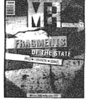
فى هذا العدد مقالة لرئيس التحرير غازى براكس يعالج فيها مفهوم القدر ويوضح أن الشعوب كما الأفراد يصنعون أقدارهم بأعمالهم. وفى مقاله أخرى يكتب علاء الأعرجى مقالة عن موقف المسلمين من القدر وكيف استغل الحكام العرب فكرة الجبرية لإخضاع المسلمين وتوطيد ملكهم. ومقالة أخرى من سميرة ماضى عن الديمقراطية فى الإسلام فى مؤلفات خالد محمد خالد وتعرض نقده لمفهوم المستبد العادل. أما مقالة سهيل بشروئى فتتناول قضية وحدة الأديان وان العصبية الطائفية من العقبات التى تحول دون ارتقاء المجتمعات العربية دون أن يعنى ذلك التخلى عن الدين بل جعل الدين صلة حية بين الإنسان وربه.

أما فى القسم الإنجليزى فيركز عاكف أبادير على العوامل البيئية المختلفة التى تضافرت لبناء شخصية نجيب محفوظ الأدبية وتوجيه أسلوبه وموضوعاته.

■

Middle East Report & Information Project

www.merip.org
(تقرير الشرق الاوسط)
مجلة أمريكية ربع سنوية تصدر باللغة الإنجليزية



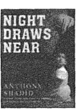
هذا العدد يهتم بحالة التمزق الموجودة فى بعض بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. افتتاحية المجلة كتبها المحرر عما يحدث فى الشرق الأوسط الآن والدور الذى تلعبه أمريكا فى محاولة حصار سوريا بتضخيم حادث اغتيال الحريرى إلى ما يحدث فى العراق من كذب أمريكى وتزوير للحقائق. بالمجلة العديد من المقالات التحليلية والموثقة. مقالة عن التجارب الديمقراطية التى تحدث فى المنطقة فى وجود اختلافات عرقية ودينية ويذكر كاتب المقالة أن حكم الأغلبية مقبول طالما لا توجد تفرقة فى حقوق الإنسان وفى حريته الدينية. مقالة أخرى عن تأثير ما يحدث فى العراق على السعودية العربية والتى بها ما يقرب من اثنين مليون نسمة شيعة يشعرون بعداء وعدم ثقة الأغلبية السنية بهم. ولكنهم فى نفس الوقت حريصون على أن يكونوا بعيدين عن الحكم فى إيران. ومقالة أخرى عن تأثير خروج سوريا من لبنان على حزب الله والتى مازالت تحتفظ بقوتها المسلحة رغم الضغوط الشديدة للتخلى عنها. مقالة أخرى عن الجريمة والعقاب فى إسرائيل ومدى اختلافها تبعا لمرتكب الجريمة أكان فلسطينياً أم يهودياً. يحلل كاتب المقال حادثة ناثان دارا العسكرى الإسرائيلى الذى هرب من التجنيد وقتل بعض العرب والدروز فى عربة نقل أفراد فى أغسطس الماضى كاعتراض على جلاء المستعمرات من غزة..

■

Night Draws Near : Iraq's People in the Shadow of America's War

(الليل يقترب)

Anthony Shadid
Henry Holt, 2005, 448PP, 26.00L



لا أحد يعرف ما الذى يحدث بالعراق على وجه الدقة، و لا يستطيع أى احد كان أن يجزم أن هناك سيناريو متوقعاً لنهاية تلك الحرب البشعة، الصورة غير كاملة لدى الجميع، حتى من هم بأرض الحدث، يعايشون الواقع المرير يوميا.

«أنطونى شديد» الصحفى الأمريكى ذو الأصول اللبنانية، و مراسل الواشنطون بوست بالعراق، يحكى لنا عن تجربته العراقية، الانفجارات اليومية، الصراع الدائر، وشعب أمضى ثلاثة عقود فى حروب مستمرة.

Disinformation : 22 Media Myths That Undermine the War on Terror

(التشويش: ٢٢ أسطورة إعلامية قوضت الحرب ضد الإرهاب)

Richard Miniter
Regnery Publishing, 2005, 256PP, 27.95$



يواجه هذا الكتاب اثنتين وعشرين أسطورة حول الحرب علي الإرهاب، تلك الأساطير روجتها وسائل الإعلام ويساعد الكثير من الناس في نشرها، المؤلف لم ينسب ترويج هذه الأساطير إلي النوايا السيئة كلها ولكنه يري انه يجب نسيان كل شيء عن تلك الأساطير وتنحيتها جانبا إذا ما أراد الشعب الأمريكي معرفة حقيقة ما يواجهه في تلك الحرب.

تعرض الكاتب للأساطير جاء مثيرا للجدل في بعض الاحيان، فهو يري أن هناك صلة بين صدام والقاعدة كما يري أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويدحض قوله ببعض الأدلة التي جمعها بنفسه من مصادر مختلفة.

يبدأ الكتاب بأربع أساطير عن بن لادن موضحا أن بن لادن لم يدرب من قبل المخابرات الأمريكية ولا مول منها، كما انه لا يملك هذا الكم من الثروة التي يعتقدها البعض.

بالإضافة إلى أنه كان معروفا قبل أحداث سبتمبر وتحدثت عنه وسائل الإعلام قبلها.

ينتقل الكاتب إلي ثلاث أساطير حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تقول أن الحكومة كانت عندها تحذيرات عدة حول بن لادن ونواياه.

وبأن الموساد كان علي علم بما سيحدث فحذر اليهود من الذهاب إلى أعمالهم في ذلك اليوم.

يتعرض الكاتب للعديد من الأساطير الأخرى حول العراق وأسلحة الدمار الشامل قائلا أن العراق كان يحتوي علي أسلحة دمار شامل.

كما يتعرض لاساطير حول مخاوف بيع السلاح النووي من قبل بعض دول الاتحاد السوفيتي السابق ويتعرض كذلك إلي الإرهاب بوجه عام.

The Assassins' Gate : America in Iraq

(بوابة القتلة)

George Packer
Farrar, Straus and Giroux, 2005, 450PP, 26.00L



بينما تتصاعد الخسائر الأمريكية فى الأرواح بالعراق، و تزيد الفوضى، تواجه إدارة «بوش» انتقادات عنيفة حول السياسة الأمريكية بالعراق خاصة، والشرق الأوسط عامة، «جورج بيكير» ينضم إلى فريق المنتقدين لإدارة «بوش»، على الرغم من كونه مؤيدا للحرب فى العراق، على حسب قوله.

و لكنه لم يكن مقتنعا بأن الحرب من أجل أسلحة الدمار الشامل المزمع وجودها لدى صدام.

ولكن كان سبب تأييده للحرب هو وجوب التخلص من «صدام حسين» ونشر الديمقراطية فى العراق، على غرار البوسنة وهايتى.

لماذا خرجت الحرب عن الطريق المحدد لها؟

وكيف وقعت الولايات المتحدة فى مستنقع الشرق الأوسط؟

أسئلة يحاول «بيكير» حلها بتتبع التغير الذى انتاب السياسة الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فالولايات المتحدة لم تعد معوقة بالتعددية، ووجوب العمل تحت منظمة الأمم المتحدة، و إنما فوضت نفسها للتصرف من جانب واحد، بعيدا عن الشرعية الدولية.

الانقسام داخل إدارة «بوش» حول الحرب على العراق، والصراع بين وزارتى الخارجية و الدفاع الذى سبب فوضى مريكة، العراق بعد الحرب والدمار الذى آل إليه، هو ما يدور حوله هذا الكتاب.

The FairTax Book

(الضرائب العادلة)

Neal Boortz, John Linder
Regan Books, 2005, 208PP, 24.95$



كتاب يعرض خطة شاملة لتطوير نظام الضرائب الأمريكي.

تلك الخطة المدعومة من أعداد كبيرة من الاقتصاديين ومن حركات ضخمة، تتلخص في إلغاء ضريبة الدخل الاتحادية ورفع ضرائب المبيعات.

الفكرة الرئيسية للخطة، التي وضعت لرفع الأعباء عن المواطن الأمريكي، هي فرض الضرائب علي الإنفاق والاستهلاك، بدلا عن الدخل، مما يزيد من معدلات الادخار لدي الطبقات الفقيرة والوسطي.

وعلي صعيد أخر يزيد من حصيلة الضرائب ككل في الدولة.

فالطبقات الأرستقراطية تصرف الكثير من المال علي منتجات ترفيهية، مثل الملابس، والمجوهرات، واليخوت، بينما يقتصر معظم استهلاك الطبقات المتوسطة والفقيرة علي السلع والخدمات الأساسية (المعفاة من الضرائب).

أيضا يري الكاتبان أن الخطة ستنعش من سوق العقارات، كما ستؤدي إلي زيادة الاستثمارات الأجنبية بالولايات المتحدة، كما أنها ستقضي علي النظام البيروقراطي البطيء، مستبدلة إياه بنظام أكثر عدلا وبساطة وشفافية.

The Demise of the Dollar... and Why It's Great For Your Investments

(هبوط الدولار.. ولماذا هو مفيد لاستثماراتك)

Addison Wiggin
Wiley, 2005, 218PP, 16.95$



بانخفاض الدولار المستمر أمام العملات الأخرى، يتضح مدي تأثير هذا الانخفاض علي المستثمرين والمستهلكين عبر العالم بأسره.

فالدولار (العملة الاحتياطية العالمية) أصبح مثقلا بالديون.

ويعاني من اختلال توازن هيكلي رهيب، وهذا ما لم يحدث من قبل لأي عملة احتياطية عالمية في التاريخ المالي العالمي.

«اديسون ويجين»، - مدير تحرير، وناشر لنشرة (المحاسبة اليومية)، التي يصل عدد قرائها إلي ما يزيد على ٥٠٠،٠٠٠ قارئ يوميا، بالولايات المتحدة، وبريطانيا، والتي تترجم إلي الفرنسية والألمانية والأسبانية.

يحاول في هذا الكتاب تبيين حقيقة انخفاض سعر صرف الدولار، وأسبابه، وتأثير ذلك علي الاقتصاد العالمي.

ويتطرق المؤلف فى كتابه إلي مواضيع مثل العجز التاريخي للدولار، اليورو، عادات الإنفاق الحكومي، العولمة، والعديد من العوامل الاقتصادية العالمية الأخرى.

كما يحاول تقديم نظرة مقربة لمحاولات الاحتياطيات الفيدرالية لإدارة قيمة الدولار.

أعطي الكاتب أيضا الاستثمارات الصغيرة وحقائب الاستثمار الشخصية مساحة من التحليل.

كما يقدم نظرة عميقة دارسة لتأثير انخفاض الدولار عليها، واضعا العديد من النصائح المفيدة للمستثمرين.

The Historian

(المـــــؤرخ)

Elizabeth Kostova

Little, Brown, 2005, 656PP, 25.95$



تبدأ أحداث القصة بأمستردام عام ١٩٧٢، عندما تجد فتاة أمريكية، ذات ستة عشر ربيعا، كتابا قديما في مكتبة أبيها الدبلوماسي، الكتاب فارغ من الكتابة إلا من نقوش خشبية لتنين وكلمة «دراكولا»، كما تجد بداخل الكتاب رسالة مؤرخة بتاريخ عام ١٩٣٠، ومعنونة إلي (وريثي العزيز السيئ الحظ)، أثارت هذه العبارات فضولها، مما دفعها إلي مواجهة أبيها، الذي جاء رده مقلقا ومترددا، فقد حمل في طياته قصة مخيفة جدا.

أحداث القصة تعكس الكثير من الأبعاد التاريخية المختلفة، والأحداث السياسية من تراجع وتقدم، وهزائم وانتصارات، التي شكلت وطن دراكولا، فتارة ما تجده وسط البيزنطيين، وتارة مع العثمانيين، وسط القبائل المحلية، أو الكنيسة الأرثوذكسية، وأحيانا في مجتمع جديد كالاتحاد السوفيتي.

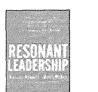
■

Resonant Leadership

(القيادة الرنانة)

Richard E. Boyatzis, Annie McKee

Harvard Business School Press, 2005, 240PP, 25.95$



ليس معامل الذكاء (IQ) وحده من يحدد قدرة الشخص علي القيادة، وإنما أيضا يتدخل الذكاء العاطفي (EQ) بقوة في تحديدها، في هذا الكتاب الجذاب اهتم الكاتبان «ريتشارد بويتزس» و«آني مكي» بالجوانب الإنسانية للقادة، فاهتما بتحليل العوامل النفسية والعاطفية والطبيعية التي تضعف الإنسان - رجلاً كان أو أنثي - أو تقويه.

يبدأ الكاتبان بوصف جو العمل المرهق جدا الذي يواجهه القادة يوميا، موضحين كيف أن الكثير من القادة حسني النية يسقطون في فخ عدم الانسجام الذي يحدث كنتيجة طبيعية للإرهاق، ثم ينتقلان إلي المشاكل الأخرى التي يواجهها القادة عاطفيا، مما يجعل أساليب قيادتهم غير ذات تأثير.

بعد شرحهما الأولي للمشاكل التي تواجه القادة ينتقل الكاتبان إلي عرض للحلول مباشرة، حائمين حول ثلاث نقط رئيسية، يعتقدون أهمية وجودها دوما من أجل الوصول إلي القيادة الرنانة (الحرص والأمل والشفقة)، موضحين أن تلك ليست مجرد مفاهيم عابرة، وإنما تلك المفاهيم هي ما تشكل محك القيادة الرنانة، فهي السبيل الوحيد إلي القدرة علي القيادة تحت ضغط العمل المستمر، والهروب من فخ عدم الانسجام، مؤكدين علي أن الراحة والاسترخاء ليسا كافيين أبدا لإعادة المرونة العاطفية للقائد.

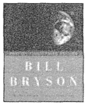
■

A Short History of Nearly Everything

(المختصر عن كل شيء)

Bill Bryson

Broadway, 2005, 624PP, 35.00$



كل الأسئلة التي خشيت أن تسألها في المدرسة وأنت صغير، تجدها هنا، في كتاب مدعم بالرسومات التوضيحية غني بالمعلومات العلمية المفيدة والمثيرة.

الأسئلة الأقدم والأكبر عن الكون وعن الإنسان، التي طالما سألناها لأنفسنا، «بيل بريسون» يحاول هنا مساعدتك في فهم هذا، بل ومساعدتك أحيانا علي الإجابة بنفسك، بدءاً من الانفجار الكبير حتي الحياة الحضرية التي نعيشها الآن، في محاولة لفهم كيف تحول الإنسان من لا شيء إلي ما هو عليه الآن.

الإجابات ليست دائما جادة بقدر ما هي عميقة، مضحكة أحيانا، الكتاب يأخذك في رحلة مشوقة ومسلية إلي عالم المعرفة الإنسانية، لتعرف بنفسك كيف أصبحنا هنا.

■

The Empty Tank : Oil, Gas, Hot Air, and the Coming Global Financial Catastrophe

(الصهريج الفارغ: النفط، الغاز، الهواء الحار، والكارثة المالية العالمية القادمة)

Jeremy Leggett

Random House, 2005, 256PP, 24.95$



لا يخفي علي احد أن النفط أصبح شيئا حيويا للحياة، يدخل بطريقة أو بأخري في كل ما نقوم به، فتسعون بالمائة من وسائل النقل في العالم يتغذي بالنفط، وخمس وتسعون بالمائة من المنتجات الغذائية تطلب استعمال النفط في احدي مراحل إنتاجها، حتي تربية بقرة واحدة لحين وصولها إلي السوق يتطلب ستة براميل من النفط. يصل حجم الاستهلاك العالمي للنفط هذه الأيام إلي ٨٠ مليون برميل يوميا، يتوقع أن يصل إلي ١٢٠ مليون برميل يوميا بحلول عام ٢٠٢٥.

«جيرمي ليجيت» الجيولوجي ومسئول السلام الأخضر السابق، والمدير التنفيذي لإحدى شركات الطاقة المتجددة، يحذر من كارثة ستجتاح العالم قريبا نظرا لبلوغ استهلاك النفط ذروته، فاحتراق الوقود يؤدي إلي ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون، وبالتالي درجة حرارة الجو، مما سيؤدي إلي اختلال مناخي تام، يؤثر علي مستوي المياه في البحار والمحيطات بسبب انصهار الجليد في المنطقة القطبية، الذي - بالطبع - سيؤدي إلي مجاعات تجتاح بقاعاً كثيرة من العالم، ناهيك عن الحروب التي ستقوم بسبب النفط.

يلفت «ليجيت» النظر إلي التواؤم الذي حدث بين أسعار الجازولين وكارثة إعصار «كاترينا»، كما يلفت النظر إلي أزمة عام ١٩٧٣ التي حدثت بسبب ارتفاع أسعار النفط، موضحا آثار ذلك علي السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط التي تهتم الآن بالمقام الأول بتأمين النفط.

يري «ليجيت» أن الحل المثالي لما يمكن أن يحدثه انتهاء النفط أو زيادة معدلاته من كوارث بيئية واقتصادية، هو الاتجاه الجدي للاعتماد علي الطاقة المتجددة مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، والطاقة الهيدروجينية، حفاظا علي عالمنا من الحروب والكوارث البيئية.

■

Bag the Elephant : How to Win and Keep Big Customers

(كيس الفيل: كيفية الوصول والحفاظ علي العملاء الكبار)

Steve Kaplan Bard Press, 2005, 208PP, 19.95$



كتاب جديد، أكثر من مجرد كتاب يتعلق باستراتيجيات العمل داخل مؤسستك، كتاب مكتظ بتعليمات، وأمثلة، قصص حقيقية، وأدوات وأساليب وضع استراتيجيات عملية.

في الفصل الأول (فيلك ينتظر) يصف الكاتب الاستراتيجيات المختلفة للحصول علي الأفيال ولترتيب العمل معها، كما يقدم عدة وسائل لقياس معدل نجاحك في الحصول علي عملاء كبار والحفاظ عليهم. في الفصل الثاني (ما تعرفه عن الفيلة) يقارن «كابلان» فيه بين الأعمال الصغيرة والكبيرة، ويصف تحديات تقليل الفجوة بين الاثنين إذا ما اشتركا في عمل أو مشروع واحد.

وصولك إلي العميل الكبير والوصول إلي توقيع أول عقد أو صفقة سويا، جاء شرحه بطريقة إجرائية في الفصل الثالث (مغازلة فيلك)، أما الفصل الرابع (حافظ علي فيلك) ففيه يعرض «كابلان» خطة للإبقاء علي ما كسبته، وهو ما يراه أصعب ما بالموضوع.

في آخر فصوله يستعرض «كابلان» خمسة أخطاء قاتلة، قد يكون من شأنها - إذا ما ارتكبتها - ضياع كل عملائك المهمين.

■

The Art Book For Children
(الفن للأطفال)

Editors of Phaidon Press
Phaidon Press, 2005, 80PP, 19.95$



مجموعة من أعظم الأعمال الفنية العالمية، مقدمة للأطفال في طريقة جديدة وممتعة، تشجعهم علي النظر في عناية إلي الأعمال المختارة ومحاولة استخدام خيالهم في فهم مكونات العمل الفني وإدراك محاولات الفنان في إيجاد العمل وكيفية قيامه بهذا.

ثلاثون عملاً فنيًا اختيرت لهذا الكتاب، نظرا لأهميتها الفنية التاريخية، ونظرا لطبيعتها التي تستهوي الأطفال.

«ليوناردو دافنشي»، «فان جوخ»، «ماتيسس»، «ريمبراندت»، «ترنر وفيل» والكثير من عمالقة الفن حاضرون في الكتاب، كما توجد أيضا مساحة لبعض الفنانين الحاليين أمثال «سيندي شيرمان» و«دونالد جود». الكتاب (الفن للأطفال) ليس للأطفال فقط، وإنما سيكون ممتعا وجديرا بالاهتمام إلي القراء من جميع الأعمار.

Japanese Women Don't Get Old or Fat : Secrets of My Mother's Tokyo Kitchen
(النساء اليابانيات لا يشخن ولا يسمن: أسرار مطبخ أمي بطوكيو)

Naomi Moriyama, William Doyle
Delacorte Press, 2005, 288PP, 22.00$



من المعروف أن ٣٪ فقط من نساء اليابان يكتسبن وزنا إضافيا، وهي النسبة الأقل بين الدول الصناعية، كما يصل متوسط أعمارهن إلي ٨٥ عاما، الكاتبة «نعومي موريما» اليابانية الأصل وزوجها «وليام دويل» يعزيان ذلك إلي العادات الصحية في الطعام للشعب الياباني.

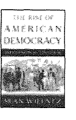
من هذا المنطلق يعرض لنا الكاتبان أسرار المطبخ الياباني في هذا الكتاب، عن طريق تقديم وصفات والدة «نعومي» «تشيزوكو» للطعام الياباني، ووصف مكونات مطبخها من أدوات ومكونات للطعام.

أغلب الوصفات في الكتاب مبنية علي أحد الأعمدة السبعة للمطبخ الياباني (السمك والخضار والأرز والصويا والمعكرونة والشاي والفاكهة).

الكتاب يأتي بعد كتاب «مريلا جوليانو» (النساء الفرنسيات لا يكتسبن سمنة أبدا)، مما يعطي مؤشرا عن ظهور العديد من الكتب التي تتناول عادات الشعوب في الطعام والوصفات الخاصة بكل شعب علي حدة.

The Rise of American Democracy: Jefferson to Lincoln
(صعود الديمقراطية الأمريكية: من جيفيرسن إلي لنكولن)

Sean Wilentz
W. W. Norton, 2005, 992PP, 35.00$



«ويلينز» أستاذ التاريخ بجامعة برينسيتون، يحاول أن يستكشف في كتابه (صعود الديمقراطية الأمريكية) العوامل التي ساهمت في بناء السمة الديمقراطية للمجتمع الأمريكي.

ويستخدم المؤلف الوسائل التقليدية في التركيز علي الأحداث السياسية الهامة التي مر بها المجتمع الأمريكي بالإضافة إلي استخدام نزعات حديثة لبحث دور المجتمع والفرد العادي في تشكيل الأحداث التاريخية.

ويكشف الكتاب عن جذور الراديكالية الديمقراطية في حملات الإصلاح الشعبي للدستور أثناء الثورة وأثناء عهد «جاكسونيان».

يتتبع «ويلينز» تطور الديمقراطية منذ عهد «توماس جيفيرسن» الذي لعب دورا رئيسيا في بناء قواعد الديمقراطية الأمريكية، حتي «أبراهام لنكولن» الذي مثل التغيير الفكري للديمقراطية في فترة حرجة من تاريخ الأمة الأمريكية.

ويعترف المؤلف بأن الديمقراطية الأمريكية في بدايتها لم تكن تساوي بين كل المواطنين كما لم يشارك معظمهم في إرساء قواعدها، خاصة السود والنساء، بل وأحيانا الرجل الأبيض الذي ينقصه الثروة والقوة.

في كتابه يستعرض «ويلينز» القوى الشعبية التي أثرت علي نمو مبادئ الديموقراطية الأمريكية منذ عهد الثورة وحتي الحرب الأهلية، التي يراها حربا علي معني الديمقراطية بين نعرة الجنس المتفوق والقومية العادلة لجمهورية «لنكولن».

Team of Rivals : The Political Genius of Abraham Lincoln
(فريق المتنافسين: العبقرية السياسة لأبراهام لينكولن)

Doris Kearns Goodwin
Simon & Schuster, 2005, 994PP, 35.00$



هل فعلا يحتاج عهد لينكولن المزيد من التأريخ؟ علي الرغم من صدور العديد من الكتب في هذا الشأن، المؤرخة «دوريس كيرنس غوودوين» في كتابها (فريق المتنافسين) أثبتت انه لا يزال هناك ما لم يتعرض له أي كتاب سابق.

في كتابها، اهتمت «غوودوين» بالنظر بعمق إلي أسلوب «لينكولن» في القيادة ومدي قدرته علي فهم السلوك الإنساني ودوافعه.

كان هذا من خلال إلقاء الضوء علي علاقة «لينكولن» بأربعة رجال من المنافسين له في انتخابات الجمهورية عام ١٨٦٠، والذي اختار «لينكولن» منهم فيما بعد ثلاثة لوزارته، علي الرغم من معارضتهم له الدائمة، «سيوارد» أصبح وزيرا للخارجية، «سلمون» وزيرا للخزانة، و«بيتس» شغل منصب المدعي العام.

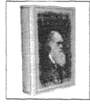
كيف استطاع «لينكولن» ضم الرجال إلي صفه، محولا التنافس المحتدم فيما بينهم إلي تحالف قوي، وكيف كسب احترامهم، ناهيك عن إعجابهم.

وكيف تعامل «لينكولن» مع باقي التحديات التي واجهت إدارته.

وكيف قاد الأمة الأمريكية خلال أكثر فتراتها ظلاما، هذا ما يدور حوله كتاب «غوودوين» فريق المتنافسين.

From So Simple a Beginning: Darwin's Four Great Books
(من البساطة بداية: كتب داروين الأربعة العظيمة)

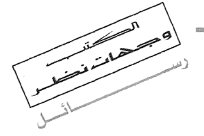
Charles Darwin
Edward O. Wilson
Norton; Slipcase edition, .W .W 2005, 1706PP,



«داروين» صاحب نظرية النشوء والتطور، النظرية الأكثر جدلا علي مر العصور، يجمع له «ادوارد ويلسون» أربعة نصوص من أهم ما كتب بين دفتي كتاب واحد، ملحقة بمقالة تمهيدية مبدعة، ومقدمات تتميز بوجهة نظر جديدة ومفصلة لكل نص علي حدة.

بالإضافة إلي كلمة ختامية توضح مصير نظرية النشوء والتطور في عصر شهدت فيه مقاومة دينية، بالإضافة إلي هذا قدم لنا «ويلسون» دليلاً جديداً يربط المفاهيم الدارونية من القرن التاسع عشر بالفكر الحيوي المعاصر، موضحا تعارضها مع الفكر الديني التوحيدي.

الأربعة نصوص التي يتضمنها الكتاب هي : رحلة الـ (S.M.H) بيجل (١٨٤٥)، أصل الأنواع (١٨٥٩)، هبوط الإنسان (١٨٧١)، أسلوب التعبير عن المشاعر في الإنسان والحيوان (١٨٧٢).



﴿ ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ﴾

المسلمون والأقباط والمساواة مبدأ المواطنة

الملف الذى نشرته «وجهات نظر» فى العدد الماضى حول إشكالية المواطنة يثير إشكاليات أخرى يتضمنها ولا يشير إليها. تنصب المناقشة على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، وهى إشكالية قديمة لا تنتظر أن يثيرها قيام حكم دينى، بل هى مثارة الآن بالفعل. وإذا كان المسلم غير مكلف بمحاسبة غير المسلمين كما يقول الشيخ القرضاوى فإن هذه الإشكالية تعتبر منتهية كما أوضح الكاتب. ثمة إشكاليات أخرى ليست منتهية وتحتاج إلى نظر، ترتبط أولاها بوجود مسلمين خارج ما يسمى الإسلام السياسى. هل لهؤلاء حق المساواة طبقاً لمبدأ المواطنة أيضاً؟ الإجابة هنا ليست بديهية، فالفرض الأساسى هو وجود أكثرية مسلمة وأقليات غير مسلمة، وهذا ينطوى ضمنياً على أن ممثلى الإسلام السياسى يمثلون الأكثرية المسلمة، ولا تبقى بهذا سوى إشكالية مرتبطة بالأقليات غير المسلمة، فهل هذا صحيح؟

والفرض الرئيسى نفسه لا يحتوى على وجود أغلبية سياسية وأقليات سياسية، فأين الجامعة السياسية، بل أين مبدأ المواطنة فى الأساس؟ هذه إشكالية ثانية. وينبنى على هذا إشكالية ثالثة تتعلق بالفروق القومية. وفقاً للفرض المشار إليه لا توجد أمة بل يوجد مسلمون وغير مسلمين، والكل يعتبرون طوائف، هكذا تتفتت الأمة الواحدة إلى طوائف بينما يتساوى المسلمون من مختلف الأمم، فهل نعود إلى عصر تستبد فيه أمة مسلمة بأمم مسلمة أخرى تحت راية الإسلام وبحجة أن فى تلك الأمة خليفة المسلمين؟

وهل هذه التركيبة لأن المصالح الدنيوية هى ما ينتج عنها أغلبية وأقليات سياسية؟ وهل هذا سبب كاف لتجاهل المصالح الدنيوية؟ هل تنتفى الفروق بين أفراد كل طائفة وتتساوى مصالحهم لمجرد اتفاق دينهم أو لمجرد قيام حكومة دينية؟ لا يمكن أن نفترض أن تماثل الدين بين الأفراد يجعلهم جميعاً متفقين فى كل شىء، فمن أين ينبعث ما يوجد الآن من اختلاف المصالح بينهم وكيف يختفى؟

ومع ذلك سوف يتعين على ما يسمى الطوائف الدينية أن تتفق على قاسم مشترك يجمعها، فهل يكون دينياً أم غير دينى؟ ولو كان دينياً فهل يتم تفتيش القلوب لاكتشاف وعقاب من لا يؤمن بدين؟ ولو كان غير دينى فلماذا الاعتراف بقاسم مشترك فقط عند اختلاف الدين؟ وحينئذ هل لكل من يختلف مع طائفته أو أحد أفرادها أن يغير دينه لينال حقاً لا يناله بطريقة أخرى؟ أيتحول كل خلاف فردى إلى نزاع بين الطوائف، أو إلى نزاع دينى؟

وما المرجع لحل مثل تلك الخلافات الفردية؟ أيكون الفكر الدينى وحده مرجع حل كل خلاف فى ظل الحكومة الدينية؟ هذا يطرح إشكالية المساواة بين المذاهب الإسلامية، لدينا عشرات المذاهب لا يمكن أن تصادر كلها لحساب فصيل يختار نفسه ليكون وحده صاحب حق التحدث باسم الله. أم أن الناس سوف تختار بالانتخاب فصيلاً يكون هو ذلك المتحدث وتكون أولى مهامه قمع كل الفصائل الأخرى؟

وكيف ينتخب الناس متحدثاً باسم الله؟ وإذا لم يكن الانتخاب جائزاً فكيف عندئذ يثبت المتحدث باسم الله أن الله اختاره متحدثاً باسمه؟ أفهم أن يتحدث باسم الله رسول من عنده، وقد آمنا بأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل؟ ولو قلنا إن العلماء ورثة الأنبياء فمن أى مذهب يكون العلماء؟ أم ينقسم العالم الإسلامى إلى أمم بعدد ما يوجد من مذاهب؟

هذه الإشكالية الأخيرة بالذات يحلها فصيل أو مذهب بنفى جميع المذاهب دفعة واحدة ودون مناقشة حين يقول إنه لا يوجد الآن إسلام؟ لا يوجد بالتالى مسلمون غيرهم وهم يقررون ذلك لأنفسهم. لا أقول إن كل فصيل يستطيع أن يقرر لنفسه ذات الصفة. أهذا إعلان أو بشارة حرب دينية قادمة؟

د. حمدى الحناوى

الفساد الأكبر والأصغر

لقد قرأت وبإمعان مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة والمعنون من الفساد الأصغر إلى الفساد الأكبر وذلك فى عدد نوفمبر ٢٠٠٥ من وجهات نظر وقد استوقفنى المقال كثيراً وقرأت بتروٍ ما يعنيه الكاتب من بين السطور وبعد قراءة المقال الذى أثلج صدرى أيقنت أن الكاتب قد وضع يده على مكمن الداء وأوضح لنا أهم أسباب تخلفنا ومعاناتنا تكمن فى الفساد الذى استشرى فى جميع أوصال عالمنا العربى، فقد صال وجال وحلل الأوضاع المتردية كمبضع الجراح الماهر. سوف أسرد واقعتين حدثتا عندنا فى مصر المحروسة وأرجو التعليق عليهم:

الواقعة الأولى: اشترى أحد الأشخاص من بلدنا فى الصعيد سيارة من أحد الأشخاص فى الوجه البحرى واستعملها فترة وعندما جاء موعد تجديد الرخصة قالوا له اذهب وأحضر شهادة مخالفات من الجهة التى اشتريت منها السيارة، فذهب لإحضار الشهادة من مرور هذه المحافظة، فقالت له الموظفة فتح مخك. فقال لها يعنى إيه.

قالت له: عشرين جنيهاً أى رشوة، فقال لها أنا ضد الرشوة وذهب على الفور إلى مكتب مدير المرور.

وكان للأسف رتبة كبيرة وقص عليه ما حدث فرد عليه باستهتار وبلامبالاة يا شيخ اجرى وفتح مخك فرجع إلى الموظفة وأعطاها العشرين التى طلبتها فرفضت وقالت أنا عايزة ٤٠ جنيهاً فقال لها: لماذا؟ قالت: عشرين لى وعشرين لمن ذهبت إليه!!

الواقعة الثانية: موظف مرض مرضاً شديداً فى القاهرة فذهبت به أخته إلى مستشفى (...... ....) للتأمين الصحى فأهملوه إهمالاً جسيماً فكتبت أخته إلى بريد القراء فى إحدى الصحف وأشارت إلى مدى الإهمال الذى قوبل به أخوها فى المستشفى وذكرت اسم أخيها وذيلت كلامها بتوقيعها وتاريخ دخول المستشفى.

ثم بعد ذلك رد الدكتور عميد المستشفى بعدها بفترة طويلة أى أكثر من شهر بأن المريض الآن فى تحسن ويسير فى طرقات المستشفى ثم رد عليه محرر البريد فى الصحيفة بأن المريض توفى من ٢٥ يوماً وعجبى.

صابر محمد عبدالواحد
مدرس بمدرسة أبو القاسم
أخميم - سوهاج



هل نحن نوبليون؟

الأستاذ أيمن الصياد.. مقالكم العميق والقوى (هل نحن حقاً نوبليون؟) بعدد نوفمبر ٢٠٠٥ أثار الكثير من الشجون..

ويشغلنى من زمن بعيد قضية الوجدان العام، أو عقلية العامة.. الخلل والإيجاب. وهل هناك دراسات ميدانية (وافية) شافية تستطيع أن تفسر؟

القضية تطرح بالتداعى التلقائى مسألة الديمقراطية..

الديمقراطية حتى تتحقق بصورة شبه مبتغاة (حيث لا يوجد عالم من اليوتوبيا أو المدن الفاضلة تقتضى قاعدة واعية.

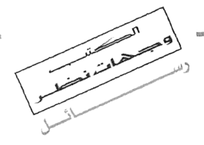
والوعى لا يتحقق بفطرة سليمة فقط، ولكن بعلم مصحوب بوعى، وهى مفتقدات فى عالمنا المسمى الثالث. هناك خلل كما أشرت وأكدت فى System.

والنتيجة هذه الظواهر المحزنة التى تسوق إلينا فى كل لحظة دراميات دامية مؤسية.

هل من الممكن طرح التساؤل الآتى: (هل من بدائل للديمقراطية تتفق وظروف العالم الثالث؟) توقظ وتضبط قاعدته وبالتالى تحقق آليات جديدة تحاسب القادة، ولا تعطيهم كما يحدث الآن من مبررات للتلاعب، واستمرار لحكم الفرد وبطانته..

قصة مكررة منذ زمن، وعبرة منسية يسعد بها السادة لأنها تعطيهم صكوكاً جديدة للانتفاع والاستمرار.

محمد المهدى



هولاكو تترى لا علاقة له بتتار روسيا المعاصرين.. وهـذه هـى الأسـباب!

بحكم التاريخ والجغرافيا خلت انه قد يكون مناسبا ان اسمح لنفسى بالتعليق على بعض مما سجله الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله المهم بـ «وجهات نظر» عدد نوفمبر ٢٠٠٥ فى أعقاب زيارة قام بها إلى تتارستان أى بلد التتار المعاصرة. فالتاريخ يعود إلى أزمان قديمة اقتربت فيها من هذه المنطقة منذ قدمت إلى الاتحاد السوفيتى للحصول على درجة الدكتوراة فى نهاية ستينيات القرن الماضى، اما عن الجغرافيا فتفسيرها نجده فى السياق نفسه.

فى تحقيقه الذى اختار له عنوان «رحلة إلى بلاد التتار» تناول الأستاذ هويدى تاريخ هذه المنطقة من منظور أخاله جديرا بالتوقف عنده ولا سيما انه يعيدنى إلى فترة قريبة مضت شهدت اول زيارة لمسئول تتارى رفيع المستوى للقاهرة فى تسعينيات القرن الماضى. كان ذلك يوم وصل الرئيس منتيمير شايمييف ضيفا رسميا على الرئيس مبارك على رأس وفد، بدا اهتمامه كبيرا بتوقيع اتفاقية تآخ مع محافظة المنوفية مسقط رأس الرئيس مبارك.

آنذاك تساءل الكثيرون عما يدفعنا إلى توطيد أواصر صداقة مع أحفاد من سبق ومارسوا معنا أقسى أوجه التعامل البربرى يوم غزت جحافلهم بغداد فى عام ١٢٥٨ .

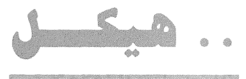
وكان الضيوف مطالبين بتفسير أبعاد انتمائهم إلى ذلك الشعب التتارى الذى يظل التاريخ يربطهم بهولاكو وما اقترفته يداه من جرائم. آنذاك ردد الضيوف بعضا مما سجله الأستاذ فهمى هويدى حول أن تتار اليوم بولغاريو الأصل نزحوا من الجنوب الغربى واستوطنوا حوض نهر الفولجا بما يعنى انهم ليسوا أولئك الذين ارتكبوا الكثير من جرائم ذلك الزمان، وهو ما يبدو فى غير وفاق مع وقائع تاريخية تقول بأن التتار أمة واحدة استنادا إلى معلومات تاريخية ننقلها عن أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء التتار الذين منهم من يقول انهم بولغاريو الأصل ولا علاقة لهم بتتار المغول.

يقول البروفيسور أورزامانوف رئيس قسم الأنثولوجيا بمعهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم التتارية أن التتار أحد الشعوب الناطقة بالتركية من سلالة الأقوام الرحل التى طالما جابت المناطق من آسيا الوسطى إلى حوض الفولجا وبلاد البولغار. قال اورزامانوف أن التاريخ لم يكشف حتى النهاية الأصول التاريخية وأبعاد العلاقات المتشابكة بين المجموعات التتارية التى طالما انتشرت فى سيبيريا بين بحيرة بايكال وجبال الطاى ومناطق الاورال وما جوار بحر الخزر الذى يسمى اليوم بحر قزوين. وقال أيضا إن الاتصالات تدعمت بين تتار استراخان وتتار سيبيريا مع تتار الفولجا والاورال فى النصف الثانى من القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ما أسفر عن نتائج اثنية هامة ومنها ظهور المجموعة الاثنية التى تشكل أساس ظهور الأمة التترية. وبغض النظر عن مدى دقة هذه المعلومات أو تضاربها مع تلك التى تبدو محاولة لدفع الاتهامات عن التتار والتى تقول بأنهم من أحفاد هولاكو والمغول ممن ارتكبوا مجازر ذلك الزمان، فإن أغلب الظن انهم ائتمروا بأمرتهم وشكلوا القوة الضاربة لجيوش جنكيز خان وأحفاده من هولاكو إلى تيمور لنك أو تيمور الأعرج الذى فتح خوارزم وفارس وسوريا ومصر ودمر بغداد فى عام ١٣٨٦ . ويذكر التاريخ أن هذه القبائل والشعوب الرحل حكمت الإمبراطورية الروسية لما يزيد عن قرنين من الزمان، حتى استطاع ايفان الرهيب كسر شوكتهم والاستيلاء على قازان العاصمة فى ١٥٥٢ وإخضاعها إلى الإمبراطورية الروسية. أما عن قازان وما استعرضه الأستاذ فهمى هويدى من تفسيرات لمعانى هذا الاسم التاريخى ومنها إنها تعنى كلمة «قدر» تشابها مع التضاريس الجغرافية لموقعها وانها مستمدة من كلمتى «قا» و«شان» أى بداية الحدود بوصفه ركيزة الحصون الشمالية للمملكة البولغار فإننا نضيف أيضا تفسيرات أخرى ساقها المؤرخون على مدى تاريخ هذه المدينة. ومنها ما يردده البعض أنها مستمدة من اسم نهر «قازانكا» شأن موسكو التى تستمد اسمها من نهر موسكو وكابول التى اتخذت اسمها من نهر كابول وسمولينسك الروسية من نهر سمولكا.. إلخ. لكن هناك من يرتكز إلى علم الاشتقاق ويقول إن هناك ما يجمعها مع اسم القازاخ أى «قاز» و«ساخ» وتعنى شعوب البرارى او الشعوب الرحل الحرة، بل وهناك من يردها إلى الاسم العربى «حسن» أو كما ينطقها الروس والتتار «خاسان».

وليسمح لى الأستاذ هويدى بالاجتهاد فى تصحيح المعنى الذى أورده تفسيرا للكنية المقترنة بأسماء كبار رجال الدين مثل اسم مفتى تتارستان «عثمان حضرت»، و«حضرت» ينطقونها هنا «خازرات» لغياب حرفى الحاء والضاد عن الأبجدية الكيريلية التى تحول إليها التتار. كما ان «خازرات» هذه كلمة تركية اعتقد أنها تعنى «المحترم» وهو النداء الذى يُخاطب به علية القوم من رجال الدين التتار.

وفى محاولة لتهدئة روع اشقائنا فى العقيدة نقول إن اضطرار بعض قدامى التتار إلى الانضمام إلى جيوش جنكيز خان وهولاكو لا يمكن أن يكون نقيصة لأحفادهم ممن كانوا أول من رفع رايات الإسلام فى هذه البقاع منذ زيارة احمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسى المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة أى السلافيين فى مطلع القرن العاشر الميلادى. ولست اعتقد أن الأمر فى حاجة إلى تنصل أبناء الحاضر من وقائع تاريخية سعيا وراء «تبييض» كل تاريخ الماضى. فلكم من الشعوب تورطت على أيدى قادتها فى المشاركة فى حروب لا ناقة لها فيها ولا جمل! ولكم من البلدان تشوهت وتعرجت مسارات تاريخها عبر القرون والأزمان!.

سامى عمارة
موسكو







خيرى منصور

■■ ما يهدد الكتابة فى حضرة هذا الثالوث.. «وجهات نظر . هيكل . مصر»، هو ارتهانها للتاريخ، بحيث تبدو أقرب إلى المراجعة منها إلى الاستقراء الحُر، وقد يبدو الترتيب للوهلة الأولى معكوسًا بحيث تتقدم وجهات نظر ذات الأعوام السبعة على مصر بألفياتها السبع وهيكل بعقوده الستة المفعمة عملاً، وشهادة، واقترانًا بأهم أحداث النصف الثانى من القرن العشرين.

لكنه ترتيب مقصود بعكسيته، لأن المجلة حين تكون منبرًا ذا طموح، ونزعة اجتراحية للمسكوت عنه، تصبح مطالبة بأن يتقطر فيها ومن خلالها الماضى برمته، خصوصًا ذلك الماضى الذى لم يغرب تمامًا والذى مايزال يواصل نفوذه عبر تجليات عديدة فى حياتنا.

وحين صدر العدد الأول من «وجهات نظر»، لم يكن بمجمل أطروحاته ومساجلاته ورصده مجرد مجال حيوى لمانفستو، لأن المانفستو فى مقام كهذا مبثوث فى تضاعيف المطبوع، وثمة إيقاع أشبه بالموسيقى الخفية التى تحدث عنها لورنس تشكل مزاجًا عامًا للمقتربات على اختلافها أو تضادها فى بعض الأحيان.

وكانت أحوال المنبر الشهرى أو الفصلى فى حياتنا الثقافية لا تسر أحدًا غير أنصاف الأميين ممن يبحثون عن مبررات لانصرافهم عن القراءة والمتابعة غير الكسل الذهنى والإركان إلى الثقافة الشفوية وأدبيات النميمة!

فمن تلك المجلات ما شاخ أو تقاعد أو وئد حيًا، ومنها ما بقى يراوح زمنًا وهو فى حالة احتضار، والأسباب كثيرة.. منها على الأقل ذلك المقال الوداعى . لا الافتتاحى الذى ودع فيه القائمون على مجلة دراسات عربية عددها الأخير، ومنها بيان النعى ذو النبرة الرواقية الذى ودع به أدونيس مجلة مواقف.. ومنها أيضًا ما أدركه الهجران فصار المستعاد منه إلى الموزع أضعاف المباع!

لهذا كان صدور مجلة فكرية «وجهات نظر» فى خريف المنابر الشهرية والدورية بمثابة مغامرة لكنها ليست مجازفة على أية حال.. مادام هيكل هو ضيف أعدادها الأولى، ومادامت قد وعدت القارئ الجاد بإنصافه، وتلبية هواجسه، ونقل أسئلته إلى مستوى المساءلة ببعديها التاريخى والأخلاقى!

ومنذ العدد الأول تنافست عدة صحف عربية على نشر مقالات «وجهات نظر»، ثم تغير المشهد بعد قرار هيكل بالانصراف عن الكتابة فى مقال وداعى أثار الأسى لدى الكثيرين وإن كانوا قد عادوا إليه عبر الكلام المتلفز ومؤلفاته ذات الطبعات المتكررة!

هناك ثلاث قضايا طرحها اقتران اسم هيكل بغلاف وجهات نظر، هى على التوالى:

أولاً: الشخصنة فى الثقافة العربية وانعكاساتها فى كل ميدان، بحيث يصبح منبر ما لصيقًا، بل مشروطًا بوجود كاتب ذى نفوذ واسع وينتظره ملايين القراء العرب.

فهيكل من الكتاب الندرة الذين يمكن وصفهم بأنهم عابرون للطبقات وللأجيال معًا.. يقرأه من استبد به الحنين، وغمرته النوستالجيا ليواصل قراءة «بصراحة» فى زمن مغاير، شحت فيه الصراحة وغاب عنه الصرحاء، مثلما يقرأه أحفاده من جيل ثالث لديهم إحساس مبهم بأن الزمن الذهبى قد ولّى فى العالم العربى.

ويقرأه رجل المال والناشط الفكرى والنقابى ومن تحول اسمه بالنسبة إليهم إلى عنوان حقبة تحرروا من أدبياتها وما يتصورون أنه القيود التى حالت دون حراكهم فاستنقعوا!

ثانيًا: اختار هيكل منذ العدد الأول لـ «وجهات نظر»، مُقتربًا منهجيًا مغايرًا إلى حد ما لما كان يقدمه فى كتبه المقروءة على نطاق واسع، فهو أصبح يلامس باليد المجردة اللحم الحى لوقائع طازجة، ويدير مفاتيحه فى أقفال كانت موصدة لزمن طويل، ونبش المسكوت عنه واستنطق قبورًا دارسة، وقد فعل كل هذا وهو يلوح بوثائقه ومنها ما هو نادر، وأهم تلك الوثائق ذاكرة يقظة تسمى الأشياء بأسمائها والشخوص بغير ألقابهم لهذا كان يشحذ فضول القارئ العربى حتى أقصاه وهو يتوقف عند نقطة إشكالية قابلة لعدة تأويلات سياسية.

ثالثًا: عندما انصرف هيكل عن الكتابة مسوغًا صمته بأسباب منها ما هو معلن فى السطور ومنها ما هو مضمر بينها، لم يأخذ معه جيرانه من صفحات «وجهات نظر»، ومنهم ذوو باع طويل فى حقولهم، لكن نفوذ اسمه، ورصيده غير المحدود لدى القراء، ومجمل القرائن والأسباب التى أضافت إلى منجزه الواقعى فى الكتابة بعدًا رمزيًا، كان متوقعًا له أن يترك هذا الفراغ، فالغياب أحيانًا ساطع الحضور.

وحقيقة الأمر أن غياب هيكل عن «وجهات نظر» لم يكن كاملاً، فثمة أنفاس ماتزال.. وحفيف يمكن الإصغاء إليه فى هذه الصفحة أو تلك، وفى هذه الإشارة أو تلك، إضافة إلى فصول تستقرئ ما كتب، لا على سبيل الاستذكار بل على سبيل الإضاءة ودرء الالتباس!

وسأعترف بلا مواربة، بأننى لا أكتب عن مجلة فى ذكرى صدورها أو بأية مناسبة تخصها بمعزل عن أنانيتى الشخصية كقارئ أولاً وككاتب ثانيًا، فهى منبر يتعلم منه حتى المساهم فى الكتابة فيه.

وقد لاحظت فى أكثر من عاصمة عربية جملة من الملاحظات تستحق التدوين لدلالاتها أولاً.. منها أن رجال أعمال وناشطين يكرسون عدة أيام من مطلع كل شهر لمناقشة أطروحات ترد فيها.. وكان يقلقنى أمران.. أولهما أن المجلة تصدر فى القاهرة التى صنفها هيكل بعبارة مكثفة وغزيرة الدلالة، هى القوة الناعمة، وأن معظم من يقرأ المجلة من هؤلاء الناشطين العرب هم عرضة لاعتمادها مرجعية ذات صدقية ونفوذ، لأنها محاولة جادة لاستعادة دور اعتراه الشحوب لبعض الوقت.

لقد شاهدت بعض هؤلاء يُجَلِّدونها بأناقة ومنهم من يزهو باقتنائها، سواء تعلق الأمر بما أسميته نوستالجيا الزمن الذهبى أو ما يسميه النفسانيون «السنوبية»!

وكلا السببين قابل للفهم.

وثمة لحظات تساءلت فيها ماذا لو أن منبرًا كهذا صدر فى عاصمة عربية غير القاهرة؟ وهل كان له أن يصدر أساسًا بهذه الحمولة؟ ولم يكن تساؤلى استخفافًا بعواصمنا أو تقليلاً من شأنها، لكن من كانوا طلابًا فى الجامعات خلال العقد الستينى الفريد من القرن الماضى حملوا فى الذاكرة والوجدان عرفانًا خاصًا للقاهرة بمجلاتها ومثقفيها وما توهج فى فضاءاتها من وعود بالحرية.

لهذا كانت «وجهات نظر» محظوظة

بالولادة وربما ولدت وفى فمها ملعقة حبر أثمن من الذهب وأبقى منه، هى اقترانها بالمكان وبما يثير الحنين إلى زمان ما، وليس معنى ذلك أننا نتحدث عن لحظة طللية، أو عن كائنات هجعت فى المتحف، فأحيانًا تكون الأطلال صالحة للسكنى كملاذ، ونحن نتحدث عن مكان، اقتسم فيه الأحياء مع الموتى وهم رميم مصباحًا ورغيفًا وزغرودة ودمعة، لقد ودع المثقفون العرب مجلات كانت تستحق البقاء، مثلما ودعوا قضايا احتازت شرف الأبدية، لأنهم وجدوا أنفسهم على قارعة التاريخ، مهددين بالنزوح عنه هذه المرة، لكن ما من خيام أو وكالات إغاثة.

وكما أن موت شجرة قد يؤدى إلى ولادة غابة، فما من منبر هو نبت شيطانى، لأن الماضى لا يمضى تمامًا، ويبقى على الدوام ما يكفى من الرحيق!

وسيصدر العدد الجديد من «وجهات نظر» دون أن يكون هيكل خارجه، فهو قارئ وراصد وشاهد، ولم أستطع الكتابة عن «وجهات نظر» بمعزل عن مصر وعنه، وهذا ليس احتفاء طقسيًا، أو إطفاء شمعة سابعة، لأن الأمر لو كان كذلك لبدأنا من مستهل آخر، له أعرافه.

والهاجس الذى يدفعنا إلى هذه الكتابة منه ما هو احترازى ومنه ما هو رغائبى أيضًا، فحين يكون المنبر موثوقًا به ومقروءًا يكون عبء المسئولية مضاعفًا إزاء كل جملة ترد فيه، لأن الموثوقية تفضى إلى تبنى المكتوب كمرجعية، لا بالمعنى الأكاديمى المحدد، بل بالمعنى الآخر الذى يرتبط بالصدقية.

والمجلة حتى عندما تكون من هذا الطراز فهى لا تنشر ما ترغب فيه، بل ما هو متوفر فى الحياة الفكرية والسياسية، لهذا قد يكون من صميم رسالتها افتضاح الراهن، وإن كان ذلك بأسلوب الإيحاء لا التصريح، كما فعلت مثلاً فى نشرها لحصيلة استفتاء حول أهم الكتب التى صدرت خلال عام ٢٠٠٥.

وقد بدد الصديق أيمن الصياد مدير تحرير المجلة التباسًا أوشكت على الوقوع فيه، عندما تحاورت معه مطولاً حول هذا الاستفتاء، وكان ومايزال مندهشًا من واقع ثقافى بهذه الهشاشة ومن متابعات سلحفائية لما يصدر فى الوطن العربى وكأن الناس لا يقرأون.. أو على الأقل هؤلاء الذين تُناط بهم مهمة القراءة والاستقراء ليكونوا عونًا للقارئ العادى ويدلوه على الينابيع!

ولولا خشيتنا من تسليم الوعى لتداعيات قد تأخذنا خارج هذا السياق، لأتحنا للذاكرة حتى لو كانت نصف مُضاءة أن تتوقف عند محطات عديدة أغفى الناس فيها على مقاعدهم، فيما توقفت القطارات وترجل منها سائقوها ومن معهم.

تلك المحطات مجلات ومطبوعات منها الشهرى والدورى والحولى أيضًا، ومعظمها وعدت القارئ العربى فى افتتاحيات متحمسة كى تدله على أول الطريق، لكنها لأسباب باتت محفوظة أصابها الإعياء فى أول المسافة، وليس السبب المادى هو الوحيد الذى أجهض بعضها فى المهد، بل غياب التناغم أيضًا بين من يعزفون سواء كان العزف منفردًا أو من خلال أوركسترا، فالصلة توشك أن تكون معدومة بين ما ينشر فى الصحافة اليومية والأسبوعية وما ينشر فى المجلات المتخصصة، وغالبًا ما يكون التدنى فى نشر المعالجات حتى لو كانت تتنطع لقضايا فكرية إشكالية فى الصحافة اليومية والأسبوعية، عائدًا إلى ذلك التعريف بل التحريف لدور الصحفى، ومجاله المهنى، لهذا كان ومايزال إصرار كاتب بوزن هيكل ومكانته وتاريخه على أن ينعت نفسه بالصحفى فقط، محاولة لإعادة الاعتبار المسلوب من هذه المهنة التى أوشكت أن تصبح مهنة العاطلين ومن لا حرفة لهم غير النميمة أو الهتاف!

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذه المناسبة وكل ما يماثلها أو يذكر بها هو: أين تجليات الشجون العربية والإنسانية فيما يكتب ويُنشر فى المجلات؟ وهل العناوين وحدها تكفى؟ عندما تتحول إلى مظلات مليئة بالثقوب تحت الشمس أو المطر؟

وهل الحضور اللغوى المحض لبعض الظواهر يكفى بديلاً عن غيابها الجوهرى؟

إن هذه الشجون مهددة بمصيرين فاجعين أو بأحدهما على الأقل.. وهو التهريب أو التسطيح وحذف أشد الأبعاد حيوية، بهذا المقياس تلعب مجلة ما دور المرشد لا الواعظ فى حقبة تنعطب فيها البوصلة.

وإذا كان لمجلة من طراز «الرسالة» أو «الهلال» أو «الكاتب» أجيال من المثقفين والكتاب لم تنقطع عن جذورها، فهل تطمح مجلات عربية فى زمن الإنترنت والكتاب ذى التقنية العالية والعولمة لأن تكون أمهات رءومات لأجيال؟؟

الأرجح أن من أهم واجبات مجلة جذرية وغير متواطئة مع المعطى أو المقرر سواء كان سياسيًا أو اجتماعيًا أو أيديولوجيًا هوا لافتضاح بمعناه المعرفى لا الأخلاقى. والكشف عن المستتر رغمًا عنه، واجتراح طريق فى الغابة بحيث لا يكون الفارق بين الحفيف والفحيح مجرد خطأ مطبعى!

إن مجتمعات ماتزال تعيش حقبة ما قبل الدولة وما قبل التمدن وما قبل الاستحقاقات الآدمية ثم تزعم بأنها تعيش حقبة ما بعد الحداثة.. والبعديات كلها بما فيها ما بعد القومية وما بعد الوطنية وما بعد التاريخ هى مجتمعات بحاجة إلى نقد جراحى حتى لو تم بلا تخدير، كى تصحو من سبات مزمن وغيبوبة استطالت حتى بدأت تقضم المستقبل وتستدين من طاقة ونصيب أجياله!

أخيرًا.. قد تكون هذه الكتابة متعددة الشجون والشعاب أيضًا.. وقد تبدو كما لو أنها تتفلت على نحو زئبقى من عنوانها.. لكنها تبقى مؤطرة بالحدود الإقليمية لبشر وليس لتضاريس، بشر يشتبكون مع هوياتهم وكأنها تُطرق أو تصاغ للتو من صلصال التاريخ الساخن!

لقد علقت «وجهات نظر» أكثر من جرس فى أكثر من عنق، لكن المواء لم ينقطع ولن ينقطع، وذلك هو عقب أخيل فى حكاية لامارتين الشهيرة التى مجدت بسالة الفئران وهى تحاول الجهر بعدائها التاريخى للقطط آكلة لحومها. وحين يفتح منبر ما أبوابه على مصاريعها لاستنطاق المسكوت به، والتحريض على «اللا مفكر به» بعد، فالكرة تصبح فى ملاعب مثقفين. منهم من ترهل وفقد مهارته ورشاقته بسبب تخمة ما ومنهم من قضى لأسباب تخصنا جميعًا ومنهم من ينتظر لأسباب تخصه، ولعلها مناسبة للاستذكار بأن «وجهات نظر» نشرت قبيل الحادى عشر من أيلول عام ٢٠٠١ مقالات عن صورة العربى فى الوعى الأمريكى، وكان لى شرف المساهمة بواحد من تلك المقالات عن الاستشراق المعكوس، أو ما أسميته تجليات الوعى السالب فى العدد الذى تزامن مع أحداث أيلول تلك..

فالمجلات لا تنتظر لكى تؤرخ، إن لها حدسها واستشرافها للقادم، لأن المستقبل هو بأبسط تعريفاته حاصل جمع الممكنات، ما ترسب منها فى الماضى ومايزال محتقنًا فى الراهن.

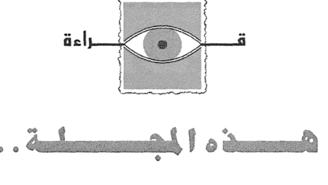
والمجلات الأكثر شهرة فى الولايات المتحدة مثلاً لم تكن تنتظر وقوع الأحداث كى تحلق عاليًا لرصد الأطلال التى تشهد عليها، وقد قرأنا مرارًا فى «الفورين أفيرز» على سبيل المثال لا الحصر مقالات تنتمى إلى ما بعد الاستراتيجية أو الميتا. استراتيجية، فكان بعضها أشبه بالنبوءة، لكنه فى الحقيقة وعى بالممكنات، فالخيال ليس خارج المدار الرؤيوى لصحافة تعى دورها وتستكمل نصاب عدتها لكى تبرر جدارتها بسلطة قد لا تكون الرابعة على الدوام، ففى المرات التى أسقطت فيها مقالة واحدة حكومة، أو أقالت صانع قرار كانت الأولى بامتياز وخارج مدار التراتبية الكلاسيكية للسلطات بمعناها الإجرائى!

والمجلة خصوصًا فى هذا المثال الاستثنائى الذى تقدمه «وجهات نظر» وترشحه لأن يتحول إلى أمثولة بالمعنى الإيجابى ليست حلقة وسطى. بين صحيفة وكتاب، لأن التدرج الإيقاعى فى مواعيد الصدور لا يصلح لأن نحتكم إليه فى هذا السياق، فقد تصبح مجلة ما عصارة لرف من الكتب، وقد تتردى أخرى لتكون جريدة بقطع مغاير وعدد غزير من الصفحات.

وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن المجلة التى تلتزم بتعريف مهنى ومعرفى دقيقين أوشكت أن تصبح فى ثقافتنا العربية خلال العقود الأخيرة العجاف بكل المقاييس حلقة مفقودة.. تحتاج إلى أنثروبولوجست ضليع فى فقه التطور الثقافى كى يحددها!

لهذا فالواقع بمجمل طياته وتعقيداته وعوالمه السفلية شبه مهجور والقراءات ترتهن للسطوح أو ما نتأ من جبال الجليد، وإذا لم نعترف بدءًا بأن للتخلف قوانين نموه وأن لثلاثى الفقر والجهل والمرض تنمياته، المضادة فإن مبتدأ الجملة سيكون محذوفًا.

تحية لـ «وجهات نظر».. وجهة.. وجهة، وصفحة صفحة وهى تدلف إلى عامها وعامنا الجديد بلا عكازات، وتحية لمهد عريق ولدت فيه، ولرحم أعرق منه أنجبها، ولصحفى كان توأمها متشبثًا باللقب الوحيد والعارى لمهنة أصبحت بحاجة إلى تحرير وتبرئة من جملة نعوت!! ■



هذه المجلة..

أيمن الصياد

■ «وجهات نظر».. في المسافة بين قرنين. إذا ما كانت هناك تلك المسافة - ظهرت تلك المطبوعة. تطلُّ على ما فات - وهو قائم.. أو أثره - بحكم أنه جرى. وتستشرف ما هو آت - وهو قادم.. أو توابعه - بحكم طبائع الأمور. وكلاهما مطلوب لنفهم، وضروري «لنقدر للقدم قبل الخطو موضعها».

فبراير ١٩٩٩.. تاريخ ولادة تلك المجلة التي استقبلها قراء العربية على تنوعهم، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحب بها من كانوا ينتظرون - ولا نقول يفتقدون - مطبوعة عربية تدقق اللفظ والمعنى.. واختيار الموضوع، وتفضل النظر من مسافة مناسبة تسمح برؤية أعمق.. تنظر «في» المشهد، ولا تكتفي بالنظر «إليه». ولا تضطر إلى اللهاث خلف تدافع الأحداث، متأثرة بالضرورة بلفح توهجها الآني، فتدفع ثمنا حتميا من تحر لدقة مطلوبة، والتزام بموضوعية واجبة.

وأشفق عليها - مبديا قلقه الطبيعي المشروع - أصدقاء ظنوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى في ساحة امتلأت بالصخب والأصوات العالية.

وكان أن توسط «عقد» كتابنا الكرام: محمد حسنين هيكل عميد كتاب الصحافة العربية المعاصرة، صديقا «دائما» للمجلة، وقلما يتصدر أقلامها. وفي حين رأى البعض في ذلك حسما حتميا ومبكرا لمنافسة مفترضة مع مطبوعة جديدة، رآه القائمون على تلك المطبوعة تحديا يفرض عليهم صرامة الالتزام بمستوى مهني «يليق».



ويبقى أن «المقال المستطرد» وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية، قدمته «وجهات نظر» على الدوام في مقالها الرئيس، وفي بعض مقالاتها الأخرى. وفكرته الأساسية أنه يقف في مكان وسط بين المقال الصحفي المقيد بحجمه المعتاد وبين الكتاب اللا محدود بطبيعته. وفكرة تقديم نموذج «المقال المستطرد» للقارئ العربي تعود إلى الأستاذ هيكل الذي رأى منذ البداية - ورأينا معه - «أن الومضة السريعة الآن للصورة وليست للكلمة، ذلك أن أي مهتم بالشأن العام سوف يتابع الخبر صورا متلاحقة على الشاشات المضيئة، لكنه يريد من الكلمة أن تذهب إلى ما وراء الصور. وأن تقول له على مهل ما الذي يجرى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأن تروى ذلك على مهل..».

ورغم أن «وجهات نظر» تحرص - وكذا كتابها - على أن تمتد «قراءتهم» لتشمل «واقعا معاشا» لا يمكن إغفال أهميته وتأثيره، إلا أنه - ويبقى للاستدراك هنا أهميته الخاصة - فبحكم طبيعتها أولاً، وبحكم دوريتها «الشهرية» ثانيا، تستميح المجلة قراءها عذرا حين لا تعد أن من واجبها تقديم ما يجرى أو حتى التعليق الآني عليه «والذي ربما كان متعجلا بحكم عوامل توقيت حاكمة، أو متأثرا بهوى مشاعر قرب غالبة»، وإنما تحاول تلك المجلة أن تقف - كلما كان ذلك ممكنا - على مسافة مناسبة من الحدث تسمح لها برؤية أوسع وأعمق.. وبالتالي أكثر وضوحا.





وكمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات تُعنى «وجهات نظر» بشكل رئيس بالكتب، والتي تمثل جزءا عزيزا من اسمها، إلا أنها لم تقصد - ولم تحاول - أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ «عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذي استقر طويلا في صحافتنا العربية. فتلك حالة قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. «فوجهات نظر» - وهي بحكم الاسم و«الهدف» ساحة لـ «الرؤى المتمعنة» - عندما تعرض لكتاب أو «لوثيقة»، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتي يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباين طبيعي في الخبرة، واختلاف وارد في زاوية النظر.

يفترض القائمون على تلك المجلة إذن أن «القراءة» التي تسعى إلى تقديمها هي في التحليل النهائي «خلاصة» لمزيج متفاعل حي بين الكاتب والكتاب.. أو لعلنا قائلون بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتاب».

و«الكتاب» لدى هذه المجلة هو كل ما كان مخطوطا بحبر على ورق، أو ومضات تلمع على شاشة، سواء طبعه الناشرون، أو بثته الشبكات، أو كان وثائق في ملفات تحمل أختاما حمراء، وترقد - إلى حين - خلف أبواب مغلقة.

و«الكاتب» عند تلك المجلة، لا ننتظر منه عادة أن يقدم لنا «ما في» الكتاب، بل نتوقع دائما أن يقدم لنا «قراءته» هو لذلك الكتاب.

في «وجهات نظر» كان قرارنا المبدئي أيضا - بحكم الاسم والهدف مرة أخرى - أن ندلل على الموقف الثابت من أن الاختلاف في الرأي لا يتطلب غير «الحوار». وأن الحوار يعنى في تفسيره الوحيد: تبادلا لـ «وجهات نظر». فالمتابع للمجلة من عددها الأول لابد أن يلاحظ أنه ما من «رؤية» ضلت طريقها للنشر، في حال توافر شروط «مهنية» لا ننكر صرامتها. إذ يعتقد القائمون على تلك المجلة صادقين بأن «للنظر زوايا مختلفة» وأن رؤية مكتملة للمشهد - مع افتراض إمكان ذلك - لا تتأتى أبدا إلا بمطالعته من مختلف الزوايا.

ففي مواجهة ما بدا مرة - أو مرات - في المشهد الثقافي والفكري العربي، من أن الحوار «الحقيقي» يترك مكانه عادة لصخب الخلط والصياح والضجيج والشجار، كان ضروريا أن تكون هناك «محاولة» لإزاحة غبار كثيف تراكم على تقاليد الحوار في ثقافة سبقت فجعلت «للكلام» علما خاصا قبل عدة قرون. ولعله كان ضروريا أيضا أن تؤكد «وجهات نظر» أن للحوار آلياته. حيث يحدد الناس - بداية - حول ماذا يتحاورون، وما هي نقاط الاتفاق. وما هي تلك التي مازالت محلاً للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هي المرجعيات المتفق عليها، وما هي التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات... هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقي» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالي أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض. ■